سورة هود

مكية وهي مع البسملة مئة وأربعٌ وعشرون آيةً وعشرة ركوعات

سورة هود مكية كلها عند ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وجابر بن زيد. وهناك رواية عن ابن عباس أنها مكية ما عدا قول الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ به صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. وقد استثنى مقاتل ثلاث آيات أولاها: المذكورة أعلاه، والثانية: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾، نزلتْ في عبد الله بن سلام وأصحابه، والثالثة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ نزلتْ في نبهان التمار. (البحر المحيط)

ملخص محتواها: تتناول سورة هود أحدًا من مواضيع سورة يونس بالشرح والتفصيل. لقد ذكر الله في سورة يونس أنه تعالى يعامل أمم الأنبياء بطرق ثلاث؛ إما أن يدمرهم نهائيًا؛ أو يغفر لهم تمامًا؛ أو يُهلك جزءًا منهم كلية ويُنجي جزءًا آخر نجاةً تامةً، وسورتنا هذه بيان مفصّل للسنّة الإلهية الأولى حيث توضح كيف أنه جلّ شأنه دمّر بعض الشعوب كليةً ومحا كل أثر لهم، واستعاض عنهم بقوم آخرين لم يكونوا خلفًا واستمرارًا للأمم السابقة الهالكة وإنما بدأ بهم دورًا جديدًا في تاريخ الإنسانية.

كما تبيّن سورة هود أن من صفات الله أنه لا يزال يراقب دائمًا أهل السيئة

ويعاملهم بمقتضاها.

كما تذكر أنه عزّ وجل لا يزال يهيئ الأسباب لهداية الخلق وفق الحاجة، فإذا لم ينتفع بها الإنسان هلك هلاكًا روحانيًا كما لو أنه كفّ عن تناول الغذاء المادي مات موتًا ماديًا.

ثم يُبيّن الله تعالى أن الناس لا ينقرضون بمجرد موت جيل منهم، وإنما يقوم مقامهم جيل آخر، كذلك هي حال الأمم، فإذا هلكت أمة جاء الله بأمة أخرى عوضًا عنها.

وتخبرنا السورة أيضًا أنه من الممكن أن تحقق أمّة من الأمم رقيا ماديًا دون أن تنشئ صلة بالله تعالى، ولكن لا يبقى من الأمم إلا التي تحافظ على إيمانها إلى جانب الرقي المادي.. أي أن الأمة التي تحافظ على علاقتها بالله هي التي يُكتب لها الخلود.

كما ذكر الله عزّ وجل في هذه السورة سبب انتصار المؤمن على الكافر عند المواجهة. وشرح هذا الموضوع بضرب أمثلة بعض الشعوب القوية التي تعرضت لعباد الله الصالحين بالسوء فهلكت وبادت. فسرد سبحانه وتعالى في هذا الصدد أحداث قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام. ولقد تطرق فيها إلى ذكر إبراهيم أيضًا ولكنه حديث ضمني جاء في سياق الحديث عن لوط عليه السلام وقومه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أخيرًا ما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون من أحداث، ولكنه لم يتحدث هنا عن موسى لكونه منتميًا إلى بني إسرائيل، وإنما لبيان ما فعل فرعون وقومه بموسى مما تسبب في هلاكهم.

ثم نصح المؤمنين بأن يتذكروا دائمًا أنه إذا أراد الله عذاب قوم فيجب على المؤمنين اجتنابهم كليةً، لأن اختلاط المؤمنين بهؤلاء الكفّار يعرّضهم للعذاب.

ثمّ طمأنَ الله تعالى النبيَّ ﷺ قائلاً: إننا نقص عليك أحداث رسلنا هؤلاء كيلا تحزن على هلاك قومك، فقد كانت هذه عاقبة كثير من أعداء أنبيائنا. إلا أن الله تعالى قد أدخل السكينة على قلب النبي ﷺ حين لفت نظره إلى ما سيحققه المسلمون من رُقيٍّ وإنجازات كبرى.

لقد ساق الله تعالى في هذه السورة من أخبار العذاب وهلاك الأمم، والمسئوليات الجسام على النبي ﷺ، ما جعله يصرّح قائلاً: "شيّبتْني هود" (الترمذي، التفسير، سورة الواقعة).. أي أن فحوى هذه السورة قد أثر في نفسي تأثيرًا هدّ كياني وأشفَّ بدني.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

أُحكِمتْ: أحكمتْه التجارب: جعلته حكيمًا. أحكم السّفيه: أخذ على يده، أو بَصَّرَه بما هو عليه. أحكم الشيءَ: أتقنَه، وأحكم فلانًا عن الأمر: ردّه ومنعه. أحكم الفرسَ: جعل للجامه حكمةً. (الأقرب).

فُصّلتْ: فصّل الشيءَ: جعله فصولاً متمايزة. فصّل الثوبَ: قطعه بقصد خياطته. فصّل الكلامَ: بيّنه وضدُّ أَجمَلَه. فصّل العقدَ: جعل بين كل خرزتين من لون واحد خرزةً أو مرجانةً أو شذرةً أو جوهرةً مخالفةً لهما. (الأقرب)

خبير: الخبير: العارفُ بالخبر. والخبرُ: ما يُنقل ويُتحدث به (الأقرب). (وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أي: عالم بأخبار أعمالكم؛ وقيل: عالمٌ ببواطن أموركم؛ وقيل: خبيرٌ بمعنى مُخبر. (المفردات)

التفسير: يعلن الله جلّ شأنه في قوله ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أن آيات هذا الكتاب زاخرة بالحِكم، وإن كل ما ورد فيه يكفّ الإنسان عن الشر ويأخذه إلى الخير، ويبصّره بما في نفسه من مساوئ خفيّة، وهكذا يوقفه على حقيقة أمره. وإنه

كلام لا نقصان فيه ولا فضول. وفيه كل تعليم نافع وضروري لما يحتاج إليه الناس دون حشو أو نقص. كما أننا ذكرنا فيه كل ما لا بد منه من تفصيل للأحكام دون الإغماض عن ذكر الفروع الضرورية بقدر الحاجة.

وقوله تعالى ﴿فُصِّلَتْ﴾ إشارة في الواقع إلى ما يوجد في القرآن الكريم من تعاليم متشابهة جاء ذكرها في موضع آخر ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: ٨). فقد ذكر ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إزاء ﴿مُّحْكَمَاتٌ﴾ في سورة آل عمران، أما في آيتنا هذه فقد وضع كلمة ﴿فُصِّلَتْ﴾ مقابل ﴿أُحْكِمَتْ﴾، ليبيّن أن المفصّلة هنا بمعنى المتشابهات. ومن هنا يتجلى لنا معنى المتشابهات أيضًا، إذ المراد منها الأحكام التفصيلية المتعلقة بالفروع، وهي التي يتجاسر العدو على الطعن فيها، أما التعاليم المحكمة أي الأحكام الرئيسية الجوهرية فلا يقوى أحد على التعرض لها بالطعن.

مع العلم أن السبيل لمعرفة الحق إنما هو قياس الأحكام الفرعية على الأحكام الرئيسية، فإذا توافقت وتطابقت فلا وجه للاعتراض. فهناك مثلاً من يعترض على الإسلام بسبب بعض تعاليمه الفرعية كالحدود (تفسير ويري جـــ ١ ص٢١٦)، ولكنهم لو قاسوها بالتعليم الأساسي القائل: اعفوا إذا كان العفو نافعًا، وعاقِبوا إذا كان العقاب رادعًا، لما وجدوا سبيلا للاعتراض، إذ سيجدون الإسلام يأمر بالعقاب حيث يُجدي وبالعفو حيث يُفيد. ومثالٌ آخر نضربه لتوضيح الأمر فنقول: إن الله يأذن بالقتال والحرب في بعض الحالات، وهذا ليس بالأمر المحبّذ فيما يبدو، ولكنا إذا أدركنا أنه لا يكون في بعض الأحيان بدٌّ من الحرب لتوطيد العدل والأمن لم يبقَ مجال للاعتراض على ذلك. شأنهُ تعالى في ذلك شأن الطبيب الذي يقتلع للمريض سنًّا. فإن عملية قلع الأسنان تبدو عملاً قاسيًا خاليًا من الرحمة والشفقة، ولكنا لو نظرنا إلى حقيقة الأمر لوجدنا هذا العملَ الرحمةَ بعينها.

أما قوله عزّ وجل ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ففيه إشارة إلى أن مصدر هذا الكتاب

هو مصدر سامٍ للغاية، ولذلك فإنه يمكن الاطمئنان إليه وقبوله بكل تفاصيله وفروعه، لأن الحكيم لا يفعل إلا ما يتلاءم مع مقتضى الحال. وقد بيّن القرآن بوصف الله تعالى "بالحكيم" أن الذي أنزله لا يريد به عزًّا ولا شهرة وإنما يريد به خير الناس ونفعهم، لذلك لم يترل فيه تعليمًا ظاهرُه خير وباطنه شر، بل قدّم فيه كل ما هو خير لهم في الواقع ولو عافه البعض وابتعدوا عنه.

أما مثال التعليم الذي ظاهره خير وباطنه شر فهو ما ورد في الإنجيل حين يقول: إذا لطمك أحد على خدك الأيمن فأَدِرْ له الأيسر أيضًا (لوقا ٦:٢٩)، ومثال التعليم الذي ظاهره يبدو شرًا ولكن باطنه خير في الحقيقة هو ما يأمر به القرآن الكريم حين يفرض على الإنسان أن يقاوم بشدة وقوة كل الذين يتدخّلون في دين الآخرين عن طريق الظلم والإكراه.

فمن كان يريد كسب الصيت والشعبية لدى الناس سوف يدعوهم إلى التعليم الأول، ولكن الذي يريد خير الإنسانية ومصلحتها في الواقع فلن يكترث برضا الناس أو سخطهم، وإنما سيقدم لهم ما ينفعهم في الحقيقة.

إن هذه السورة تشتمل على كثير من أخبار العذاب لذلك استهلها الله عزّ وجل بذكر صفته "الحكيم" ليوضّح للناس أن معاقبة الأمم السالفة كانت لحكمة بالغة فيها صلاحهم، وليس عن ظلم وتعسف وقهرٍ.

كما بيّن بذكر صفته (الخبير) أنه سبحانه وتعالى عليم بحقيقة الأشياء ومطّلع على بواطن الأمور، ولا يمكن لمثل هذا الخبير أن يلزم الصمت على فساد في باطن الإنسان أو يتردد في معاقبته على سوء أعماله.

أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾

التفسير: إن الأمر الإلهي بالعبادة يبدو في ظاهره دليلاً على طمع وأنانية منه –

والعياذ بالله – أو كأنه تعالى بحاجة إلى عبادة الإنسان، ولكـــنّا إذا تدبرنا القرآن الكريم وجدنا الواقع على عكس ذلك، لأنه يصرّح بكل وضوح وجلاء أن ليس لله حاجة في عبادة أو عمل ما من أي مخلوق كان، حيث يعلن سبحانه ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(العنكبوت: ٧)، وكذلك قال ﴿لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(الحجرات: ١٨).. أي أن إسلام أحد من الناس ليس بمنة على الله أو رسوله، وإنما هو إحسان وفضل من الله على العبد إذ هداه إلى طريق الرقي والفلاح. إذن، فالعبادة تنفع العابد، ذلك أن العبادة لا تعني أبدًا تلك الحركات الجسدية الظاهرة فقط، وإنما هي اسم لكل الجهود الظاهرة والباطنة التي تجعل من الإنسان مظهرًا لصفات الله عزّ وجل. لأن كلمة العبد تعني في الواقع من ينطبع بطابع سيّده وينقاد بمشيئته انقيادًا تامًا. والظاهر أن الذي ينقاد تمامًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى سوف تنعكس فيه صفات الله الحسنى فيُحرز مدارج عالية من الرقي. وهكذا فإن العبد هو المنتفع وليس الله جلّ وعلا.

وأما ما ورد في التوراة بأن الله تعالى خلق آدم على صورته (التكوين:١)، فهو أيضًا إشارة إلى أنه تعالى قد خلق الإنسان ليسعى للاتصاف بالصفات الإلهية، وإلا فإن الله عزّ وجل أسمى وأعلى من أي صورة أو تشكُّلٍ.

فالحث على العبادة إنما يعني أن يكون الإنسان دائم النظر إلى الله تعالى، لأن أحدًا إنما يستطيع رسم صورة الشيء رسمًا كاملاً إذا كانت ملامحه واضحة في ذهنه. والعبادة اسم لوضع الصفات الإلهية نصبَ العين ونقشها في الذهن.

وهناك حديث شريف يشير إلى هذا المعنى إذ جاء فيه أن شخصًا سأل النبيَّ ﷺ: ما الإحسان (أي العبادة الكاملة)؟ فقال: "أن تعبد الله كأنك تراه" (البخاري، الإيمان).

وأما قوله تعالى ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فاعلم أن الإنذار لا يعني تخويفًا من الله تعالى كَتخويف الناس بالأفاعي والأسود، وإنما المراد منه: التحذير والتنبيه. فلا تعني الجملة بأنني أخوّفكم من الله تعالى، بل المعنى أنني أنبهكم إليه وأذكّركم به كيلا

تغفلوا عما ينفعكم وتختاروا ما يضركم.

كما أن كلمة (بَشِيرٌ) تعني أنني لم آت لتحذيركم فقط، بل جئتكم بما سيحقق لكم الرقي أيضًا.

وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

يمتّعكم: المتاع: كلُّ ما يُنتفع به من الحوائج كالطعام والبزّ وأثاث البيت والأدوات والسلع. وقال في الكليات: المتاعُ والمتعة: ما يُنتفع به انتفاعًا قليلاً غير باقٍ بل ينقضي عن قريب. وأصلُ المتاع ما يُتبلّغ به من الزاد. ويأتي المتاع اسمًا بمعنى التمتيع. (الأقرب)

التفسير: لقد وجّه الله تعالى في الآية السالفة الأنظارَ إلى غاية خلق الإنسان، ولكن الإنسان يواجه أحيانًا شتى العقبات في طريقه إلى غايته لذلك أخبر الله العباد هنا أنكم إذا نويتم الاتصاف بصفاتي والحصول على قربي ووجدتم العراقيل دون غايتكم هذه، فالسبيل لإزالتها أن تسألوا ربكم الغفران.. أي عليكم بأن تستعينوا به على تطهير قلوبكم مما علاها من صدأ الذنوب، وتتضرعوا إليه أن يخلصكم من دَرَن المعاصي التي تحول دون توصّلكم إلى ربكم الأعلى.

والغفران يعني أيضًا تغطية الشيء ومحوه، فيكون معنى الاستغفار أَنِ ادعوا الله تعالى كي يمكّنكم من كبح الشهوات التي تقف عقبةً دون وصولكم إلى الله جلّ شأنه.

ثم قال ﴿ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾.. أي بعد كبح تلك الشهوات توجهوا إلى الله تعالى ليتولد

حبه في قلوبكم، فيسهل عليكم الوصول إليه.

ويتبين من ذلك أنه بعد كبح الشهوات وإخماد العواطف الشريرة المثيرة لسخط الله تعالى يمكن للإنسان التوصُّل إلى الله، أما بدون القضاء عليها ومحو تأثيرها السابق فيستحيل أن تتولّد في القلب محبة الله تعالى بشكل كامل.

كما يتضح من ذلك أن التوبة تأتي بعد الاستغفار. هناك بعض الحمقى الذين يزعمون أن التوبة التي يدعو إليها الإسلام تشجّع الإنسانَ على المعاصي. والحق أنهم يجهلون حقيقة التوبة الإسلامية. ذلك أن العبد الذي لا يزال يحاول محوَ آثار ذنوبه الماضية، مكافحًا رغباته الشريرة، ساعيًا إتباع أوامر الله تعالى.. كيف يمكن أن يقال عنه بأن توبته ثرثرةٌ وفضولُ كلام لا يتعدى اللسان، ومدعاة لارتكاب المزيد من المعاصي. فالحق أن زعمهم هذا يدلّ على غبائهم وحماقتهم هم. إن التوبة الحقيقية لا تكون باللسان فقط، لأنها تعني في الواقع اجتنابَ المرء الذنوبَ وميلَه إلى الله تعالى بكل رغباته واهتماماته. فإذا لم تُكسبه هذه التوبة رضوانَ الله وقربَه، فلا أدري ما هو الشيء الآخر الذي يمكّنه من ذلك؟

أما قوله تعالى ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فأخبر فيه أنكم إذا أطعتم نبيكم فسوف تحققون المكاسب المادية أيضًا. ذلك أن المتاع يعني المنفعة المؤقتة، وليست هي إلا المنافع الدنيوية المادية. والمراد من ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الفترة الزمنية التي يحدّدها الله تعالى لقيام وازدهار أمّة ذلك النبي المرسل.

وأما قوله تعالى ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ فالمراد منه البركات الروحانية، سواء نالها الناس في هذا العالم أو في الآخرة.

وقوله تعالى ﴿فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾. اعلمْ أن الشيء يُعتبر كبيرًا بالنظر إلى ضخامته وأيضًا إلى تأثيره، فالمراد من الجملة أنكم إذا رفضتم هذا التعليم فسوف تواجهون عذابًا طويلاً مؤلمًا للغاية بحيث يتعذر عليكم احتماله.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥﴾

التفسير: أي سوف تؤخذون إلى الله تعالى في آخر المطاف، فلماذا لا تقومون بأعمال تنفعكم عند المثول أمامه جلّ وعلا. واعلموا أنه قادر تمامًا على كل شيء.. أي على الإنعام عليكم أو عقابكم، فاسعوا للظفر بإنعامه وفضله.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

يَثنون: ثَنَى الشيءَ ثَنْيًا: عَطَفَه (الأقرب). والإنسان يثني فمَ القربة أو الكيس كيلا يسقط منه ما فيه، فمعنى الجملة: أنهم يسعون لإخفاء ما في قلوبهم من أفكار.

يستغشون: استغشى ثوبه وبثوبه استغشاء: تغطَّى به كيلا يُسمع ويُرى (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر الله هنا عيبين للكفار يحرمانهم من الهدى. الأول: إنهم يخفون ما يتولد في قلوبهم من أفكار مريضة ولا يكشفونها لأهل الحق، وهكذا لا يمكن شفاؤهم منها، مع أنه يجب على الإنسان الذي يبحث عن الحق والهدى أن يصرّح للآخرين بما يصده عن قبول الحق، لأنه ما لم يتم إزالة العقبة الحقيقية لا يمكن له نيل الهدى. وقد لوحظ هذا المرض في كثير من الناس، فإنهم لا يذكرون أثناء الحديث عن قضيةٍ ما العقبةَ الحقيقية التي تقف أمامهم وإنما يناقشون الأمور الهامشية، وهكذا ينتهي الحوار وهم على ما كانوا عليه من الشك والريبة.

والمرض الثاني هو أنهم يحاولون أن لا يغيّروا ما في قلوبهم، ودأبهم في ذلك أنهم لا يريدون الحوار وسماع موقف الخصم إطلاقًا. وكيف يمكن أن يهتدي للحق من ليس مستعدًا لسماع ما يقوله الآخرون. وهذا المرض أشد فتكًا من الأول، وهو عامٌّ وشائع. فلكي يبقوا على ما هم عليه يحاولون جاهدين – عند رؤية تأثير الحق والصدق – أن ينأوا بأنفسهم عن الاستماع لأهل الحق، كما ينهون غيرهم عن الإصغاء إليهم قائلين: إن هؤلاء سحرة مشعوذون فلا تسمعوا لحديثهم.

والله تعالى يُنبّهُهم هنا أنهم يتعاملون مع الذي هو عالم الغيب، فهل سيجديهم قولهم بأنهم لم يقبلوا الحق ولم يعرفوه لأنه لم ينكشف عليهم، ولم يروا حجة ولا برهانًا. إن الذين يفرون خلسةً كي لا تقام عليهم الحجة، قد أقاموها هم على أنفسهم فعلاً. فلا يحق لهم بعدُ الادعاءُ بعدم العلم أو عدم الاطمئنان إلى الحقيقة. اللّهم إلا من سعى منهم جاهدًا لفهم الحقيقة ومعرفة الحق، ولكنه لم يستطع ذلك، أو الذي لم يبلغه الحق رغم بحثه الأكيد عنه بخلوص النيّة وصفاء القلب.

وقد تعني الجملة أن الله العليم مطّلع على مكائدهم الظاهرة والخفية ضد دينه الحنيف.

والمراد من ﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ هو الأفكار والنوايا، وذلك أن صدر الشيء يعني أفضله، وأفضل ما في الإنسان أفكاره ونواياه لأنها منبع جميع أعماله وإنجازاته. فتعني جملة ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أنه عزّ وجل مطّلع على خفايا قلوبهم، وأنه لم يبعث رسوله إليهم إلا بسبب فساد نيّاتهم، فلا حقيقة إذَنْ لدعواهم بأنهم على خير حال وفي غنًى عن أيّ مصلح سماوي.

إنّ علاقة هذه الآية بما قبلها هي أن الآيات السابقة لها تعلّم الإنسان طريق الترقيات الروحانية وتتحدث عن العقبات التي تعوق تقدمه رغم أنفه، وتدلّه كيف يستطيع تذليلها. أما هذه الآية فتتحدث عن العوائق التي يخلقها الإنسان بنفسه، والتي تتوقّف إزالتها على إرادته وجهوده هو.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

دابّة: الدابة: ما دبّ من الحيوان، وغلب على ما يُركَب ويُحمل، ويقع على المذكر، والهاء فيها للوحدة (أي للواحد) كما في الحمامة. (الأقرب).

مستقرّها: المستقرّ: موضع الاستقرار. والشمس تجري لمستقر لها: أي لمكان لا تجاوزه وقتًا ومحلاً (أي زمانًا ومكانًا) (الأقرب).

مستودَعها: استودعه مالاً: استحفظه إياه. والمستودَع: مكانُ الوديعة والحفظ؛ مكانُ الولد من البطن (الأقرب).

التفسير: تعني الآية أن الله تعالى وحده الذي يهيئ الرزق لكل مخلوق، سواء كان من الآدميين أو من حشرات الأرض أو وحوش الغاب، وكل ما على المخلوق هو أن ينتفع بهذا الرزق. إن العقل الإنساني يقف مذهولاً حيالَ كيفية حصول كل هذه الحشرات التي – لا تعد ولا تحصى – على رزقها الميسّر. إن الإنسان لا يعرف حتى الآن نوعية غذاء بعض الديدان. إن ما يزرعه الإنسان لنفسه يجعل الله فيه نصيبًا للحيوانات أيضًا، فإذا أصبحت حبات القمح غذاءً له فإن التبن يكون علفًا للمواشي. لو نبتت حبات القمح دون السيقان والأوراق التي تصير تبنًا للماشية فلربما ما اعتنى الإنسان بغذاء هذه الحيوانات المسكينة كما ينبغي.

ثم إن الله تعالى قد جعل بعض الأطعمة ضارة لبعض المخلوقات ونافعة لغيرها. فمثلاً تصلح الأعشاب والأشجار ذات الأشواك طعامًا للإبل، وتصير النجاسة غذاءً للغنم. ثم إنه جلّ شأنه قد هيّأ للديدان المتولدة في جسم الإنسان غذاءها حيث هي. وبالاختصار، قد جعل الله تعالى لكل مخلوق غذاء مختلفا. حتى إن أغذية

الحيوانات المفترسة تختلف من حيوان لآخر. فكل هذه الحيوانات التي تبلغ عشرات الملايين تعيش على أغذية متنوعة جدًّا. وهذا الإنسان الذي يدّعي اكتشاف أسرار الطبيعة لا يستطيع الإحاطة حتى بأنواع هذه المخلوقات، ناهيك عن معرفة نوعية أغذيتها التي هيّأها الله لها.

وأشار الله بقوله تعالى ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ إلى أن المخلوقات لم توجد بنفسها عبثًا، بل إن الله تعالى هو الذي خلقها وقد حدّد لكل فرد منها مدىً وجعل له غاية محددة.

وتبيّن الآية أنه لما كان الله تعالى هو الذي يهيئ الرزق لكل مخلوق، من صنوف الحيوانات التي لا حصر لها، ويلبي كل حاجة لها – مهما ضَؤُلَتْ – فكيف يمكن إذن أن يُغفل الله سبحانه هذا الكائنَ الذي هو أشرف المخلوقات وأرقاها، فلا يهيئ له الرزق الروحاني الذي هو سبب فضيلته في الواقع.. أي كيف يمكن أن يتغاضى سبحانه عن إنزال تعليم سماويّ لهذا المخلوق الراقي لتنمية ملكاته الروحانية وقواه الأخلاقية. إن العقل السليم لا يقبل أبدًا أن يكون الله هو الذي يسدّ حاجات هذا الكائن منذ أن كان مضغةً من الدم في الرحم، ثم يتخلى عنه عندما يستوي إنسانًا ويكون بحاجة إلى ما ينمي به ملكاته الروحانية والأخلاقية. فلا بد إذن أن يكون الله قد هيأ أسبابًا لتربيته الروحانية، وترك له الخيار كي ينتفع بها على الوجه الذي يتراءى له.

ولقد قال الله تعالى من قبل ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، والمستقر مكان استقرار الشيء وإقامته إقامةً دائمة، والمستودع مكان إقامته إقامة مؤقتة. لقد أضاف هذه الكلمة هنا لأنه لا يقدر على إمداد المحتاجين بالغذاء إلا الذي يعرف مكان إقامتهم، كما أنه لا يهيئ الغذاءَ المناسب النافع إلا من كان عالمًا بمدى قدرات أولئك المحتاجين. أما الذي لا علم له بمنازل المخلوق وقدراته فيمكن أن يخطئ في كيفية تزويده بالغذاء. ومن أجل ذلك نجد أن ما اخترعه الإنسان من عند نفسه من مبادئ

وتعاليم فإنه لم يراعِ فيها الاتزان، بل راعى فيها مستودعه فقط أو مستقره فحسب. فإما أنهم بالغوا في التركيز على الجانب الروحاني وحده، غاضين النظر تمامًا عن حاجات الإنسان الجسمانية، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى حرمانه من الرقي الروحاني أيضًا، لأن فساد الإناء يسري إلى الغذاء الذي فيه؛ أو أنهم بالغوا في التركيز على الجانب الجسماني فقط، مهملين الحاجات الروحانية تمامًا، مع أن الإنسان إنما يفضل على غيرِه من المخلوقات بروحانيته وآدميته لا غير. وهكذا فكأن هؤلاء المقترحين يُفسدون غاية الخلق الإنساني.

فالحق أن عقل الإنسان وحده لا يقدر على إدراك الغذاء المناسب له الذي يُراعى فيه الجانبان الروحاني والجسماني معًا، لأنه لا علم له بحالات ما بعد الموت في قبره وبعد بعثه في الآخرة، في حين هو بحاجة إلى الغذاء الروحاني في ذلك العالم. إذًا فلا يستطيع هو أن يقترح بعقله الذاتي ما ينفعه في الآخرة من عقائد وأعمال.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

الماء: جسم رقيق مائع يُشرب، به حياةُ كل نامٍ (الأقرب).

سَحَرة: السِحر: كلُّ ما لَطُفَ مأخَذُه ودَقَّ؛ وقيل: إخراجُ الباطل في صورة الحق؛ وإطلاقُه على ما يفعله من الحيل حقيقة لغوية (أي مجاز). سَحَرَه: عمل له السحرَ وخدعه (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: انظروا كيف أن الله هيأ بالتدريج أسبابًا لخلقكم وظروفًا لرقيكم، حيث لم يزل يطوّر الحياة إلى أن خلق الإنسان. ألا تدركون من ذلك أنه جعله غاية خلق الكون كله؟ ثم فكّروا لماذا جعله غاية الخلق؟ لا شك أن سبب ذلك هو ما أُودع هذا الإنسان من ملكات روحانية. فكيف يمكن أن يهمل الله ملكاته الروحانية هذه، ولا يهيئ لتنميتها وتطويرها ظروفًا ملائمة؟

أما قوله تعالى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، فاعلم أن القرآن الكريم قد صرّح في عدة أماكن فيه أن الماء منبع الحياة كقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾ (المرسلات: ٢١)، وقوله ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق: ٦و٧)، وقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ (الفرقان: ٥٥)، وقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١).

وهكذا يؤكد القرآن مرارًا وتكرارًا أن الحياة خُلقت من الماء. فالمراد من قوله تعالى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أن صفات الله الكاملة إنما ظهرت من خلال كائنات ذات حياة. وأيُّ شك في أن الصفات الإلهية إنما تظهر ظهورًا كاملاً عن طريق الإنسان الذي هو آخر وأفضل حلقة في سلسلة الحياة.

وإن قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أيضًا يؤكد المعنى الذي ذكرته آنفًا. ذلك أن العرش لو كان موضوعًا على الماء المادي في الحقيقة – كما يزعم البعض– فكيف يتم به اختبار الأعمال الإنسانية؟ ولكن ما ذكرته من معنى لا يُبقي أي إشكال وينحسم المعنى في الجملتين تمامًا، إذ إن المراد الحقيقي منهما أن الله عز وجل قد قدر ظهور صفاته الكاملة من خلال المخلوقات الحية، لكي يرى سبحانه أيَّ الناس سينتفع بهذه الصفات ويسبق غيره في مضمار الرقي الروحاني.

كما أن قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ يشير إلى أن غاية خلق الإنسان أن يسعى ليكون مظهرًا للصفات الإلهية، لأنه تعالى جاء بهذه الجملة بعد قوله (وكان

عرشه على الماء) ليبين أننا إنما نتجلى بهذه الصفات لكي تقوموا بأحسن ما يمكن من الأعمال، مما يؤكد أنه تعالى إنما يتجلى بها لكي يسعى الإنسان إلى تقليدها والاتصاف بها.

كما أن قوله تعالى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ يعني أيضًا أنه ما دامت قدرته تعالى لم تزل تتحكم في كل حلقة من سلسلة خلق الإنسان فكيف يمكن أن يخرج هذا الإنسان عن دائرة قدرة الله تعالى وحكمه.

وهناك معنى ثالث لقوله تعالى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ وهو: أن الله قد جعل ظهور صفاته منوطًا بوحيه وكلامه. ذلك أن القرآن قد شبّه الوحي الإلهي بالماء في مواضع عديدة منه، ولذلك فقد يراد بالماء هنا الوحي، والمعنى: أننا قدرنا ظهور صفاتنا من خلال الوحي لكي تهتموا بالعمل وتنتفعوا بهذه الصفات. والحق أنه تعالى لو لم يجعل الرقي الروحاني مشفوعًا بالنعم المادية لحُرم الكثيرون من هذا الرقي الروحاني، ولكنه تعالى قد أعلن سنته هذه بقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة: ٢٢). فالذين يتشرفون بنعمة الوحي الإلهي يحققون هم وأتباعهم غلبةً مادية أيضًا، لكي ترى الدنيا كيف يعمل هؤلاء بوحي الله بعد نيل القوة والحكم.

إن الآية تشير أيضًا إلى النظرية الإسلامية عن الارتقاء والتطور البشري حيث يعلن سبحانه قائلاً إننا جعلنا عرشنا على الماء أي على عملية الحياة لكي يتم بين الكائنات الحية سباق يُظهر فيه كلُّ كائن حي ملكاتِه وقدراته، حتى يتضح في آخر المطاف أيّ من هذه الكائنات الحية جدير بأن يصبح غاية للحياة. بمعنى أن الهدف الأخير من عملية خلق الحياة إنما كان ينحصر في أن يخلق الله تعالى كائنًا قادرًا على التجلي بالحياة على أكمل الوجوه. وهذا يبيّن جليا أن الإنسان لم يُخلَق إلا في آخر مرحلة من مراحل شتّى مرت بها عملية الخلق وتطورت. وهذا يعني أن الإسلام لا يعترف بكون الإنسان مخلوقا قد تطور من القرد أو أي حيوان آخر، غير أنه يعترف بكل تأكيد بأن الحياة لم تزل في تطور تدريجي إلى أن خُلق الإنسان، وإن كان الله قد دبّر تطوير بذرة خلقه منذ البداية بحيث لا يخرج منها في آخر المطاف إلا الإنسان.

وأما قوله تعالى ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ فبيّن فيه أن خلق الإنسان بهذا الأسلوب نفسه يشكّل دليلاً على أنه لا بد من حياة بعد الموت، لأن خلق هذا الكون الشاسع الواسع كي يعيش فيه هذا الكائن البشري ذو الإرادة يُوضّح بكل جلاء أن حياته لا تخلو من غاية أسمى. ولكنا نجد – من جهة أخرى – أن حياته في هذا العالم حياة اختبار وابتلاء، ومكان الاختبار يكون دائمًا مكان إقامة مؤقتة غير ثابتة مثل قاعة الامتحانات، فهي ليست بمكان يمكث فيه الطالب على الدوام، بل يبقى فيه إلى حين انتهاء الامتحان. ثم إننا نجد أن دار الابتلاء يغلب عليها عنصر الغموض والخفاء، وأما دار الجزاء فيغلب عليها عنصر الوضوح والجلاء. وهكذا نجد هذه الحياة الدنيا إذ يغلب عليها عامل الخفاء والغموض إلى أن حدا ذلك بالبعض إلى إنكار وجود البارئ سبحانه وتعالى. وإذن فلا بد من أن يؤخذ الإنسان من دار الخفاء والابتلاء هذه إلى دار الجلاء والجزاء. وهذا ما يقول الله تعالى هنا لرسوله الكريم، بأنك إذا قلت لهم: ألم تروا أنّ الله ظلّ يُطوّر الكون والحياة شيئًا فشيئًا إلى أن خلق الإنسان وجعله الغاية من خلق هذا العالم كله، أجابوك بنعم – كما يفعل اليوم الملحدون الذين يعتقدون بنظرية التطور والارتقاء – ولكنك حينما تقدّم لهم النتيجة المنطقية الحتمية وتقول: إذن فلا ينبغي أن تنتهي دورة الحياة هنا فقط، بل لا بد من حياة بعد الموت، تراهم يكذّبونك ويعرضون عنك!

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

شرح الكلمات:

أمّـــة: الأمة: الجماعةُ؛ الجيلُ من كل حيّ؛ الطريقةُ؛ الدينُ؛ الحينُ (الأقرب).

حاق: حاق به يحيق حَيقًا وحُيوقًا وحِيقانًا: أحاط به. حاق بهم الأمرُ: لزمهم ووجب عليهم. حاق بهم العذابُ: نزل وأحاط. (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: كما أن الناس مخدوعون عن الحياة بعد الموت كذلك هم مغترون فيما يتعلق بعذاب الدنيا؛ فإذا تأخر عنهم العذاب طفقوا يثيرون شتى الاعتراضات، مع أنهم لو أعملوا الفكر لأدركوا بكل سهولة أن الدنيا ما دامت دار ابتلاء واختبار فلا بدّ أن يمنحهم الله بعض المهلة قبل أن يسحقهم بعذابه، إذ لولا المهلة والتأخير لم تعد الدنيا دارَ اختبار بل صارت دارَ جزاء.

الغريب أن أهل الدنيا ينكرون وجود الدار الآخرة من جهة، ومن جهة أخرى يطالبون بالعذاب الحاسم على عداوتهم للرسل، وهكذا يعترفون – من حيث لا يدرون – بضرورة دار الجزاء.

وقد أشار بقوله ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ إلى أنهم ليسوا جادين في مطالبة العذاب، وإنما هدفهم الاستهزاء والاستخفاف. ولكن استخفافهم هذا يرتد عليهم وبالاً إذ يتسبب في تعجيل العذاب.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿١٠﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

يئوس: اليئوس كصبور: القنِطُ (الأقرب).

كفور: اسم المبالغة من كفر يكفر نعمة الله وبنعمة الله كفورًا وكفرانًا: جحدها وسَتَرها، وهو ضد الشكر (الأقرب).

نَعْماء: النعماءُ: اليدُ البيضاء الصالحة. (الأقرب).

ضرّاء: الضرّاء: الزمانةُ (أي القحط)؛ الشدةُ؛ النقصُ في الأموال والأنفس؛ نقيضُ السرّاء (الأقرب).

السيّئات: السيئة: نقيضُ الحسنة (الأقرب). والحسنة يعبَّر بها عن كل ما يسرّ من نعمة تنالُ الإنسانَ في نفسه وبدنه وأحواله، والسيّئةُ تُضادُّها (المفردات).

فرِح: اسم المبالغة من فرح يفرح الرجل بالشيء: انشرح صدره بلذة عاجلة؛ بَطِرَ (الأقرب).

فخور: اسم المبالغة من فخر يفخر الرجل: تمدَّحَ بالخصال وباهَى بالمناقب والمكارم من حسبٍ ونسبٍ وغير ذلك، إما فيه أو في آبائه (الأقرب).

التفسير: إنّ الأمم المبتعدة عن نور الوحي الإلهي تتملّكها وجهتا النظر الخاطئتان هاتان. فبالرغم من أنهم يرون بأم أعينهم أن الدنيا في تقلُّب دائم ومستمر، إلا أنهم لا يفكرون في أسباب هذه التقلّبات ولا يتلقون منها درسًا، بل يستسلمون فقط للحالة التي تطرأ عليهم. فإن أصابتهم مصيبة استولى عليهم القنوط، وإن أصابتهم مسرّة تملَّكَهم الزهو والغرور. ذلك أنهم لم يدركوا أن الدنيا دار الابتلاء، وأن الله تعالى يختبر الإنسان ويرى كيف يكون ردّ فعله في حالتَي الفرح والترح، وأنه من خلال هذا الاختبار يطوّر الله أحوال الإنسان الروحانية حتى تصل ذروتَها وكمالها. والذي لا يدرك هذه الخُطة الإلهية فإنه عندما يمرّ بأي من الحالتين فإنه لا يتّعظ بها، بل يصير منفعلاً مستسلمًا لما هو فيه.

إِلا الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

التفسير: أي أن المؤمنين لا يسلكون كهذا السلوك. فلا يدَعون الحزن يغلبهم ولا يسمحون للفرح أن يصرعهم، وإنما يتحكمون في أنفسهم ويضبطونها في كل حال. فلا يصيبهم هلعٌ ولا جزع ولا قنوط حينما يحل بهم بلاء، بل يبدون عليه صبرا وجلدًا، ويصمدون له بشجاعة وبسالة، ساعين لإزالة أسبابه بكل همّة وعزيمة. وعندما تأتي عليهم أيام الفرح والسرور والنعم فلا يستبد بهم الزهو والغرور، وإنما يزدادون بها صلاحًا وتقوى، ويهتمّون بأن يشاركوا غيرهم فيها، ويصنعون بهم المعروف أكثر.

وبقوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، يخبر بما سيناله المؤمن من جزاءٍ ملائمٍ. فبما أنه يصبر على الأذى والشدة، وأن هذا الأذى يترتب على أخطائه أو ضعفه البشري، فلذا يكون جزاء صبره الغفران عن أخطائه وتقصيراته البشرية. ثم بما أن المؤمن لا يزهو ولا يتباهى عند الفرحة والنعمة بل يزداد بها تقوى وصلاحًا، فلذا يزيده الله أيضًا فضلاً وعطاءً.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

لعلّك: لعلّ: طمعٌ وإشفاق (من المخاطِب). ولعلّ، وإن كان طمعًا فإن ذلك يقتضي في كلامهم تارةً طمع المخاطَب، وتارةً طمعَ غيره. فقوله تعالى فيما ذكر عن

قوم فرعون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ فذلك طمعٌ منهم، وقوله في فرعون ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ فإطماع لموسى عليه السلام مع هارون، ومعناه: فقولا له قولاً لينًا راجين أن يتذكر أو يخشى، وقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ أي.. يظن بك الناس ذلك (المفردات).

كنـــزٌ: الكنـــز ما يُدّخَرُ؛ المالُ المدفون في الأرض؛ اسمٌ للمال إذا أُحرِزَ في وعاء؛ الذهبُ؛ الفضةُ؛ ما يُحرَز فيه المال (الأقرب).

التفسير: لقد سبق أن ذكرت أن من أسلوب القرآن أنه أحيانًا يرد على السؤال دون ذكره صراحةً، وهذا ما فعله هنا، إذ لا تذكر هذه الآية السؤال الذي أثاره الكفار بل بدأت بالردّ عليه. لقد سأل الكفار لدى سماعهم وعدَ الله للمؤمنين ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وقالوا: كيف تعدهم، يا محمد، بالأجر الكبير وأنت لا تملك كنزًا وليس معك أي فوج من الملائكة ليساعدوك على ضعفك وقلة حيلتك؟ فيردّ الله عليهم ويقول معرّضًا بهم: إنه فعلاً توجُّهٌ خطيـــرٌ، وسوف تضطر يا محمد بسببه أن تخفي بعض ما أوحيناه إليك من أنباء عن انتصار الإسلام وازدهاره! والمراد أنك لن تفعل ذلك أبدًا.

أما إذا اعتبرنا (لعل) في قوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ...﴾ طمعًا من العدو، فيكون للجملة معنى آخر وهو أن العدو يطمع في أن تخفي بعض كلام الله النازل عليك خوفًا من مطاعنهم هذه، ولكن طمعهم هذا عبث وباطل، لأنك "نذير"، أي رسول فقط، وعملُ الرسول تبليغ الرسالة بأمانة كما هي، دون أن يخفي منها شيئًا. وأنت لست تدّعي بأنك إله حتى تكون كنوز الكون تحت تصرفك كما يطالبون.

وأما لو قيل هنا: إن المؤمنين الذين وُعدوا بالأجر الكبير أيضًا أناس وليسوا بآلهة يملكون الكنوز فكيف سيملكون إذن هذا الأجر الكبير؟ فالجواب إن هذا وعدٌ لهم جزاءً على صبرهم وسيتحقق لهم في المستقبل، وليس أنهم قد أُعطوه من قبل. فما كان يحق للكفار أن يطالبوا الرسول ﷺ أن يريهم منذ البداية أسبابًا ظاهرة لرقيه وازدهاره،

وإنما يحق لهم ذلك عند حلول الموعد، لأن وجود الأسباب والقدرة منذ البداية يعني القدرة الذاتية، وهي ميزة لا يتمتع بها أحد سوى الله جلّ وعلا.

أما قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فأكد فيه سبحانه أن هذا كله سيقع لا محالة، وسوف تحظى يا رسول الله، بالغفران والأجر الكبير، وسوف يترل الملائكة الذين سوف ينجزون لك مهماتك ومشاريعك. ولن تظفر أنت وحدك بالمُلك بل سوف يناله غِلمانك ويصيرون ملوكًا أيضًا.

إنّ الذي لم يُعمِه التعصب عن رؤية الحق، يستطيع أن يدرك ما إذا تحققت هذه الوعود أم لا؟ ألم تذلل الملائكة كل عقبة كانت تعترض سبيل رقي الإسلام؟ ألم يظفر النبي ﷺ بالمغفرة؟ أو لم يجز الله أصحابه الذين صبروا على صنوف التعذيب والاضطهاد أجرًا كبيرًا.

إنه لمن المؤسف حقًا أن يستنتج بعض أعداء الإسلام من هذه الآية أن الرسول ﷺ كان قد استعد للتخلي عن أجزاء من القرآن الكريم خوفًا من مطاعن الكفار! مع أن السّياق ينقُض هذا الزعم. هل من عاقل يقول بأن مطالب الكفار بإنزال الكتر والملائكة كانت من الثقل والقيمة بحيث تخيف الرسول ﷺ فيقوم بإخفاء بعض رسالات الله جلّ شأنه؟ هل يُعقل أن ينسى الرسول قول الله له: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾؟ إذا كان الكفار يجهلون ذلك فالآية إنما تتحدث عن طمعهم هم فقط، حيث ظنوا خطأً أنه سيترك بعض الوحي خوفًا منهم، وليس أنه ﷺ قد استعد فعلاً ليسقطه من نص القرآن الكريم.

ألا يتذكر هؤلاء المعترضون الجهال قول الرسول لوفد قريش عندما جاءوا يُهدّدونه أن يتصالح معهم وإلا سحقوه وأقاربه سحقًا؟ أو لم يقل رسول الله ﷺ لعمّه ردًا على عرضهم وتهديدهم: والله، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته. (السيرة لابن هشام). فكيف يستساغ إذن الزعمُ بأنه ﷺ خاف مما عرض عليه الكفار حتى إنه قام لكي يخفي كلام

الله سبحانه وتعالى.

ثم إننا إذا تدبرنا في الآية التالية وجدناها أيضًا تفنّد هذا الزعم الفاسد، لأنها تتحدى كل العالم أن يأتوا بكلام يماثل أيًا من عشر سور من القرآن الكريم. فإذا كان النبي ﷺ قد أصبح بنفسه – والعياذ بالله – ضحيةً للشكوك والشبهات في القرآن الكريم فكيف يُعقل أن يوجّه هذا التحدي بُعيدَ الحديث عنه كمشكّكٍ في القرآن. إن هذا التحدي القرآني يبيّن بكل جلاء وصراحة أن إيمان النبي ﷺ بصدق القرآن الكريم كان أقوى وأثبت من رواسي الجبال.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾

التفسير: هذه الآية أيضًا تؤيد المعنى الذي تُبيّنه الآية السابقة. إذ إن الكفار لـــمّا ظنوا أن محمدًا ﷺ سوف يخفي بعض الوحي الإلهي خوفًا من طعنهم، ردّ الله عليهم بقوله للرسول الكريم: ما كنت لهم إلا نذيرًا، ولم تدّعِ الألوهية حتى يتحتم عليك اصطحاب هذه الأشياء دليلاً على صدق دعواك. وإنك لنبيٌّ مُرسَل ولا بدّ لك من تبليغ الرسالة كما هي دون أي نقصان فيها.

وكان من الممكن أن يرد الكفار على ذلك بقولهم إنّ هذه دعوى باطلة، وإنما أنت في الواقع رجل مفترٍ وليس في يدك قوة أو أسباب غير عادية، فيردّ الله عليهم في هذه الآية بقوله: لا شك أن هذا النبي لا يملك أي كنوز ظاهرة حاليًا، ولكنه يملك كنوزًا روحانية، ولا سيما الكتر الذي لا يساويه كل ما لدى الناس من أموال وثروات مجتمعةً، ألا وهو القرآن الكريم. فإذا كنتم صادقين في زعمكم أن محمدًا مفترٍ

وكذاب، وأن بعض ما أتى به من كلام إنما هو ناقص مُفتَقر إلى التغيير والتعديل، فتعالوا أيها الكافرون إلى ساحة النزال. ولا نطالبكم أن تأتوا بكتاب يوازي القرآن كلّه ضخامةً ومعنىً، وإنما أن تأتوا بعشر سور من مثله، حتى وإن كان الذي تأتون به يماثل تلك الأجزاء التي تروها تافهة تفتَقر إلى التعديل. أما إذا لم تستطيعوا ذلك، ولن تستطيعوا، فلا مناص لكم من الاعتراف بأن هذا الرسول يملك كنزًا لم يسبق له نظير في العالم أجمع.

وقوله تعالى ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، لقد سبق أن ذكرت في تفسير سورة يونس أن مسألة سموّ القرآن وتحدي العالم بالإتيان بنظيره.. قد عالجها القرآن في خمسة مواضع، وأرى أن مفهوم التحدي في كل موضع منها يختلف عن غيره:

١. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة: ٢٤).

٢. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(يونس: ٣٩).

٣. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهي الآية التي نحن بصددها.

٤. ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(الإسراء: ٨٩).

٥. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(الطور: ٣٤ و٣٥).

ويلاحَظ أن التحدي في الموضعين الأول والثاني من نوع واحد، أما تحديات المواضع الأخرى الثلاثة فكل منها له معنى خاص به. ففي سورة الإسراء كان التحدي بالإتيان بمثل القرآن كله، وفي سورة هود بالإتيان بعشر سور، بينما كان التحدي في سورة الطور على الإطلاق وإن كان بالإتيان ببعض سورة، فما السبب في هذا

الاختلاف؟

قيل إن الاختلاف سببه التنازل للمعارضين في التحدي حتى ينكشف لهم عجزهم التام. فطالبَهم أولاً بمثل القرآن كله، وعندما عجزوا طالَبهم بعشر سور مثله، فلما عجزوا طالبهم بسورة، وحينما عجزوا أيضًا طالبهم بحديث مثل القرآن.

وعندي أن هذا التعليل لا يخلو من الاضطراب والضعف، لأن ترتيب نزول القرآن يخالف ذلك. حيث كان ترتيب نزول هذه السور كالآتي: سورة الطور، ثم سورة الإسراء، ثم سورة هود، ثم سورة يونس وأخيرًا سورة البقرة. فليس من السائغ نظرًا لترتيب نزول السور أن يكون التحدي أولا ببعض آيِ القرآن، فإذا عجزوا يرفع التحدي إلى القرآن كله، فلما عجزوا يخفض إلى عشر سور ثم إلى سورة واحدة.

ثم إن القرآن الكريم لا يسرد هنا حادثًا لنعتبر به فحسب، بل يبين هنا تحديًا علينا أن نُوجّهه إلى العالم أجمع، فيجب أن نكون على بينة منه ونعلم جيدًا بماذا نتحداهم. هل نطالبهم بالإتيان بمثل القرآن كله، أم بعشر سور منه، أم بسورة، أم ببعض سورة؟ فإذا كانت المطالبة بتقديم آيةٍ واحدةٍ مثلِه تفي بالغرض فما الداعي بأن نطالبهم بسورة كاملة، أو إذا كانت الكفاية في المطالبة بالإتيان بسورة واحدة مثله فلماذا نطالبهم بعشر سور مثله، أو إذا كانت المطالبة بعشر سور كافية فلماذا نطالبهم بمثل القرآن كله؟

فالرأي عندي أن لا حاجة بنا للخوض في تحديد زمن نزول هذه التحديات وهذه السور، لأن بعضها قد نزلت في فترات متقاربة جدًا بحيث يتعذر تحديد ترتيبها الزمني. ثم يجب أن نأخذ بالاعتبار في صدد نزول القرآن أنه لم تنزل سورة واحدة بعد أخرى، بل في بعض الأحيان نزلت في فترة واحدة أكثر من سورة. فإننا وإن كنّا نستطيع تحديد زمن نزولها بالنظر إلى زمن نزول آخر آية منها، ولكن لا يصح هذا بالنظر إلى كل آياتها.

ولذلك كله أرى أن هذه الآيات تتضمن مطالبات متنوعة، وكل مطالبة منها

مستقلة ولا تتركنا بحاجة إلى تحديد زمن نزول السور، بل نستطيع اليوم أيضًا أن نتحدى العالم بكل هذه المطالبات وفي وقت واحد، كما تمّ التحدي بها عند نزول القرآن.

وقبل أن أتناول بالبحث كلَّ مطالبة منها على حدة.. أود أن ألفت الأنظار إلى أن كل تحدٍ منها جاء مقرونًا بذكر المال والثروة والقوة والقدرة، ما عدا الوارد في سورة البقرة، لأن التحدي الوارد فيها هو نفس ما في سورة يونس، قد أعاده الله في سورة البقرة، بصورة مختصرة، مع العلم أن سورة البقرة سورة مدنية وسورة يونس مكيّة.

يقول الله في سورة يونس قبل التحدي: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ۞ ...قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّيَ إلا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٢،٣٥ و٣٦).

وكذلك جاء في سورة الطور بعد إيراد التحدي: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۞. أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ (سورة الطور: ٣٦-٣٨).

وجاء هنا في سورة هود قبل التحدي: ﴿...لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ...﴾.

وجاء في سورة الإسراء بعد التحدي: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً ۞.أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ...﴾ (الإسراء: ٩١-٩٤).

من ذلك يتبين أن هنـــاك علاقةً عميقة بين التحدي المُطالـــب بمثل القرآن وبـــين

الكنـــوز والخزائن، ألا وهي أن القرآن المجيد أيضًا كتر من كنوز الله وخزائنه، ويردّ الله تعالى على من يطالبون بالكنوز أنهم يطالبون الرسول ﷺ بما هو فعلاً بين يديه.. فمعه أعظم الكنوز وأسماها. ويرد على من يطالبون بالملائكة فيقول: إن الملائكة لا تتنزل لمسابقات مادية، وإنما تتنزل بالوحي، وقد نزلت بالفعل على الرسول الكريم بكلام الله تعالى. فالمنكرون يطالبون الرسول بما قد حصل من قبل. وإذا كانوا قد أعماهم التعصب فأنكروا كونَ القرآن كترًا، أو تنزّلَ الملائكة معه من عند الله تعالى.. فليأتوا بمثل القرآن، لأنه بنفسه يؤكد أنه منقطع النظير إذ يقدم الأدلة على نزوله من عند الله وعلى كونه كترًا يعجز الجميع عن أن يأتوا بمثيل له.

وهناك فرق يجب الانتباه إليه في هذه الآيات المتضمنة للتحدي، وهو أنه عندما طالبَهم بالإتيان بكلام مثيل للقرآن بكمية أكبر فقد ذكر إلى جانبه المطالبة بالكنوز والملائكة من جانب الكفار، ولكنه عندما تحداهم بالإتيان بمثله بكمية أقلّ لم يُشفعه بهذه المطالبة على لسان الكفار، بل الله نفسه سألهم عندئذ قائلاً: هل أنتم مُلاّكُ هذه الكنوز، وهل أنتم المشرفون على نواميس الطبيعة والمدبّرون لها.

وسبب هذا الفرق في الأسلوب هو أن الأماكن التي ذكر فيها موضوع كون القرآن كترًا كبيرًا بصورة واضحة كان هذا السؤال عندها متوقعًا وواردًا من قبل الكفار، لذلك يذكره القرآن بلسانهم مشفوعًا بالرد عليه. أما الأماكن التي ذُكر فيها هذا الموضوع بشكل دقيق عميق فما كان الكفار ليدركوا عندها عظمةَ القرآن الكريم، ولو تُرك الأمر عندئذ هكذا انتظارًا لتساؤلاتهم لبقيت جوانب من فضل القرآن الكريم خافيةً على الناس. ولذا فقد كشفها الله بنفسه بتوجيه السؤال إليهم، وبهذا فقد أظهر كل محاسن القرآن وجلاّها. فتبارك الله أحسن الخالقين.

والآن أتناول هذه الآيات – كلاً على حدة – لإيضاح الحكمة من هذه التحديات.

أولاً: لقد جاء التحدي الأكبر في سورة الإسراء مُطالبًا بالإتيان بمثل هذا القرآن كاملاً دون أن يشترط عليهم بأن يكون هذا الكلام منسوبًا إلى الله، بـــل يمكنهـــم

أن يأتـــوا بأي كلام كان، ومن أي مصدر يشاءون، شريطة أن يكون مثل القرآن الكريم أو أفضل منه.

ولما كان تحديد المماثلة أمرًا هامًا فقد بيّنها القرآن الكريم في سورة الإسراء نفسها حيث قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلا كُفُورًا﴾ (٩٠).. أي إذا كان الكافرون يرون هذا القرآن من افتراءات البشر فعليهم أن يقدموا كلامًا مساويًا له في الفضائل التالية:

١) أن يكون هدايةً كاملة في أمور الدين، مستوعبًا جميع ضرورياته من العقائد وفلسفتها، وصفاتِ الله وحكمة ظهورها، وعلم الكلام، والعبادات وفلسفتها، وعلم الأخلاق ومبادئه الفلسفية، والمعاملات وأسسها الحكيمة، وما يتصل بالدين من أمور الحضارة والمدنية والسياسة والاقتصاد، وحقيقة الحياة الآخرة وما يتعلق بها، وغيرها من أمور حيوية ضرورية.

٢) أن يتناول الأمور السالفة الذكر من كل نواحيها سعةً وعمقًا، مرشدًا إلى الصواب والحق في كل مجال منها.

٣) أن تكون كل عناصره مع سعتها ودقتها لا تقدم إلا النافع الخالي من الضرر.

٤) أن يكون كلامًا عامًا.. لا يخص شعبًا بعينه، ولا يرعى مصلحة فئة معينة، بل يخاطب الإنسانية جمعاء، ويصلح للطبائع البشرية كلها، ويتفق مع كافة الظروف والأوضاع ويناسب مستوى الأفهام جميعًا.

وبما أن القرآن الكريم لم يكن قد نزل بشكله الكامل عند نزول سورة الإسراء، لم يطالبهم الله فيها أن يأتوا بمثله الآن، بل قال: (لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ).. أي لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله لا في شكله الحالي ولا بعد اكتمال نزوله.

ولعل في هذا التحدي ردًّا على من يزعمون معرفة الأمور الغيبية ممن يسمَّون "الروحانيين" (Spiritualists)، فينبّههم إلى أن الإتيان بمثل علوم القرآن مستحيل

على الإنسان، سواء حاول هو بنفسه أو بمعونة الأرواح الخفية التي يدّعون الاتصال بها. مع العلم أن المراد بالجن هنا هو تلك الكائنات التي يتوهمون وجودها والتي يزعم الروحانيون الاتصال بها لمعرفة الدقائق الروحانية. ومما يؤكد قولي هذا هو أن الله تعالى قد سبق أن ذكر الروح قبل هذه الآية بأربع آيات إذ قال ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٦).

ثانيًا: والآية الأخرى التي تتناول اعتراض الكفار بأن الرسول ﷺ لا يملك كترًا وليس معه ملَك هي الآية التي نحن بصددها ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ فإن الآية تقدم القرآن على أنه كتر نزلت به الملائكة وتتحداهم بأن يأتوا ولو بما يماثل عشر سور من هذا القرآن، ثم ليزعموا أن الملائكة قد جاءت به من عند الله تعالى، ثم لينتظروا مصيرهم بعد هذا الافتراء على الله جل شأنه.

وقال لهم: إذا كنتم أنتم لا تتجاسرون على هذا الافتراء فكيف تستسيغون زعمكم أن محمدًا قد تجاسر على هذا الافتراء. وإذا كان محمد بالفعل مفتريًا كذابًا فلماذا لا يؤاخذه الله عز وجل؟ بهذا الأسلوب يدعوهم الله هنا إلى المبارزة العلمية والروحانية معًا.

كما ويطالبهم هنا بالإتيان بعشر سور فقط على عكس ما تحدّاهم به في سورة الإسراء، لأن القرآن الكريم لا يعالج هنا بيانَ كماله من كافة الوجوهِ كما فعل هناك، بل إنه يفنّد هنا اعتراضهم على بعض الأمور الواردة في الوحي القرآني كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾، وأيضا من قولهم ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَتْرٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ﴾ وبهذا يدعوهم الله تعالى لأن يختاروا ما يشاءون مما يرونه عيبًا في القرآن ويأتوا إزاءه بعشر سور مما يختلقون حتى يتم اختبارهم فيما يدّعون.

وقد اختار العدد عشرة لأنه عدد تام، وكأنه تعالى يقول لهم: ها نحن لا نضيّق عليكم الفُرص بطلب مثال واحد تأتون به، بل بوسعكم أن تحاولوا عشر مرات وتعرضوا عشرة أمثلة إن كنتم فاعلين. ولا يعني عدد العشرة أنهم فعلاً كانوا قادرين على الإتيان بسورة واحدة فطالبهم بعشر تصعيدًا لاختبارهم، كلا، بل إنه الطريق

الأمثل لدحض مزاعمهم، أن يُعطَوا أكثر من فرصة في عشر محاولات، حتى لا يدّعوا بأنهم كانوا مغبونين.

ثالثًا: والموضع الثالث الذي أعلن فيه القرآن أنه كتاب لا نظير له هو ما جاء في سورة يونس حيث تحدّاهم الله تعالى أن يأتوا بسورة واحدة فقط مما يماثل هذا القرآن، وهو دون التحديين السابقين بعشر مرات. ذلك لأن التحدي هنا جاء تدليلاً على إحدى دعاوي القرآن الكريم، وليس ردًا على الكفار. فقد ذكر قبل هذا أن القدرة الكاملة والتصرف المطلق هو لله وحده، والدليل على ذلك هو القرآن الكريم نفسه. ولقد أورد فيها خمسة تحديات عن القرآن قائلا: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس:٣٨)

فهو (أولاً) يحتوي على تعليم لا يمكن للإنسان أن يأتي بمثله؛ وهو (ثانيًا) يصدّق الكتب السماوية السابقة؛ وهو (ثالثًا) يكمّل الأحكام الناقصة فيما سبق من كتب؛ وهو (رابعًا) مصون من كل عبث أو تصرف إنساني؛ وهو (خامسًا) منهج عام لجميع الناس وكافة الأزمان، من رب العالمين.

ثم يأتي التعقيب على ذلك بقوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٩) أي إذا كنتم تحسبون أن ما ذكرناه عن القرآن ليس حقًا ولا عدلاً فأتوا بسورة واحدة مثله تتصف بتلك المزايا الخمس المذكورة آنفا، أما وأنكم لن تستطيعوا الإتيان حتى بسورة واحدة من مثله، فيمكن أن تقدِّروا مدى كمالاته وفضائله التي لا تعد ولا تحصى، وتعرفوا كم هو أسمى من افتراء البشر. فالمماثلة يراد بها هنا فضائل القرآن الخمس هذه.

رابعًا: والتحدي الرابع هو قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور:٣٤، ٣٥) أي إذا كنتم صادقين في مزاعمكم فقدِّموا ولو أمرًا واحدًا من مثله. وكان هذا أقل التحديات شأنًا، حيث قيل

لهم: فأتوا بكلام ولو أقل من سورة واحدة من القرآن الكريم. مع العلم أن هذا التحدي أيضًا لم يَرِد استجابةً لدعوى من الكفار، بل إنه جاء تدليلاً على ما ادعاه القرآن نفسه في مستهل تلك السورة بقوله تعالى ﴿وَالطُّورِ ۞ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۞ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۞ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۞ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۞ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ (الطور:٢-٩).. أي أننا نقدّم -كبرهان على حتمية وقوع القيامة- أمرين اثنين هما: القرآن والإسلام، مؤكّدين أن القرآن هو الكتاب الموعود به على جبل الطور، وسوف يُكتب وينشر كثيرا في العالم دون انقطاع، وأن الإسلام سوف يدخل فيه الناس أفواجًا، عامتهم وكذلك خاصتهم من ذوي الفضائل الروحانية والملكات الجسمانية، وأن هذا المعين الدافق سترتوي منه الدنيا بأسرها من أقصاها إلى أقصاها.

ثم يعقّب الله تعالى بعد عدة آيات بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(الطور: ٣٤-٣٥).. أي إن كان هذا عندهم افتراءً فعليهم أن يأتوا بحديث أي نبأ واحد مثل الذي جئنا به فيما سبق من أنباء متنوعة، ولا نشترط عليهم أن يكون الحديث الذي يأتون به منسوبًا إلى الله، بل لا نشترط حتى أن يكون من عند أنفسهم، بل لهم أن يستخرجوه من أي كتاب سماوي أو غير سماوي.

مع الاعتبار أنه تحداهم هنا بأقل المطالبات وقال: فليأتوا ولو بنبأ واحد مثل الأنباء الكثيرة التي يزخر بها القرآن الكريم، وأكّد لهم فشلهم وعجزهم معلّلاً ذلك بقوله: إنكم لن تقدروا على ذلك أبدًا، لأن الإدلاء بمثل هذه الأنباء يقتضي أن يكون مصدرها خالقًا للسماوات والأرض ومراقبًا لها، ومالكًا لما فيها من كنوز وخزائن، وواهبًا للنفوس رقيها الروحاني، ومُطّلعًا على الأمور الغيبية، بينما أنتم محرومون من هذه المواصفات والقدرات كلها، فأنّى لكم أن تدلوا بمثل هذه الأنباء. و لم تكن هناك حاجة لتأكيد فشلهم في تقديم نظير لهذا النبأ القرآني من الكتب السماوية السابقة،

لأنها كانت كتبا صحيحة من حيث مصداقيتها ومرجعيتها إلى الله فعلاً، لكن الفرق بينها وبين القرآن الكريم هو الدرجة والمترلة.

خامسًا: أما التحدي الخامس فقد ورد في سورة البقرة حيث طالبهم بالإتيان بسورة واحدة. قال الله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الآية:٢٤). وهنا أيضا جاء بالتحدي تدليلاً على دعوى القرآن المذكورة في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. مع العلم أن مطالبة الإتيان بسورة واحدة جاءت أيضا في سورة يونس مع نفس التأكيد بأنه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾، مما يعني أن هناك صلة وثيقة بين موضوع ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ وبين مطالبة الإتيان بسورة واحدة. تعالوا نر ما هي تلك العلاقة.

لقد أعلن القرآن الكريم عن نفسه في سورة البقرة قبل إيراد هذا التحدي بآيات عديدة أنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.. أي أنه قادر على إيصال الإنسان إلى الدرجات العلى في الروحانية. وكأن التحدي هنا يعني أنكم إذا كنتم في شك من كون القرآن من عند الله تعالى فتعالوا لمبارزته في مجال تأثيراته الروحانية، وأْتوا ولو بسورة واحدة ذات تأثير روحاني مثله. ذالك أنه لَمن مزايا القرآن أن قراءة أية سورة منه تشحن الإنسان بتأثيرات روحانية سامية للغاية، وكأنه يقضي على الشكوك التي تثور في النفس، ويوصل العباد إلى دنيا اليقين وهو مقام الوصال بالله تعالى. وهذا المقام إنما يُنال بتلاوة القرآن الكريم وحده، إذ ليس هناك أي كتاب آخر يستطيع أن يباريه في هذه الميزة الرائعة. إن كل سورة منه تتسم بهذه الصفة التي لا يمكن أن يجاريها أيّ كلام آخر.

لقد تبين تمامًا مما أوضحناه إلى الآن أن هذه التحديات الخمسة تمثل خمس مطالبات في الواقع، كل واحدة منها مستقلة، وثابتة ومتحققة، ولا تنسخ إحداها الأخرى.

لقد وقع المفسرون في الخطأ بسبب زعمهم بأن كل تحدٍ منها يعني الإتيان بمثل القرآن في الفصاحة فقط، مع أن الأمر على عكس ذلك. فالتحدي في هذه السور

الخمس ليس واحدا -كما أسلفتُ- بل إنها تحديات مختلفة مستقلة، وكل واحد منها يدعو إلى الإتيان بمثل القرآن كله أو بعضه طبقا للسياق والظروف.

أما إذا قيل: هل تتضمن هذه التحديات المطالبة بضرورة كون كلام الكفار فصيحًا كفصاحة القرآن أم لا، فالجواب: نعم، وبكل تأكيد، ولكنها مطالبة ضمنيّة، وليست الغاية الحقيقية المطلوبة. ذلك أن المعاني السامية لا يمكن التعبير عنها إلا بكلمات فاضلة وتراكيب رائعة. ولما كان القرآن الكريم محتويا على معارف سامية فكان لزامًا على منزِّله أن يختار أفضل الكلمات وأروع التعابير وإلا بقيت تعاليمه غامضة مبهمة. وما دام القرآن قد نزل بهذه الميزة اللغوية الراقية فلا بد أن تشتمل هذه التحديات على مطالبة المعارضين بالالتزام بقواعد الفصاحة والبلاغة أيضا.

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لا إِلَهَ إلا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٥﴾

التفسير: أي أنهم إذا لم يقبلوا التحدي فسوف يظهر جليًّا أن القرآن الكريم يحتوي في الواقع على المعارف والعلوم التي نزلت من عند الله فقط، وأن فيه أمورًا لا يستطيع أي إنسان الوقوف عليها، ومن أجل ذلك تقاصرت أحلام الناس عن أن تأتي بمثله. كما أن ذلك يشكل برهانا على أنه لا إله إلا إله واحد، لأنه لو كان معه آلهة أخرى لما لزموا الصمت على تحدي القرآن، ولكانوا قد تقدّموا ليبطلوا دعوى الرسول هذه. فالصمت من كل طرف وصَوب إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن لا إله إلا إله واحد، لا شريك له.

وهنا سؤال: هل هذا التحدي كان خاصا بزمن الرسول ﷺ أم أنه لا يزال قائما

مفتوحا لكل زمن؟ عن ذلك يُجيب الله تعالى باستخدام ضمائر الجمع للخطاب في قوله ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ﴾، بدلاً من أن يقول (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم..).وهذا دليل على أن المسلم في أي زمن يستطيع توجيه هذا التحدي لمعارضي القرآن، لأنه سيبقى فريدا بهذه المزايا والكمالات إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

أما قوله تعالى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فأرى أنه خطاب للكفار حيث قيل لهم: هلاّ قبلتم كتاب الله وأسلمتم بعد أن انكشفت لكم حقيقته تماما وتبين لكم بأنه كتاب منزل من عند الله تعالى وقد عجز الجميع عن الإتيان بمثله؟

مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

نُوفِّ: وفّى فلانًا حقَّه توفيةً: أعطاه إياه تامًّا (الأقرب)

لا يُبخَسون: بَخَسَه يبخس بَخسًا: نقصه حقَّه، ومنه: لا تبخسْ أخاك حقه. وبخسه: عابه. وبخس الناسَ: مَكَسَهم أي أخذ منهم العُشر (الأقرب).

التفسير:يقول عَزَّ من قائل: إن الذي يريد الحياة الدنيا وزينتها أي متاعها وأموالها فسوف نوفيه نصيبه منها، ولن نحرمه مما هو في صدده.

إن الذين ينخدعون بما عند الشعوب المسيحية من ثروات هائلة عليهم أن يتدبروا هذه الآية جيدا. ذلك أن الله تعالى يؤكد هنا أن تحقيق الرقي المادي ليس متوقفًا على الرقي الروحاني، بل يمكن أن ينال أحد متعَ الدنيا وهو مُعرِض عن الدين. ذلك أن الرقي المادي له مبادئه الخاصة به وهي اجتهاد الإنسان آخذًا بالأسباب الطبيعية المتاحة له. إذن فتحقيق الرقي المادي وحده دون أية آثار روحانية ليس بدليل على كون

الإنسان مقربًا من الله تعالى؛ لأنه عز وجل يصرح هنا أن كل واحد سينال أجره في هذه الدنيا على ما يبذله من جهود خالصة لأجل الحياة المادية، أما إذا عمل أحد باسم الدين أعمالا خاطئة تخالف المشيئة الإلهية فلن ينال عليها أي أجر روحاني. هذا هو معنى قوله تعالى ﴿أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ .

وقوله تعالى ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ يعني أنهم لن يلاموا ولن يعابوا فيما يتعلق بأعمالهم المادية، أو أنهم إذا لم يرتكبوا ظلمًا فيها فلن يعاقَبوا بعذاب في الدنيا وإن لم يهتموا بأمور الدين، لأنه تعالى لا يعذّب أحدا في الدنيا بسبب إنكار الحق إلا إذا عمد إلى الشر والاستهزاء بالدين، أما مجرد الإنكار فلا يتسبب في عذابه في هذه الدنيا، لأن الآخرة وحدها هي دار الجزاء الحقيقية.

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

حَبِطَ: حَبِطَ العمل حُبوطًا وحَبَطًا: فسُد. حبط ماء البئر: ذهب ذهابًا لا يعود كما كان. (الأقرب)

بَاطِلٌ: بَطُلَ: فَسُدَ أو سقط حكمه. (الأقرب)

التفسير: هذه الآية تكملة لما قد قيل من قبل: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.. والمراد أنكم إذا لم تذعنوا إلى الله و لم ترغبوا في الدين فلا شك أنكم ستجنون متاع الدنيا، ولكن لن يمنّ الله عليكم بقربه وحظوتة عز وجل.

وضمير المؤنث في جملة ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ يمكن أن يُرجع إلى الحياة الدنيا أو

إلى الآخرة، فالمعنى الأول: أنهم سينالون جزاء ما عملوا لأجل الحياة الدنيا وهم فيها، لذلك لن تجديهم أعمالهم تلك يوم القيامة شيئا. أما إذا عاد الضمير إلى الآخرة فالمراد: أنه لما قاموا بأعمالهم الدنيوية وفقًا للنواميس الطبيعية التي وضعها الله تعالى نالوا جزاءها، ولكن ما صنعوه لأجل الآخرة لم يكن وفقًا للسنن الإلهية لذا فإن أعمالهم تلك تذهب هدرًا لفسادها وكسادها يوم القيامة وإنهم لن يجنوا منها المنفعة المنشودة أبدا.

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

إمامًا: الإمام: من يُؤتَمُّ به، ويستعمل للمذكر والمؤنث، ومنه: قامت الإمامُ وسطهن. والإمامُ أيضا: الخيطُ يُمدّ على البناء فيُبنى؛ ما امتُثل عليه المثال. (الأقرب)

رحمة: الرحمة: رقةُ القلب وانعطاف (أي عَطْف) يقتضي التفضلَ والإحسان والمغفرة. (الأقرب)

الأحزاب: جمعُ حِزب، والحزبُ: الطائفةُ؛ جماعةُ الناس؛ جندُ الرجل وأصحابه الذين على رأيه، ومنه في القرآن ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾؛ وكلُّ قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب وإن لم يلتقَ بعضهم بعضًا. (الأقرب)

مِرية: المِرية: استخراجُ ما عند الفرس من الجري. والمِرية والمُرية: الشكُ؛ الجدلُ، يقولون: ما فيه مِرية أي جدل. (الأقرب)

التفسير: هناك حذف في الآية، والتقدير: أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد من ربه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة، كمن هو كاذب أو كمن هو ليس على بينة؟. ومثل هذا الحذف أمر شائع معروف في اللغة العربية.

تذكر الآية ثلاثة مقاييس لمعرفة صدق القرآن الكريم والرسول الأكرم ﷺ، معلنةً أن من توفرت فيه هذه الأمور الثلاثة يستحيل أن يكون كاذبًا. ذلك أن الناس ثلاثة أنواع فيما يتعلق بالحق الذي يترل من عند الله تعالى:

١. الذين يعيشون في زمن نزول الوحي على النبي.

٢. الذين يخاطَبون بالوحي ولكنهم يظهرون بعد وفاة النبي.

٣. الذين ظهروا في الماضي وكانوا يتوقعون نزول هذا الوحي.

والحق أنه إذا اجتمعت الشهادات من هذه الأزمان الثلاثة على صدق أمرٍ أو وحي معين فلا يمكن أن يحوم حول صحته وصدقه أي شك، لأن الشهداء من الأزمنة الثلاثة قد أدلوا بشهادهم على صدق ذلك الأمر وحقانيته. مع العلم أن الذين يتوقعون نزول أمر سماوي في المستقبل إنما يقوم إيمانهم به فقط على الأنباء الغيبية التي وردت عنه في الكتب السماوية السالفة. أما الذين يترل الوحي في زمانهم فإنهم ينظرون إليه من زاويتين؛ الأولى: هل يتوفر فيه من الأدلة الداخلية ما يدل على صدقه وصحته؟ والثانية: هل يتحقق بتروله ما ورد عنه من أنباء في كتب الأولين؟ أما الذين يظهرون بعد نزوله فتصبح مثل هذه الشهادات بالنسبة إليهم قصة قديمة تروى، فيهيئ الله لهم شهادة من نوع آخر على شكل تأثيرات ونتائج لهذا الوحي. فبالإضافة إلى الشهادتين الأوليين تكون تأثيرات الوحي بين أيديهم، فعندما يجدون أنه لا يزال يؤتي أكله بإذن ربه حتى زمانهم، يعرفون أنه لا ينفك صالحًا لهم كما كان صالحا للذين خلوا من قبل.

واعلموا أن الشهادة الذاتية الداخلية هي أفضل هذه الشهادات درجة وأهمية، لأنها

تصلح للحاضر والمستقبل، كما أنها تغني عن البحث عن أدلة أخرى في الواقع.

وتأتي الشهادة بتأثيراته في المحل الثاني أهمية، لأنها ضرورية للذين يظهرون فيما بعد، ولولا هذه الشهادة لبقي صِدقه أمرًا مشتبهًا ومشكوكًا فيه بالنسبة للأجيال اللاحقة. ذلك أن كون الوحي في حد ذاته وحيًا حقيقيًا لا يكفي كحافز للناس على العمل به، بل إنه لا بد من التدليل على أنه لا يزال صالحًا للعمل به ونافعًا في الوقت الحاضر أيضا، وليس أنه كان مجديًا في الماضي فقط، ولكنه فقد تأثيره اليوم وحل محلَّه وحي سماوي آخر نَسَخَه وألغاه. فإذا ظهرت عليه ثمار جديدة ناضجة تَأَكَّدَ لنا أنه لا يزال نافعًا لأهل هذا العصر الحاضر كما كان نافعًا للذين كانوا من قبل.

أما شهادة الأنباء السابقة فتأتي في الدرجة الثالثة، وإن كانت تشكل دليلاً هامًا للغاية، إذ لا تنفك تمهّد لعقول الناس في كل عصر كي يؤمنوا بالحق عند نزوله، غير أنها لا تنفع إلا الذين تنكشف الحقيقة في زمانهم.

لقد ساق الله عز وجل هنا على صدق القرآن هذه الأدلة بأنواعها الثلاثة، فقال: إنه يحمل في نفسه الشهادة الداخلية على صدقه، كما أن أنباء الكتب السماوية السابقة أيضا تتظافر على صدقه، ثم إنه سوف يؤتي أُكله كلَّ حين بإذن ربه في المستقبل بحيث لن يسع الناس إنكاره وتكذيبه في الواقع.

والدليل الأول جاء في قوله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾.. أي أن القرآن الكريم أو الرسول الكريم الذي جاء به يحمل في نفسه أدلة ذاتية داخلية تؤكد بشكل حاسم أنه من عند الله تعالى.

وبما أن عصر القرآن الكريم كان ممتدًّا إلى يوم القيامة، فقد أصبح لزامًا عليه أن يهدي الناس إلى سواء السبيل في المستقبل البعيد أيضا، لذلك وعد الله تعالى بقوله ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ .. أي عندما تصبح البراهين الدالة على صدق القرآن بمرور زمن طويل قِصةً بالية في نظر أهل ذلك العصر فسوف يرسل الله من لَدُنه شاهدًا ليشهد على صدقه وحقّانيته.

كما أخبر القرآن الكريم أنه بالإضافة إلى أدلته الذاتية وثماره الروحانية المستمرة، فقد سبق أن أخبر الأنبياء السابقون بتزوله حيث جاء فيه ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.. أي أن كتاب موسى الذي جاء قبله يهدي ويرشد الناس إلى صدق القرآن الكريم، وصار سبب رحمة وراحة لهم إذ سهّل عليهم معرفة صدق القرآن.

وعَقّبه بقوله ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.. أي أن الذين سيكون لهم كتابُ موسى إمامًا ورحمة هم الذين سوف يصدّقون بالقرآن فورًا.

وقوله تعالى ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يتضمن ردًّا على من يعترضون علينا نحن المسلمين الأحمديين قائلين: لماذا لم يبعث الله هاديًا من عنده طوال هذه الحقبة التاريخية من التاريخ الإسلامي الممتد إلى ثلاثة عشر قرنا غير مؤسس جماعتكم؟ والجواب هو أن مثل هذا الشاهد الهادي إنما تمس الحاجة إليه عندما يبدأ الناس يشكون في الشريعة ويتساءلون ما إذا كانت تلك الشريعة لا تزال صالحة للحياة أم لا؟ والواقع أنه لم تكن هناك حاجة مُلِحّة لأي مأمور كهذا من عند الله تعالى منذ بعث الرسول الكريم ﷺ إلى زمننا هذا، لأن القرآن لم يكن في هذه القرون الثلاثة عشر عرضةً للشكوك والشبهات بهذا الشكل المخيف الذي نراه في عصرنا هذا. لقد حاصره أهل الوساوس والشبهات من كل طرف وصوب لدرجة أن المسلمين أنفسهم أخذوا يظنون أن بعض أحكامه أصبحت غير صالحة للعمل، وأن هناك حاجة ملحة لتعديلها. ومثالاً على ذلك ما يثيره هؤلاء الناس اليوم من مطاعن حول تعاليم الإسلام عن الصلاة والصيام وقطع يد السارق والحجاب والربا وغيرها. هذا وإن أتباع المدعين الكاذبين كالبهاء والباب وغيرهما أيضا أخذوا يعلنون أن شريعة القرآن قد نُسخت وحلّت محلها الشريعة البهائية. ثم إن العلمانين أيضا أخذوا يشنون هجمات شرسة على القرآن الكريم من الناحية التاريخية والعلمية البحتة. وبالاختصار، فإن الإسلام لم يكن قد تعرض لمثل هذا الموقف الخطير من قبل قط، ولذلك لم تكن هناك في الماضي حاجة لشاهد مأمور من عند الله تعالى.

لقد تضاربت آراء المفسرين حول هذه الآية، فقال بعضهم إن المراد من قوله ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ هم المؤمنون، والمراد من الشاهد هو الرسول ﷺ. ولكن هذا المعنى باطل ومخالف للعقل، لأن الرسول كان أولاً، ثم جاء المؤمنون به فيما بعد.

ويرى الآخرون أن الشاهد هو أبو بكر أو علي رضي الله عنهما. لكن هذا أيضا خطأ، لأن الآية تصف الشاهد أنه (مِّنْهُ)، بمعنى أنه سيقف شاهدًا بأمر من عند الله تعالى، ولكننا نعرف أن سيدنا أبا بكر وسيدنا عليًّا لم يدّعيا قط أن الله قد بعث أيًّا منهما شاهدًا على صدق القرآن الكريم أو النبي الكريم ﷺ. ويقول البعض بأن هذا الشاهد هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه. ولكن هذا القول أيضا غير سليم لنفس الأسباب المذكورة أعلاه.

الواقع أن الآية تتحدث عن بعثة الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، إذ كان مقَدَّرًا له أن يترل من عند الله تعالى بنفس الطريقة التي نزل بها الرسول ﷺ على بيّنة من ربه. وكانت الغاية من بعثته أن يقوم شاهدًا على صدق الإسلام بآيات سماوية ومعجزات جديدة، في زمن سيصبح فيه صدق الإسلام وتأثيره الروحاني هدفًا لهجوم الأعداء من شتى الطوائف ومختلف المجالات.

وأما الشهادات الواردة في كتاب موسى على صدق القرآن الكريم فهي عديدة وأهمها ما ورد في سفر التثنية (١٨:١٨).

لقد أصبح كتاب موسى عليه السلام إمامًا ورحمةً على صدق القرآن الكريم كالآتي:

أولا: بذكر أنباء نزوله للناس.

ثانيا: بتوضيح منهاج النبوة أي السنة الإلهية فيما يتعلق بالنبوة.

ثالثا: بإتاحة الفرصة للمقارنة بين تعاليمه وتعاليم القرآن.

رابعا: بكونه عاملاً مساعدًا لشرح أصول الشرائع والأحكام.

ولنعلم أن قوله تعالى ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إنما يبشّر بمن يأتي شاهدًا على صدق القرآن، وليس بمن يعلن نسخه، كما تزعم البهائية. وإذن فإن الآية تصرّح برفض

العقيدة البهائية وتقيم الحجة على أتباعها. ذلك أنهم يعترفون بصدق القرآن الكريم ولا شك، ولكنهم في الوقت نفسه يعلنون أن شريعة القرآن قد فقدت صلاحيتها في هذا العصر، وأن زعيمهم "بهاء الله" هو الموعود به في القرآن (الكواكب الدرية في مآثر البهائية ص١٣٠).

ولكن الحقيقة هي على عكس ذلك تمامًا، لأن الآية تؤكد أن هذا الموعود إنما سيأتي شاهدًا على صدق القرآن ومؤكدًا على صحته، وعلى أنه لا يزال صالحًا وسيظل نافعًا للإنسانية إلى يوم القيامة، وليس بأنه سيأتي شاهدًا على نسخه وبطلانه. فكل من يزعم أن الشريعة القرآنية منسوخة لا يمكن اعتباره موعودًا به في هذه الآية.

وأما قوله تعالى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ فاعلم أن المراد بالأحزاب عمومًا الطوائف المعارضة لأنبياء الله عليهم السلام. ولما كان النبي ﷺ مبعوثًا إلى الدنيا كافة فالمراد بالأحزاب هنا سائر الأديان والأمم الأخرى.

وأما قوله تعالى ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ فليس موجهًا إلى الرسول ﷺ وإنما إلى الآخرين. ذلك أنه سبق أن أكد الله بقوله ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.. وجودَ جماعة مؤمنة بالقرآن أو الرسول، وما دام الأمر هكذا فإنه من غير المعقول تماما أن تكون هذه الجماعة قد آمنت بكلام الله لما رأته من البراهين الدالة على صدقه، ومع ذلك لا يزال مَن نزل عليه الكلام السماوي بالأدلة والبراهين فريسةً للوساوس والشكوك!

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

التفسير: ما أرْوَعَه مِن بيانٍ، حيث يخبرنا الله تعالى أن المدّعي الكاذب يكون أظلم القوم، وأن المفترين موصومةٌ وجوههم بلعنة من عند الله تعالى، فليس صعبًا في الواقع التمييزُ بين الصادقين وبين الكاذبين ممن يدّعون النبوءة، بل يُعرف المتنبئون منهم بما يظهر على وجوههم من آثار الكذب والزور واللعنة. ولذلك سيقول الأنبياء الصادقون يوم القيامة لمنكريهم وهم يشيرون إلى أولئك المتنبئين الكاذبين: انظروا إليهم، هكذا تكون وجوه الكاذبين، فلا شك أنكم كذّبتمونا لخبث باطنكم.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

عِوَجًا: العِوَج: اسمٌ مِن عَوِجَ ضدُّ استقام أي انحنى. العَوَج في الأجساد، والعِوج في المعاني (الأقرب).

التفسير: يمكن تفسير قوله تعالى ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ بطريقين: الأول: أنهم يريدون لسبيل الله تعالى عِوجًا وفسادا، يقال: بغيتك الشرَّ أي طلبتُ لك الشر (فتح البيان)، والمراد أنهم لا يكتفون بصدّ الناس عن سبيل الله تعالى، بل يسعون جاهدين لكيلا يطَّلع الناس على ما فيه من خير، ويَعرِضونه عليهم عرضًا بحيث لا يرونَ فيه إلا المساوئ والعيوب. وهذه مكيدة يلجأ إليها أعداء الحق دائما، إذ يسعون دومًا لإخفاء جمال الحق وأن يطفئوا نوره، وينسجوا حوله من الأكاذيب والأباطيل ما يجعل الناس يرون ما فيه من حُسن وجمال قُبحًا وعيبًا ونقصانًا.

والثاني: هو أنهم يبغون للذين يطلبون سواء السبيل عوجًا أي أنهم يتمنون للسائرين

في سبيل الحق أن يضلوا عنه وينحرفوا، بل وإنهم يبغون إيذاءَهم.

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

التفسير: كلمة الأرض تعني الكرة الأرضية عمومًا، ولكنها إذا ذُكرت مقرونةً بالحديث عن قوم فيُراد بها بلدهم وملكهم. يقول الله تعالى: إن المفترين لا يمكن لهم أن يحققوا الغلبة في البلاد أبدًا، بمعنى أنه لا يُكتب لمكائدهم النجاح، وإنما يبقون متعثرين بما نسجوه من مكر وكيد، حيث لا يلقون أي نصر من عند الله تعالى، كما لا يجدون لهم صديقًا مُعينًا من الناس لافترائهم على الله ومخالفة سبيله. ولا يعني ذلك أنهم لا يجدون أي صديق ولا وليّ على الإطلاق وإنما المراد أنهم لا يجدون صديقًا يغني عنهم شيئًا ويساعدهم على تحقيق مراميهم.

كما وليس المراد من قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء﴾ أن الله تعالى هو يكون وليّهم ولا أحد غيره، بل المعنى أنهم سيُحرَمون من ولاية الله لافترائهم عليه، ثم إنه -لغضب الله عليهم- لن يستطيع أصدقاؤهم الذين هم على شاكلتهم أن ينصروهم على الله أبدًا.

وأما قوله تعالى ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ فاعلم أن الضعف يأتي بمفهومين: بمعنى الضعفين أو بمعنى الزيادة مطلقًا. ونظرًا إلى المعنى الأول تعني الجملة: أن الله سوف يعذّبهم بعذابين، عذاب على معاصيهم، وعذاب على ذنوب من أضلّوهم. والمعنى الثاني لها: أنه تعالى سوف يزيد عذابهم باستمرار، ذلك لأنهم قد بذروا بذرة السوء

التي لا تزال تنمو بنفسها وتُنبت سيئات أخرى.

وأما قوله تعالى ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ فهو استغراب من حالة المفترين، بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون.. أي لقد مضى قبلهم كل من الصادقين والكاذبين من مدّعي النبوة، ولكن العجب من هؤلاء أنهم لا يستمعون إلى أخبار الأوائل ولا يعتبرون بمصيرهم!

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

خسروا: خَسِرَ: ضدُّ ربِح؛ ضلّ؛ هلَكَ (الأقرب).

وبهذه المناسبة أذكر أني بحثت في المعاجم والقواميس عن فعل "خسر" فلم أجده يستعمل إلا لازمًا، ولكن العجيب أن جميع المفسرين فسروا كلمة "خسروا أنفسهم" متعدية بمعنى "أُهلكوا". أما صاحب "التاج" فيقول: "لا يُستعمل هذا الباب إلا لازمًا كما صرح به أئمة التصريف". ثم يقول: "إن هؤلاء الأئمة أخطئوا حين ظنوا أن القرآن استخدم هذا الفعل متعديا".

الواقع أن الفعل لازم، ولكن المؤسف أن قواميسنا متأثرة بالدين حتى جعلوا اللغة أيضا تحت تأثير التفاسير، وهذا لم يخدم الإسلام شيئا وإنما أضر به إذ اختفت بسبب هذا التصرف الكثيرُ من معارف القرآن عن أعين الناس. ليت هناك من يشمّر عن ساعد الهمة والجد ويصنف قاموسًا لغويًا يكون متحررًا تمامًا من تأثيرات التفاسير الدينية، حتى يخرج الناس من هذا القيد الضاغط المجافي للحق.. فيسهل عليهم فهم

القرآن الكريم!

فمثلاً في قضية "خسر" لو أننا لم نخضع لرُعب التفاسير والتزمنا بقواعد اللغة.. لحللنا هذه المسألة بدون اللجوء إلى مخالفة القواعد لجَعْله متعديًا. فيمكن أن نعامله معاملتنا لفعل "سَفِهَ" كما في قوله تعالى ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.. بتقدير حرف جر محذوف تقديره (في)، أي سفه في نفسه؛ أو نعتبر كلمة (نفس) تمييزًا يأتي أيضًا معرفةً كشاذ. كذلك في ﴿خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ يجوز تقدير المعنى: خسروا في أنفسهم، أو اعتبار (أنفسهم) تمييزًا.

لا جَرَمَ: من جَرَمَ يجرِم جَرمًا: قَطَعَ. قال الفرّاء: هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة "لا بدّ" "ولا محالة"، فجَرَت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القَسَم وصارت بمنزلة حقًّا، وهو مأخوذ من معنى القطع (الأقرب).

التفسير: أي لا شك أن هؤلاء ينجحون إلى حد ما في مكائدهم في الدنيا ويُلحقون بأنبيائنا بعض الأذى، ولكنهم في الآخرة لن يلقوا إلا خسرانًا مبينًا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

أخبتوا: أخبتَ القومُ: صاروا في الخَبتِ وهو ما اطمأن واتّسع من الأرض؛ وأخبَتَ إلى الله: اطمأنّ إليه وتخشّع أمامه (المنجد). وكأنما أشار باستخدام هذه الكلمة إلى أنهم يجدون في إنابتهم وخشوعهم أمام ربهم السكنيةَ والطمأنينة، فينقطعون إليه عما سواه، كما يجد الإنسان الراحة في المشي في الأرض الواسعة المستوية.

التفسير: يتضح من الآية أنه لا يكفي الإنسان في سبيل نيل الكمال الروحاني أن يطمئن بالإيمان وصالح الأعمال فحسب، بل يتطلب ذلك منه أن يتصف أيضا بالتوكل الكامل والاطمئنان البالغ والحب الجمّ لله عز وجل.فكما أن الرضيع لا ينعم بالراحة إلا في حضن أمه، كذلك لا بدَّ لمن يريد إحراز الرقي الروحاني أن يكون محبًا لله حُبًا جَمًّا واثقًا به، منيبًا إليه جل شأنه، وإلا فلن يحظى بقرب الله أبدا.

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

الفريقين: الفريق: الطائفةُ من الناس أكثر من الفِرقة، وربما أُطلق الفريق على الجماعة قَلّت أو كثُرت. (الأقرب)

التفسير: لقد قام القرآن هنا بالمقارنة بين الإيمان والكفر، معتبرًا المؤمن بصيرًا وسميعًا، والكافر أعمى وأصمَّ. مع العلم أن القرآن الكريم لا يريد سبّ أحد بإطلاق هذه الكلمات عليه، وإنما يريد بها بيان الواقع. فلا يظنّنّ أحد أنه تعالى يصف الكافرين هنا بالعمى والصَمَم عبثًا ودون هدفٍ أو قصد، بل إنه يبيّن عن طريق هذا المَثل حقيقة الكفر. ولكي ندرك المراد القرآني هنا يجب علينا أن ننظر إلى ما يميّز البصير السميع عن الأعمى والأصم.

ولنأخذ أولاً البصير والأعمى. إن أول ما يمتاز به البصير عن الأعمى أن الأول يستطيع رؤية النور بينما لا يقدر الأخير على رؤيته.

والفارق الآخر بينهما أن هذا يصل إلى غايته المنشودة بسرعة، ولكن الأعمى لا

يصل إليها بسرعة وإنما ببطء، متحسّسًا هنا ومتعثرًا هناك.

والفارق الثالث بينهما أن البصير يقدر على التمييز بين صديقه وعدوه، فلا يهاجم إلا عدوه، ولكن الأعمى غير قادر على ذلك، فمن المحتمل تماما أن يضرب الصديق وهو ينوي ضرب العدو.

هذا هو حال المؤمن بالدين الحق وبين الكافر. فالذي يحب الله يستطيع أن يعرف الكلام النازل من عنده تعالى في حين أن الذي لا يكنّ لله حبًا حقيقيًا يُحرم من القدرة على معرفة كلامه تعالى. فالمؤمن يكون دائم الوعي للمشيئة الإلهية التي هي بمثابة النور الذي يهدي إلى السبل الروحانية، بينما المنكر للحق يكون أعور العين الروحانية، فيبقى محرومًا من إدراك المشيئة الإلهية.

ثم إن المؤمن الحقيقي لا يزال ينشد من الله الهدى والإلهام في مسيرة الحياة، فلا يتعرض للتعثر والسقوط وإنما يصل إلى هدفه دون عائق، ولكن الذين يعتمدون على عقولهم فقط قد يصلون إلى الحق، ولكن بعد آلاف الزلات والعثرات. وأضرب مثلاً واضحًا على ذلك وهو تحريم الخمر، فلقد حرّمها الإسلام دفعة واحدة قبل ثلاثة عشر قرنا، فامتنع المسلمون عن تعاطيها على الفور دونما تردد، في حين أن العالم الآخر لم يقتنع بمضار الخمر إلا مؤخرًا وذلك بعد تعرضه للعثرات والمعاناة طوال هذه المدة.

والفارق الثالث بين الفريقين واضح وجليّ أيضا، فالمؤمنون بالحق يتمسكون بمبدأ موحَّد واضح دون أن يُحدث ذلك أي تعارض بين عقيدة لهم أو أخرى، ولكن أهل الباطل لا يزالون متخبطين، لا يعرفون موقفهم بالضبط، ويعميهم التعصب لدرجة أنهم يهاجمون أحيانًا معتقداتهم أنفسهم وهم يحاولون إبطال ما يؤمن به أهل الحق. ومن أجل ذلك نبّه الإسلام معارضيه مرارًا وتكرارًا إلى أن يكونوا حذرين أثناء هجومهم على المسلمين، إذ إن هجومهم يكون في بعض الأحيان موجّهًا في الحقيقة إلى عقائدهم هم من حيث لا يشعرون.

والتشبيه الآخر هو عن السميع والأصم، فنجد أن الأول يمتاز عن الآخر بأنه

يستفيد من خبرة الآخرين، ولكن الأصم محروم من هذه الميزة، إذ لا يسمع فلا يستطيع الاطلاع على خبرات الآخرين وأفكارهم. وهذا هو الفارق بين الإسلام والديانات الأخرى. إن الإسلام أو المسلم يستوعب في نفسه كل ما هو حق أيًا كان مصدره، ولكن معارضي الإسلام يكتفون بما عندهم من أفكار بالية تافهة، متغافلين عما عند غيرهم من حقائق ومحاسن. ولقد قال النبي ﷺ مشيرًا إلى نفس هذا الفارق:"كلمة الحكمة ضالة المؤمن أخذها حيثما وجدها" (الترمذي، العلم).

فالخلاصة أن الدين الحق يستجمع في نفسه كلَّ ما هو حق وحسن، ولكن الديانات الباطلة تميل إلى التعصب والعناد.

إنه لممّا يدعو إلى العجب أن ما يعرضه العدو كعيب في الإسلام يعتبره القرآن فضيلة وميزة. مثلاً يقول المعترضون بأن الإسلام قد انتحل حقائق ومحاسن الديانات السابقة، فيرد عليهم القرآن بأن هذا ليس منقصة ولا عيبًا، بل هو دليل على فضل الإسلام ونزاهته، فهو ليس كالأصم الذي يبقى على ما عنده من خصوصيات وفضائل، بل إنه كالسميع الذي يستوعب في نفسه علوم الآخرين ومعارفهم، ويزيد عليها ويطورها ليكون علمه كاملاً، ولذلك استجمع الإسلام في ذاته كل ما لدى الديانات الأخرى جمعاء من تعليم حسن أو حكمة نافعة، إلى جانب الحقائق الأخرى الخاصة به دون أي دين آخر.

هذا وإنه تعالى قد أشار بضرب مِثال البصير والأعمى أو السميع والأصم إلى ميزة أخرى ينفرد بها الإسلام عن غيره ألا وهي استمرار ظهور الآيات السماوية والمعجزات الإلهية ونزول الوحي والإلهام في الإسلام. ذلك أن العين المبصرة إنما هي تلك التي ترى آيات الله المتجددة باستمرار، أما التي تُحرم من رؤية تلك الآيات فهي عمياء. كذلك الأمر بالنسبة للأُذن فليست الأذن النافعة إلا التي تسمع نداء الله تعالى، لأن هذه هي الوظيفة الطبيعية للأذن، أما التي لا تسمع نداءه فإنها في الواقع صمّاء عاجزة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

التفسير: لقد بيّن القرآن الكريم من قبل أن المتنبئين أو أتباعهم لا يتعظون بمصير الصادقين ومصير الكاذبين ممن ادّعوا النبوة في الذين خلوا من قبل، كما أنهم لا يستمعون لأخبارهم وأحوالهم. وقد ضرب لبيان حال الفريقين مثال البصير والأعمى والسميع والأصم. أما الآن فأخذ القرآن يوضح هذه الحقيقة بتقديم أمثلة من التاريخ، حيث اختار منها أولاً مثال نوح عليه السلام وقومه فقال: انظروا إلى أحوال نوح الذي كان من أنبيائنا الصادقين والذي قد أخبر قومه بأنه لهم نذير مبين.

إنه لمن البراهين الساطعة على صدق كل نبي صادق أنه يعلن على الملأ أنه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ولهذه الجملة مفهومان:

الأول: أنه لا يُخفي على الناس تعليمه الحقيقي أبدًا ولا يُسرّ من أعماله شيئًا، بل يقدّم لهم كل ما يؤمر به شاءوا أم أبَوا. بينما يحاول المتنبئون إخفاء تعاليمهم الحقيقية سعيًا لضمّ الناس إلى صفهم، وخوفًا من أن ينصرفوا عنهم. خذوا مثلاً البهائيين الذين يسعون اليوم جاهدين لإخفاء تعاليم "البهاء" و"الباب" عن العالم، ولا يسمحون للناس بالاطلاع على مؤلفاتهما، حتى إنهم جمعوا بعض ما كتبه البهاء وقاموا بإتلافه.. (كتاب نقطة الكاف ص ٢٤٧).

والمعنى الثاني: أنّ إنذار النبي الصادق يكون إنذارًا مُبينًا، بمعنى أنه لا ينذرهم عبثًا ولغوًا، بل يكون إنذاره مبنيًا على الأدلّة والبراهين، لذلك فإن إنذاره القومَ لا يبعث على القنوط واليأس فيُسْلِمهم للهلاك والدمار بل إنه يزيدهم يقظةً وصحوةً ونهوضًا. ولكن المتنبئين الكاذبين يُنذرون القوم عبثًا وهم يقلّدون الأنبياء الصادقين، فيزيد إنذارهم الطينَ بلة، ويُسْلِم القوم إلى اليأس والهلاك. وهذا الأمر لا يخصّ المتنبئين فقط، بل هذا هو دأب الجهّال كافةً، فلا يكون إنذارهم إلا عبثًا لا جدوى منه، إذ لا يعلمون أن التحذير والوعيد لا يجديان نفعًا في كل الظروف بل ربما تكون النتيجة

على عكس ما يتوقعونه.

لقد أشار النبي ﷺ إلى مثل هذا الإنذار الخاطئ المدمر بقوله: "إذا قال الرجل هلكَ الناس فقد أهلكهم" (مسلم، البرّ): أي أن الذي لا يزال يردِّد بين القوم أن الناس قد هلكوا وأصبحوا بلا دين ولا إيمان فهو الذي يتسبب في الواقع في دمارهم وهلاكهم وضعف إيمانهم وانحراف سيرتهم. ذلك أن مثل هذه الأقاويل تبعث القوم على الاستهانة بالفسوق واللادينية وتُوقعهم في حضيض اليأس والقنوط. فما لم يغيّر الله بنفسه النظام القديم السائد في الناس بنظام سماوي جديد يجب أن لا يتولد لدى القوم الإحساس بأن الجميع قد فسدوا و لم يبقَ بينهم ولا صالح واحد، وإلا فسوف يفقدون الهمة وينهارون نهائيًا. نعم، إذا جاء نبي من عند الله تعالى بنظام سماوي جديد فلا بأس عندئذ في إنذار عام، لأن حالة القوم حينذاك تكون في الواقع سيئة وفاسدة، ولكن العلاج يكون متوفرًا لديهم في شخص النبي المرسل.

فها هو نوح عليه السلام يعلن للقوم بأنني ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.. أي أنني أحذركم بناءً على أدلة وبراهين، و لم آتِ لأعيث الفساد أو أبث اليأس بينكم، بل جئتكم لأنبهكم إلى الأمر الواقع.

كما أن قوله ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني أن النبي لا يكتفي بالإنذار فحسب، بل يخبر القوم عن سبيل النجاة من العذاب، ولذلك أردف بقوله ﴿أَنْ لا تَعْبُدُواْ إلا اللّهَ﴾.. أي أنكم ستنجون من العذاب إذا امتنعتم عن الإشراك بالله تعالى. وكأنما أكد بقوله هذا على كونه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

واعلم أن الملوك الطغاة والمنافقين والمُغرضين أيضًا يمثلون إنذارًا للبلاد وأهلها، ولكنّ أيًا من هؤلاء لا يكون ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، لأنهم لا يدّعون بأنهم منذرون، بل يخفون نواياهم الخطيرة مدّعين بأنهم لا يريدون للقوم إلا خيرًا وبركة، بينما تكون أعمالهم نذير شؤمٍ ونحسٍ للناس.كما أن هذا الإنذار لا يكون مدعّمًا بالإلهام الإلهي، وإنما يكون مبنيًا على القياس بأنه ما دام هذا الحاكم طاغية فلا بد أن يهلك أهل البلد، أو

أنه ما دام قد كثر في القوم أهل السوء والفساد فلا بد أن يهلكوا.

وبالاختصار، لا يكون الإنذار المبين إلا على يد المبعوث من عند الله تعالى، لأنه لا يتسبب في هلاك القوم، بل يحذرهم منه ويعمل على نجاتهم، لأن إنذاره يكون يقينيًا مبنيًا على الوحي من عند الله. أما إنذار الآخرين فليس أساسه إلا مجرد القياس.

أَن لا تَعْبُدُواْ إلا اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٧﴾

التفسير: لقد حار بعض المفسرين في تفسير هذه الآية متسائلين: كيف وصف اليوم بكونه (أليمًا) مع أن العذاب هو الذي يكون أليمًا وليس اليوم (تفسير الطبري)؟

والحق أن حيرتهم ترجع إلى قِلة تدبرهم إذ لم يدركوا أن الكلام الذي يهدف إلى بيان دقائق المعارف ولطائف الحقائق لا بد أن يستخدم أساليب مبتكرة وتعابير غير عادية، وإلا يستحيل التعبير عن تلك المعاني اللطيفة. وكل من يتدبر في هذا القول يدرك البَون الشاسع بين التعبيرين (عذابًا أليمًا) ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، إذ يجد التعبيرَ الثاني أبلغ في تصوير شدة العذاب. ذلك أنه مما لا شك فيه أن العذاب يكون مؤلـــمًا، ولكن هناك أيامًا هي أكثر إيلامًا من العذاب نفسه، إذ لا تزال ذكراها تعذِّب ذاكرة الناس، فتقشعر أبدانهم لمجرد تصور آلامها وإن مرت عليها آلاف السنين. ذلك أن العذاب يؤلم الناس الذين يحل بهم، ولكن ذكرى أيام العذاب المؤلم جدًّا تظلُّ تُسبّبُ الآلام للأجيال القادمة أيضا. فقوله ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة اللطيفة، إذ يعني نوح بهذا القول: أنني أخاف عليكم عذابا مؤلما هائلا للغاية بحيث إنه يظل رادعًا ومزدَجرًا للناس على مر العصور. والواضح أن ما يوجد في هذا التعبير من جدة وجودة لا يوجد في قولنا (عذابًا أليمًا) فقط.

ثم إن الواقع أيضا يؤكد ذلك إذ كان ولا يزال طوفان نوح يمثل عبرةً ومزدجرًا

للناس، إذ يعتبرونه حتى اليوم كارثة هائلة ويومًا مروِّعًا رغم مرور آلاف السنين على وقوعه، ويتملك قلوبهم هول عظيم وأذىً شديد من ذكر ذلك اليوم المخيف.

فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

بَشرًا: عُبِّرَ عن الإنسان بالبَشَر اعتبارًا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر. واستوى في لفظ البشر الواحدُ والجمع والمثنّى، فقال تعالى: ﴿أنؤمِنُ لبَشَرَين﴾، وخُصَّ في القرآن كلُّ موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر (المفردات).

أما أنا فأرى أن هذه مصطلحات تُطلق على حالاته المختلفة، فيسمى (إنسانًا) إشارةً إلى حقيقته وأخلاقه، و(بشرًا) بالنظر إلى هيكله الظاهري، و(آدميًّا) نظرًا إلى بداية مَنشَئِه.

أراذل: جمعُ أرذَل، مِن رذُل بنفسه رذالةً، أو مِن رَذَله رَذلاً جعله رذيلاً، ضدّ انتقاه. والأرذل في هذه الصورة بمعنى المرذول. والأرذل: الدُون في منظره وحالاته كالرّذل والرذيل، يقال: ثوب رَذَل ورذيل: وسخ رديء (الأقرب).

باديَ الرأي: أي ظاهِره من بدَا يبدو، ومنهم من جعلهُ مِن بَدأ يبدأ، والمعنى أول الرأي.

التفسير: المراد من قولهم ﴿مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أنه لا فرق بيننا وبينك من حيث المظهر والشكل، فكيف إذن نعتبرك مختلفًا عنا في الباطن وأنك صاحبُ حظوةٍ

وزُلفى في البلاط الإلهي، وأنك أُوتيت دوننا قدراتٍ تستطيع بها سماع كلام الله الذي لا نسمعه.

لم يزل أعداء الأنبياء على مر العصور يثيرون هذا الاعتراض نفسه، وحجتهم أن الإنسان إنما يفضل على غيره بما يكتسب بجهده من علوم ومهارات، ولكنّ صاحبنا هذا خلوٌ من هذه الميزة، فكيف نصدق إذن أنه يمتاز علينا بقدرات باطنية غير عادية؟ وهذا ما يقوله المعارضون لنوح: لو كنت موهوبًا بقدرات باطنية خاصة للزم أن يكون مظهرك ذا طابع خاص وأن تكون حائزًا على علوم مادية بشكل غير عادي، ولكننا لا نراك تملك هذه الميزة، فكيف نسلّم بأنك تملك قوى باطنية غير عادية.

لقد قدّموا -في زعمهم- حجةً فلسفية قوية، ولربما كانوا يعرضون على نوح عليه السلام صورًا لبعض أهل الله رسموها في مخيلتهم قائلين له: انظر هكذا تكون وجوه أنبياء الله تعالى. ولربما كانت لهذه الصور عدة رءوس ووجوه، تماما كما يصنع عندنا الهندوس مع تماثيل كبارهم حيث قدّموا "غنيش جي"، وهو أحد كبارهم، في صورة غريبة جدًا لها عدة رءوس ووجوه. ذلك أن الناس في الزمن البدائي جدًا ما كانوا ليقتنعوا بأنه يمكن أن يكون النبي بشرًا مثلهم شكلاً ومظهرًا. ولربما كان أعداء نوح يرقصون فرحًا وابتهاجًا لدى إدلائهم بهذه الحجة، ولكن الواقع أن حجتهم واهية وليس فيها من الوزن والقيمة من شيء.

ثم يتخذ أعداؤه خطوة أخرى دعمًا لحجتهم السابقة حيث يعيّرونه بقولهم ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، أي أنك خلو من قوىً خارقة، فأنت بشر مثلنا، وليس هذا فحسب، بل إن أتباعك أسوأ منا حالاً، فأيّ انقلاب ستحققونه أيها الجهال الأراذل.

ولقولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ عدة معانٍ نظرًا إلى مدلولات مختلفة لكلمة (بادِيَ الرأي)، نذكرها فيما يلي:

إذا كانت ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ مشتقة من (بدأ يبدأ) ومتعلقة بكلمة (أراذلنا) فالمراد:

أن أتباعك، يا نوح، ربما يكونون طيّبـــي النفوس، ولكنا نجدهم لأول وهلة أراذل مستضعفين، ولعلنا نراهم أحسن حالاً في المستقبل. وهذا أسلوب للكلام يراد به الاستنكار الشديد. وذلك كقول البعض في صيغة الاستفهام: ربما نحن اللئام؟ والمراد: لسنا بلئام أبدًا. فالمراد من قولهم أنه لا شك في خسّة أتباعك ورذالتهم.

أما إذا اعتبرناها مشتقةً من (بدا يبدو) ومتعلقةً بكلمة ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ فالمراد أنهم أراذلنا في مظهرهم دونما شك، ولا يبدو لنا من محاسنهم ومزاياهم شيء، وربما تكون أنت وحدك مطّلعًا عليها. وهذا أيضا تعيير بهم.

أما إذا كانت ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ متعلقة بفعل ﴿اتَّبَعَكَ﴾ فالمعنى: أنه لم يتبعك هؤلاء الأرذال إلا اتباعا سطحيًا دونما إدراك وتبصُّر، ولو أنهم فكروا في حقيقة ما تدعوهم إليه لما اتبعوك. وهذا احتقار بشع منهم في حق نوح عليه السلام.

وهناك معنىً آخر لهذه الجملة وهو: أنه قد اتبعك هؤلاء اتباعًا ظاهريًا فحسب، و لم يؤمنوا بك من صميم قلوبهم، وذلك طمعًا في بعض المنافع المادية.

ويستمرون في احتقارهم لنوح فيقولون: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.. أي أننا نسلّم جدلاً بأن فيكم من المزايا الباطنة والكفاءات الخفية ما أكسَبَكم هذه الحظوة عند ربكم، ولكن أخبِرونا أما كان حريًّا بكم أن تتمتعوا بالعز والجاه بشكل خارق، لأن الذي يفوق أقرانه بمزايا خاصة يصبح غالبًا عليهم، ولكنا لا نرى لكم علينا من شرف ولا غلبة.

ثم ذكروا النتيجة التي توصَّلوا إليها ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.. أي أننا واثقون تمامًا أنكم كاذبون، إذ لا دليلَ على ادعائكم بأنكم أهل الحق وأن الله قد فضّلكم علينا.

آه، لقد دَأَبَ أهل الدنيا منذ القدم على أن يقيسوا صدق الأنبياء بمقاييس ابتدعوها بأنفسهم، وحينما لا يجدونهم -في زعمهم- صادقين يجلسون هادئي البال مطمئنين، ظنًا منهم أنهم قد درسوا دعواهم بدون أي تعصب ووجدوها باطلة. وبالرغم مما حققه الإنسان من تقدم مذهل، وبالرغم من مجيء هذا العدد الضخم من أنبياء الله

الكرام لهداية الناس إلا أن الإنسان لا يستعد إلى الآن لقياس صدق كلام الله ورسله بالمعايير التي وضعها الله لهذا الغرض، وإنما يريد أن يقيس صدقهم بما اخترعه من عند نفسه من مقاييس زائفة. فكيف يمكن أن يهتدي إلى الحق والصواب بهذه العقلية؟ كلا، ثم كلا.

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

نُلزم: ألزَمَ فلانا المالَ والعمل: أوجَبَه عليه (الأقرب)

التفسير: يقول نوح لمعارضيه: افترِضوا – ولو للحظة – أنني بالفعل تلقيتُ من الله البراهينَ والبينات على صدق دعواي وخَصَّني ربي برحمةٍ عظيمة منه، ثم لنفترض أن هذه البينات قد نزلت علي نزولاً يحيطه الغموض والإبهام ولذلك لا تستطيعون رؤيتها، فأخبروني كيف نشرحها لكم إذن حتى تفهموها، اللهم إلا أن تتدبروا فيها بأنفسكم. إذ لا بد للإنسان –لإدراك حقيقة ما– أن يُعمل فيها فكره ويتدبرها بأسلوب يساعده على تفهُّمها، ولكنكم ترفضونها من أول وهلة كارهين حتى الإصغاء إليها، فأنَّى لكم أن تفهموها إذن، اللهم إلا أن تُجبَروا على ذلك جبرًا، وهذا لن نفعله معكم أبدًا.

إن هذه الآية تهدم نظرية الإكراه في الدين من أساسها، إذ تبين أنه إذا كره أحد عقيدة ما فلا يمكن إكراهه على فهمها واعتناقها. كما تخبرنا الآية أن الذي ينظر إلى أمر ما نظرةَ كراهةٍ بدلاً من أن يسعى لفحصه ومعرفة كنهه فإنه يبقى

محرومًا من الوصول إلى الحق. لذا يجب على من يبحث عن الحق أن يطهّر قلبه من التعصّب دائما ويتعود على البحث الصادق.

وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إلا عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

طارِد: اسم الفاعل من طَرَده أي أبعَدَه (الأقرب)

التفسير: بعد أن وصفهم نوحٌ عليه السلام بما هم فيه من تعصب وعناد بدأ الآن بتبرئة ساحته مما اتهموه به، فقال: إن العاقل لا يقوم بأي عمل إلا لهدف وغاية. فإذا كنت -ما تزعمون- مفتريًا على الله تعالى فهل ترون أنني أكسب من هذا الكلام المفترى أي منفعة شخصية؟ إنكم تعلمون جيدًا أنني لا أطالبكم بأي مقابل أو أجر على ما أدعوكم إليه، فما الداعي -والحال هذه- لأن أقوم بالافتراء أصلاً؟

ربما يقول هنا بعض المعترضين: صحيح أن نوحًا لم يطلب منهم أي مال، ولكنه كان يريد بذلك التسلط عليهم، وما أكثر ما يكذب الناس طمعًا في الحكم!

الواقع أن هذا الاعتراض باطل، لأن أنبياء الله عليهم السلام يكونون أكثر الناس عملاً بما يأمرون به وأسبَقَهم إلى ما يدعون إليه، إذن فلا يمكن أن تُعد حالتهم هذه حُكمًا . وإذا كان لا بد من تسميتها حكومة فإنها حكومةُ خادمٍ فقط، ولا يمكن أن يُعزى صاحبها إلى الجشع والطمع.

وبعد أن برّأ نفسه مما نُسب إليه أخذ في تبرئة ساحة أتباعه فقال: (أولا) إنهم ما داموا قد آمنوا بي في الظاهر فلا يحق لي أبدًا أن أطردهم بناءً على الشبهات

والوساوس. و(ثانيا) ما دمت لا أطالب أحدًا بأي أجرٍ، سواء عندي الثري والفقير، فلماذا أطردهم لفقرهم. إن الإيمان هو أهم شيء عندي وهم أهل الإيمان، وحيث إنهم يملكون أمرًا ذا قيمة في نظري فلا أقيم لقولكم وزنًا بأنهم أراذل القوم.

كما عيّروه أيضًا بأن أتباعه صدّقوه بأفواههم لا بقلوبهم، فردّ عليهم: إنني لا أريد منهم أجرًا، كذلك هم لا يتلقون مني مقابلاً على إيمانهم، فكيف يحق لي إذًا أن أشك في إيمانهم هذا. إنهم ينشدون فضل الله، وهو عالم الغيب، وإنهم ماثلون أمامه في يوم من الأيام. فمن كان صادقًا في إيمانه ظفر بلقاء الله وقُربه، ومن كان زائف الإيمان فأمره بيد الله الذي سيعامله معاملة ملائمة. فلا حاجة لي أن أُقحم نفسي فيما بين العبد وخالقه.

والاعتراض الثالث الذي أثاروه عليه هو قولهم إننا لا نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين، وأنكم لئام وأقزام، فرد عليهم بقوله ﴿وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.. أي أنكم لستم مستعدين لقبول الأمر الواقع. إنكم تعرفون جيدًا ما إذا كنت أنا وأصحابي من ذوي الأخلاق الفاضلة أم أننا من أهل الرذائل، وإنكم تعلمون يقينًا ما إذا كنّا صادقين في حديثنا أم كاذبين، ولكنكم تخفون الحق وتتجاهلون الواقع بسبب العداوة والعناد.

إنه لمن سنة الله المستمرة أن كل من اصطفاه الله نبيًا تكون حياته قبل دعواه حياة طاهرة تمامًا بعيدة عن الكذب والريبة، وليس نوح عليه السلام بمستثنى من هذه القاعدة الكلية، ولذلك فقد عرض على الكفار هذا الدليل نفسه قائلا: إنكم بأنفسكم شاهدون على صدقي وأمانتي قبل دعواي، فلا شك أنكم ترمونني الآن بالكذب والافتراء ظلمًا وعداءً.

وقد أشار بقوله ﴿إِنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ﴾ إلى أمر هام آخر، حيث قال: إنكم تزعمون أنه لا فضل لأتباعي عليكم، ولكني أحس برؤية وجوههم الوضّاءة أنهم يزدادون باستمرار تقرّبًا وحظوة لدى الله عز وجل. أما أنتم فبما أنكم محرومون من المعرفة

الروحانية فإنكم لا تَرون أنوار الإيمان في وجوههم فتقولون ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، في حين أن الله لا يزال يشملهم بفضله ويشرّفهم بقربه. وإذا لم تلمسوا آثار الفضل فيهم فالذنب ذنبكم أنتم.

إن المخلوق الغبي لا يرى الفضل والشرف إلا في الأشياء المادية، ولكن أهل الله يرون الشرف الحقيقي فيما يراه الله هو فضلاً وشرفًا. فكان نوح عليه السلام ينظر ويفرح بما يحققه أتباعه من قرب الله تعالى، ولكن الكفار كانوا ينظرون إلى طعامهم البسيط وأسمالهم البالية، وهذا البون الشاسع بين وجهتي النظر هاتين ما كان ليوصل إلى نتيجة واحدة، ولذلك نجد الفارق بين الرأيين كما بين السماء والأرض. فكان أحد الفريقين يراهم أراذل مهانين، بينما يراهم الفريق الآخر أشرافًا مكرمين.

وقد يكون قول نوح ﴿وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ دحضًا لزعمهم: بأن أصحابك لم يؤمنوا بك إلا في الظاهر، فأشار بقوله هذا إلى ما كان أصحابه يبذلونه من تضحيات جسام. ذلك أن تصديق النبي في بداية دعواه ليس بأمر هين، بل هو بمثابة القفز في النار. ولذلك نجده يوجه اللوم إلى الكفار ويقول: ألا ترون إلى ما يبذله أتباعي من ثمن باهظ لإيمانهم. فما أشدَّكم غباءً إذ ترون منهم هذا الثبات والصمود والفداء والإخلاص وتظنون أنه تظاهر كاذب وأنهم لم يؤمنوا إلا في الظاهر.

وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾

التفسير: يستمر نوح عليه السلام في ردّه على طعنهم في أصحابه ويقول: إن قصدكم من هذه المطاعن أن أطردهم عنّي، ولكن ألا تفكرون أنني لست بمسئول أمامكم، بل أنا مسئول أمام الله جل جلاله، فكيف يمكن أن أثير سخطه عليّ بغية رضاكم. ألا ترون أنني لو طردتهم صرت ناكرًا لجميلٍ صنعه الله إليّ من أجل نصرتي، وبالتالي أثرتُ غضبه

وسخطه، وأنّى لي بعد غضبه عليّ أن أؤدي هذه المسئولية الجسيمة العظيمة التي ألقاها على عاتقي الضعيف.

وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

تزدري: ازدراه: احتقره، واستخف به (الأقرب)

التفسير: هنا يجيب نوح عليه السلام على طعن الكفار بأسلوب آخر ويقول: إنكم تعترضون على كوني بشرًا مثلكم، ولكن الواقع أنه لا تعارضَ بين دعواي وبين كوني بشرًا، إذ ليس ضروريًا أن يكون الرسول مختلفًا عمّن أُرسل إليهم، بل يجب أن يكون مثلهم. فلو أنني ادّعيت مثلاً بأن الله قد سلّم إليّ ملكوته لجاز لكم الاعتراض عليّ قائلين: إنه لمن المستحيل أن يفوّض الله أمر ملكوته إلى بشر مثلنا، ولكني لا أدّعي ذلك أبدًا، بل كل ما أقوله هو أن الله تعالى قد أنعم عليّ واتخذني وسيلةً للكشف عمّا يريد كشفه لعباده من علم الغيب.

ويستطرد نوح عليه السلام في رده على ما رموا به أتباعه قائلاً: إنكم تحكمون عليهم وفق حالتهم التي ترونهم عليها الآن من فقرٍ وبؤسٍ، ولكن من ذا الذي يعلم ما يخفيه لهم المستقبل. أنا لا أدّعي علم الغيب، ولا أجزم بما سيؤتيهم ويوفيهم الله تعالى من خير. وهذا تأكيد لطيف منه على خير الجزاء الذي سيؤتيهم الله، كما أنه يحمل طابع تعريض لاذع بالكفار المعاندين.

وفي الآية نفسها يوضّح نوح مراده فيقول: تحكمون عليهم بالرذالة لمجرّد بؤسهم الظاهري، مع أن الفقر الظاهري لا يجعل صاحبه رذيلاً، وإنما هو فساد القلب الذي يجعل صاحبه رذيلاً وبعيدًا عن رحمة الله. وما دام الله هو العليم بذات الصدور فهو الذي سيحكم بيننا فيما بعد، فإذا كان هؤلاء الناس طيِّبي النفوس في نظره ﷻ، فلا شك في أنه سيجزيهم على خدماتهم وتضحياتهم خير الجزاء.

وقوله ﴿إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جاء ليُنبههم إلى أن من يزعم لنفسه ما لا يستحقه فعلاً يسحقه الله سحقًا؛ أو أن من يحكم على غيره بدون حق فهو ظالم. وأنا لا أدّعي لنفسي بما لا حق لي فيه، كما أنني لا أتجاسر على أن أحكم على أتباعي بخلاف ما يُظهرونه من أعمال وتصرفات.

إلى هذه الدرجة يرتدع ويتورع الأنبياء من الحكم على الآخرين بخلاف ما يظهر منهم، ولكن الأسف كل الأسف أن الناس عامةً جريئون جدًا على أن يحكموا على غيرهم بفتاوى خطيرة عند كل صغيرة وكبيرة، في حين كان الأجدر بهم أن يكونوا أكثر خوفًا وأشد حذرًا.

مع العلم أن الظلم معناه أخذ الحق من صاحبه ووضعُه في يد من لا يستحقه. فالمراد من قول نوح عليه السلام هنا: أنني لو ادّعيت بأنني أملك الخزائن وأطّلع على الغيب وأُشارك في ملكوت السماء والأرض، لعزوت لنفسي ما هو مِلكٌ لله وحده جلّ شأنه، وإذا زعمتُ بأنه ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ كنتُ هاضمًا لحقوق المؤمنين، وفي كلتا الصورتين سأصبح حتمًا من الظالمين.

قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾

التفسير: كان نوح عليه السلام قد أشار فيما سبق إلى انتصار المؤمنين وازدهارهم، ولما كان انتصارهم هذا يتوقف على هلاك الأعداء، الذي سيمهّد الطريق لرقيهم ، لذلك أدرك هؤلاء الكفار على الفور أنه يتوعَّدهم بالهلاك، فقالوا له: حسنًا، دعنا من هذه النقاشات، وأخبِرْنا صراحةً متى موعد هلاكنا الذي تهدّدنا به إن كنت من الصادقين.

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٤﴾

التفسير: فأجابهم نوح عليه السلام قائلاً: الآن فهمتم قولي وأدركتم قصدي ومرادي، ولكني لا أملك في أمر العذاب أي خيار أبدًا .

هذه الآية تبين لنا ثلاثًا من سنن الله تعالى فيما يتعلق بالأنباء الإلهية عن العذاب.

أولاها: أنّ موعد تحقق الأنباء الوعيدية يبقى على العموم خافيًا.

وثانيتها: أنه يمكن إلغاء الوعيد كليةً، وذلك بدليل قول الله ﴿إِن شَاءَ﴾ بمعنى أن نبأ العذاب -رغم الإعلان عنه- يمكن إلغاؤه أصلاً.

وثالثتها: أنه بالرغم من إلغاء الأنباء الفرعية إلا أنه من المستحيل أن يلغى النبأ الأساسي والجوهري وهو أن رُسل الله وأتباعه هم الغالبون في آخر المطاف حتمًا، ومن أجل ذلك قال ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي سواء أتاكم الله بالعذاب أم لا، إلا أنكم لن تُعجزوه عما يريد، فالمؤمنون هم الغالبون في آخر الأمر حتمًا.

وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

نصحي: نَصَحَه ونَصَحَ له نَصحًا و نُصحًا ونَصاحَةً ونصاحيةً: وَعَظَه وأخلص له المودة، وهو باللام أفصَحُ (الأقرب).

يغويكم: غوى يغوي غيًّا: ضلَّ وخاب وانهمك في الجهل؛ هَلَكَ. وغَوِيَ غَوايةً: ضلَّ. وأغواه: أضلّه (الأقرب).

التفسير: يقول لهم نوح عليه السلام: إنني أتمنى لكم الهدى وأُخلص لكم المحبة، ولكن حبي لله أكثر وأشد من نصحي لكم ومحبتي إياكم، فإذا كان الله يرى الخير في هلاككم فإنني راضٍ بما يرضى هو جل شأنه.

إن هذه الآية تدحض بكل وضوح وصراحة الزعمَ بأن نوحًا عليه السلام تسرَّعَ في الدعاء على قومه بالهلاك، إذ إنه لم يدعُ عليهم من تلقاء نفسه، بل إن الله تعالى هو الذي أمره بذلك، وإنه يعلن لهم هنا صراحة بأنني لا أملك أي خيار إذا كان الله يريد أن يهلككم.

ثم إنه دفع عن الله تعالى أيضًا أي اعتراض وعيب فقال:﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي ما دام خالقكم الذي يربيكم قد قضى بهلاككم فلا شك أن هذا هو خير لكم ولمن سواكم.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

إجرامي: أَجْرَمَ: أذنب؛ عظُم جرمُه (الأقرب)

التفسير: هذه الآية أيضًا استمرار لحديث نوح مع قومه ولا تتحدث عن النبي

محمد ﷺ. وهناك فرق واحد هو أن الخطاب من قبل كان موجّهًا من نوح إلى قومه، وأما هنا فمن الله إلى نوح، حيث أمره أن يردّ عليهم بقوله: إن كنت كاذبًا كما تزعمون بأنني أفتري هذا الكلام من عند نفسي فلا شك أن هذه جريمة كبرى سأعاقَب عليها حتمًا، فلا داعي لقلقكم وهلعكم. أما إذا كنت صادقًا في دعواي فاعلموا أن تكفيركم إياي معصية كبرى ستعاقَبون عليها دونما شك، ولا خوف عليّ من ذلك.

وبقوله ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ﴾ قدّم لهم جوابًا لطيفًا آخر على تهمة الافتراء حيث قال: ألا ترون أنني مترّه تمامًا عن كلّ ما أنتم فيه من معاصٍ وجرائم، فكيف تستسيغون إذًا اتهامي بأنني أتجاسر على كبرى الجرائم وهي الافتراء على الله ﷻ. إن العقل السليم لا يُقرّ ذلك أبدًا. فلا شك في أنّ التهمة التي ترمونني بها باطلة تمامًا.

لقد طعن القسيس "ويري" في هذه الآية حين قال: لقد أخطأ من زعم أن هذه الآية تتحدث عن نوح، بل الواقع أن محمدًا كان يختلق القرآن من عند نفسه –والعياذ بالله– مفتريًا على الله، وكان قد نسي هنا ما إذا كان يتحدّث عن نوح أم عن نفسه، ولذلك قال على الفور ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ متداركًا خطأه ونسيانه (تفسير ويري).

الحق أن المعنى الأصح للآية هو ما سبق أن ذكرته آنفًا، ولكن بعد اطّلاعي على طعن القسيس أرى أنها تتحدث أيضا عن رسول الله ﷺ حيث دحض الله بها مزاعم القسيس ومَن على شاكلته. ذلك أنه سبق أن زعم القسيس عن قوله تعالى ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أن نوحًا لم يتعرض لمثل هذه الاعتراضات، وإنما الواقع أن محمدًا يدافع عن نفسه بلسان نوح ليوهم القوم أن هذه الاعتراضات ليست بدعًا من كفّار مكة، بل لم يزل الناس يثيرونها ضد أنبيائهم. فكأن القسيس اتهم سيدنا محمدا ﷺ بافتراء هذا الكلام من عند

نفسه. فأرى أنه من الممكن تمامًا أن يكون الله الذي هو عالم الغيب قد جاء بهذه الآية كجملة معترضة هنا تفنيدًا لهذه الأفكار المريضة من القسيس وأمثاله، منبئًا رسوله بأنه سيأتي يا محمد في المستقبل قوم سيطعنون في أحداث الماضي هذه، زاعمين بأن نوحًا لم يقل هذا، وإنما افتراه محمد من عنده، فعليك أن ترد عليهم بأنني لو كنت مفتريًا فسوف يعاقبني الله على الافتراء لا محالة، ولن أنجوَ من عذابه أبدًا.

وليعلم القسيس أن هذا الذي يعدّه مفتريًا على الله قد صار غالبًا على أعدائه، ولكن الذي يتخذه القسيس وأمثاله ابنًا لله سبحانه قد نجح الأعداء في تعليقه على الصليب! فهل يعامل الله المفترين بما عامل به محمدًا ﷺ ؟! ثم إن صدق النبي ﷺ متحقق أيّما تحقق أيضا بكونه مبرًا طاهرًا من كل ما قد تلطخ به قومه من أرجاسٍ وعيوبٍ ومعاصٍ.

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلا مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

لا تَبتَئِسْ: ابْتَأَسَ: كَرِه وحَزِنَ. لا تبتئس أي لا تحزن ولا تشتكِ (الأقرب)

التفسير: هذه الآية أيضا تؤكد بكل وضوح وجلاء أن دعاء نوح لقومه، سواء أكان دعاء خير أم دعاء شر، إنما كان بأمر من عند الله تعالى، لا من عند نفسه، لأنه تعالى يأمره هنا ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، مما يؤكد أنه لم يكن قد يئس من إيمان قومه إلى حين نزول هذا الأمر الإلهي، بل كان قلقًا على حالتهم بسبب عدم إيمانهم. فلو اعتبرنا دعاءه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح:٢٧)

دعاءً عليهم، لوجب علينا أن نرى ما إذا كان هذا الدعاء قد صدر عنه قبل أم بعد نزول الآية التي نحن بصدد تفسيرها؟ فإذا كان قد دعا به بعد نزولها، فلن يُعتبر دعاء شرٍ، بل إنه كان تعبيرًا عن استسلامه لقضاء الله فيهم، لأنه تعالى إذا كان قد قرر تدميرهم من قبل، فما كان نوح بحاجة للدعاء لهلاكهم. أما إذا قيل بأنه قد دعا به قبل هذا القضاء الإلهي فلا يبدو هذا قولاً صائبًا، لأنه لو كان قد دعا لهلاكهم قبل صدور هذا القضاء فكيف قيل له ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾. كيف يمكن أن يصاب بالقلق والهمّ على سماع هلاك قوم كان يدعو من قبل لهلاكهم، بل يجب أن يسرّه الخبر؟ فالواقع أن القضاء السماوي لهلاكهم كان أسبق زمنًا من دعائه هذا، وأن دعاءه ليس دعاء شر وإنما هو بمثابة تعبيره عن قبوله قضاءَ الله وانقياده لقرار السماء. وكأنه يقول: يا رب، ما دمتَ قد قضيت بهلاكهم فأهلِكْهم، فأنا راضٍ ومستسلم لقضائك.

أما إذا كان أحد يصرّ على اعتباره دعاء شر فليعلم أن نوحًا عليه السلام لم يدعُ به من تلقاء نفسه بل بأمرٍ من عندِ الله، ومثل هذا الدعاء لا يمس بشأن الأنبياء، لأنه إذا أخبر العليم الخبير بمصيرٍ تعيسٍ لقومٍ فالدعاء بحرمانهم من الهدى لا يمثّل إلا بيانًا للواقع والحقيقة.

ولو قيل: ما دام الله قد قرر هلاكهم فما الداعي لأن يدعو بهذا الدعاء؟ فالجواب هو أن النبي رغم تلقّيه خبرَ عذاب قومه، لا يزال يشفع عند الله لهم نظرًا إلى رحمة الله الواسعة، عسى أن يلغي وعيده بالعذاب. وهذا ما فعل نوح عليه السلام، إذ لم يبرح يتوسّل إلى الله تعالى طالبًا لهم الرحمة إلى أن أدرك أن تأخير العذاب أكثر من ذلك ضارّ بمصالح الدّين، وإذّاك دعا ربه قائلاً: فليكن الآن، يارب، ما قررت وقضيت.

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

الفُلك: السفينة يذكَّر ويؤنَّث. (الأقرب)

أعيننا: الأعين جمع عينٍ وهي كلمة كثيرة المعاني ومنها: الباصرةُ؛ وتُطلَق على الحدقة؛ أهلُ البلد؛ أهلُ الدّار؛ الإصابةُ في العين، يقال به عين (أي مرض في عينه)؛ الدَيْدَبان (أي الرسول)؛ الجاسوسُ؛ الجماعةُ؛ حاسّة البصرُ؛ الحاضرُ من كلّ شيء؛ خيارُ الشيء ؛ الدّينارُ؛ نفسُ الشيء وذاته؛ النقدُ الحاضر؛ السيّدُ؛ الشّمسُ أو شعاعها؛ العتيدُ من المال؛ مطرُ أيّام لا يقلع؛ الينبوع. أنت على عيني: أي في الإكرام والحفظ (الأقرب). فُلان بعيني: أي أحفظه وأراعيه. قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وقال: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بحيث نرى ونحفظ، ومنه: عين الله عليك: أي كنت في حفظ الله.(المفردات)

التفسير: عندما أخبر الله نوحًا بهلاك قومه أمره أيضًا أن يصنع سفينةً مستعينًا بأتباعه أو أهل بيته.

لقد ذكرنا آنفًا أن من معاني العين أهل الدار، ولا يكون من أهل دار النبي أقاربه فقط، بل إن أتباعه أيضًا يُعتبرون أهل داره، لأن كلّ قرابة له تأخذ طابعًا روحانيًا، فلا يُعدّ من عشيرته المادية قريبًا له إلا الذي يؤمن برسالته ويبقى على صلة روحانية به ، ولذلك فسرنا قوله تعالى ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بمعنى أقاربنا وأتباعنا.

مع العلم أن قوله تعالى ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بمعنى أهل دارنا لا يعني أن لله تعالى دارًا ماديةً، بل قد نسبهم الله تعالى إلى نفسه لأن المخلصين من أتباع النبي هم أيضًا يصبحون من أحبّاء الله تعالى. ونظيره قوله تعالى﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:

٣٠-٣١). فالمراد من أهل دار الله تعالى من يستحقون جنته. وقد استخدم هذا التعبير ليلهمهم مزيدًا من السكينة والسلوان لدى اقتراب فاجعة العذاب.

وقوله تعالى ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ قد يعني أيضًا أن اصنع السفينة وعينُ الله تكلؤُكَ وترعاك بطرقٍ شتّى، لأن من معاني(العين) الحفاظة والإكرام أيضًا. فالمعنى أنك سوف تتعرض أثناء صنعك السفينةَ لأنواع السخرية والازدراء من قبل القوم، فلا تكترث بما يصنعون، لأننا سوف نحفظك ونكرمك.

وأرى أن قوله تعالى ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ إشارة إلى سفينتين: سفينة مادية كانت تصنع بمساعدة المؤمنين، وسفينة روحانية تصنع بالتقوى التي تنجي صاحبها من العذاب.

أما قوله تعالى ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فهو دليل آخر على أن نوحًا عليه السلام لم يدعُ عليهم قبل صدور القرار السماوي بعذابهم، لأنه إذا كان يدعو عليهم قبل ذلك أيضًا فلماذا يخاطبه الله بقوله:﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

نسخَر: من أساليب اللغة العربية أنهم يستخدمون الفعل نفسه كجزاءٍ عليه. وقد اتبع القرآن هذا الأسلوب في عدة مواضع منه كقوله تعالى ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤١)، وقوله ﴿فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٥). والظاهر أن الجزاء على العدوان لا يُعدّ عدوانًا، وإنما العدوان أن يعاقَب المعتدي بأكثر مما يستحقه من العقاب. كذلك قال الشاعر: وداوَوا بالجنون من الجنون (ديوان

الحماسة). فقد أطلق الجنون على جزاء العمل الجنوني. وهكذا قال نوح عليه السلام ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ .

التفسير: كلما بعث الله رسولاً قابله أهل الدنيا بالسخرية والاستخفاف، وبما أنه يعرض على الدنيا ما لا تكون أفهامهم جاهزة بعد لإدراكه واستيعابه، لذا يجد الأشرار فرصة سانحة للازدراء به أكثر فأكثر. ولكن هؤلاء الحمقى لا يفكرون أن غاية بعثته لا بد أن تكون أسمى من إدراك العقل البشري عندئذ، وإلا لما كانت هناك حاجة لإرساله. ذلك أن الرسل لا يُبعثون إلا عند فشل الناس في التحرر مما هم فيه من محن وخطوب بما تمليه عليهم أفهامهم من حلول قياسًا بالظروف المحيطة بهم، بل إنها تقرّبهم إلى هذا الهلاك أكثر فأكثر. فيبعث الله رسله ليأخذوا بأيديهم ويرشدوهم إلى الصواب. ولكن بما أن وصفتهم العلاجية تكون غريبة على القوم ولا عهد لهم بها، فإنهم يعتبرونها خاطئةً بطبيعة الحال، مما يتيح الفرصة لأعداء الحق أن يثيروا الطعن والسخرية. ولكن ماذا تكون النتيجة يا تُرى؟ إن أنبياء الله وأتباعهم لا بد أن يخرجوا من ساحة الحرب منتصرين بينما يصبح أعداؤهم في عداد الأغبياء المهزومين إلى الأبد.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ

٤٠

شرح الكلمات:

يُخزي: أخزاه: أوقعه في الخِزي وأهانه. أخزى الله فلانا: فَضَحَه (الأقرب)

يحلّ: حل عليه الأمر: وَجَبَ (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.. اعلم أن العذاب صنوف وألوان، فمنه ما

يجعل الآخرين ينظرون إلى من حل به العذاب نظرةَ رحمةٍ وشفقة، فمثلا عندما ينهدم بيت أحد يعامله الناس بالرحمة ويواسونه، ولا يسبب هذا النوع من العذاب أي خزي ولا هوان لصاحبه. ولكن من العذاب ما يجلب لصاحبه الذل والهوان أيضا، كأن ينكشف خداع أحد بين الناس، ففيه عذاب وافتضاح أيضا، أو كأن يُجعلَ عبرةً للآخرين، ومثاله ما حل بقوم نوح حيث لا تنفك تلك الكارثة الهائلة ماثلة في أذهان العالم كعبرة ثابتة.

وأشار بقوله ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ إلى أنه سيكون من العذاب الذي يصيبكم في الدنيا، كما ستذوقونه في الآخرة أيضا. وكأنما يقول: إنما العذاب الحقيقي ما يجلب لصاحبه الذلة الأبدية التي لا تنمحي آثارها، بل تلازمه وتهلكه. فلا ضير من استهزائكم بنا لأنه شيء عابر ولا يسبب لنا خزيًا ولا عارًا حقيقيًا، ولكن يجب أن يخاف ويقلق مَن سيصيبه عذاب باقٍ وخزي أبدي.

حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ

٤١

شرح الكلمات:

فَارَ: جاش؛ فارت القِدر: جاشَت وغلَت. فار الماء: نبع من الأرض وجرى (الأقرب)

التنّور: المكانُ الذي يُخبزُ فيه؛ كلُّ مفجرِ ماء؛ محفلُ (أي مجتمع) ماءِ الوادي (الأقرب). وقال صاحب تفسير البحر المحيط: "هو مجاز، والمراد غلبةُ الماء وظهور

العذاب، كما قال ﷺ لشدة الحرب: حَمِيَ الوطيس. والوطيس أيضا مستوقد النار، فلا فرق بين حَمي وفار إذ يُستعملان في النار، قال الله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾، كما لا فرق بين الوطيس والتنور".

زوجين: الزوج: كلٌّ واحد ومعه آخر من جنسه (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: خُذ معك في السفينة من كل حيوان لا بد من حمله زوجين اثنين أي الذكر والأنثى.

التفسير: استمر الأعداء في النقاش والجدال والسخرية من جانبهم، وتمسك نوح عليه السلام بأهداب الصبر، متوكلاً على نصرة الله، إلى أن تفجرت الينابيع بالماء وجرت المياه على وجه الأرض. مع العلم أن الطوفان لم يأتِ بسبب انفجار العيون الأرضية وحدها، بل كانت الأمطار الغزيرة هي المصدر الحقيقي لمياه الفيضان، كما صرح القرآن بذلك في عدة أماكن منه. لقد نزلت الأمطار بكثرة وغزارة قبل العذاب بحيث غطت المياه كل مكان، وكما يحدث إبان هطول الأمطار بكثرة فإن العيون الأرضية أيضا تفجرت بالمياه بغزارة، وهذه المياه السماوية والأرضية تسببت معًا في دمار أهل المنطقة. فقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر: ١٢ – ١٣)، وبقوله تعالى ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي﴾ (هود: ٤٥).

وهذه ظاهرة طبيعية تشاهَد بكثرة، لأن هطول الأمطار الغزيرة يتسبب في فوران العيون الأرضية بكثرة، ولاسيما في المناطق الجبلية، حيث يجرى الماء في العيون نتيجة ذوبان الثلوج المتراكمة على أعالي الجبال، وإن نزول الأمطار يزيد الثلوج ذوبانًا، وبالتالي يؤدي إلى زيادة المياه الأرضية. والثابت من القرآن الكريم أن نوح عليه السلام كان يسكن في منطقة جبلية، فقد ذكر القرآن بعد هذه الآية بآيتين قولاً لابن نوح ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء﴾ مما يوضح ويؤكد أن موطنهم كان واديًا بين الجبال، وإلا فكيف فكر ابنه في اللجوء إلى جبل من الجبال؟ فهل يجري ويصعد جبلاً يقع

على بعد مائة أو مائتي ميل؟ فقوله هذا دليل على أنه كان واقفًا بسفح جبل، وعندما رأى ارتفاع المياه ظن أنه سينجو منها بسهولة بالصعود على الجبل.

وأما قوله تعالى ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ فليس المراد منه كلَّ الأحياء الموجودة على الأرض، بل فقط الحيوانات التي كان يربيها نوح في بيته. ذلك أن كلمة (كُلٍّ) تعني عادة فقط ما يملكه الناس عمومًا، وليس كل موجود على الأرض. مثلاً يصف القرآن الكريم ملكة سبأ بقوله ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل:٢٤)، ولكن نجد سليمان عليه السلام يرد على رسلها بأنكم لا تملكون شيئا بالمقارنة بما أعطاني الله، وسوف ترون كيف آتيكم بجنود لا قِبَل لكم بها. فلو كانت كلمة (كُلٍّ) تعني كل ما في الأرض لَلَزِم أن تكون الملكة تملك ما في حوزة سليمان أيضا، ولكن لا أحد يأخذ بهذا المعنى هناك، بل يفسرونها بأن كل ما كانت بحاجة إليه كان متيسرًا لديها. (روح المعاني). وهذا هو المراد هنا بمعنى أن الله تعالى أمر نوحًا أن يأخذ معه في السفينة زوجين من كل حيوان كان بحاجة إليه. وهذا المعنى معقول ومنطقي جدًا، وإلا نضطر للقول غير المعقول بأنه حشد فيها ملايين الحيوانات من الدواجن وحشرات الأرض ووحوش الغاب وغيرها، وأن ضخامة سفينته كانت تساوي ربع الكرة الأرضية تقريبا!!

ومما يلفت النظر أنه تعالى قد حثّه على أخذ أقل ما يمكن وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ مما يؤكد أنه أمر أن يأخذ معه ما لا بد له منه، لا أن يحشد فيها كل حيوانات العالم.

وقوله تعالى: ﴿إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ لا يعني إلا من أخبرناك صراحة بهلاكه، بل المراد إلا من هو هالك وفق قضائنا وقرارنا.

لقد حسب نوح خطأً أن قول الله هذا إنما هو تعبير عن عظيم استغنائه فحسب، ولم يدرك أنه تعالى يخبره بذلك عن هلاك بعض من أهله. ومثال التعبير عن الغِنى الإلهي هو قول شعيب لقومه الكافرين ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاء اللّهُ

رَبُّنَا﴾ (الأعراف: ٩٠) مع العلم أن المراد من ﴿نَّعُودَ فِيهَا﴾ أي نعود في ملتكم الكافرة. والبديهي هنا أن الله تعالى لا يريد لنبيه أبدًا أن يرتد إلى ملة الكافرين أو يشرك. فلا شك أن قوله ﴿إلا أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا﴾ إنما يقصد جبروت الله وغِناه عن العالمين، وأن قدرته غير محدودة، وليس أنه يمكن أن يأمر نبيه بالارتداد.

وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

مجريها: أصله: مَجرَاها، والمجرى إما مصدرٌ مِن جرى يجري مجرىً، أو اسم ظرف أي مكانُ جريانها أو موعد جريانها.

مُرساها: مصدر ميمي مِن أرسى يرسي إرساءً. ورَسَت السفينة: وقفت على الأنجر، والمرسى: مكان وقوف السفن (الأقرب).

وفي قراءةٍ: مُجريها ومُرسيها.. أي بسم الله الذي هو مجريها ومُرسيها (تفسير الرازي)

مَعزِل: عزل الشيءَ عن غيره، يعزِل عَزَلاً: نحّاه عنه جانبًا. وعزل فلانًا عن منصب أو نحوه: رفعه عنه. وعزل: تنحّى. ويقال: هو عن الحق بمعزلٍ أي مجانب له. (الأقرب)

التفسير: لقد اختلف المفسرون فيما إذا كان هذا ابنًا حقيقيًا لنوح أم لا. فيرى

البعض أنه لم يكن ابنًا له بل من أقاربه، بينما يرى الآخرون أنه ربيبه من زوجته و لم يكن من صلبه. ولكن ابن مسعود وابن عباس وعكرمة -رضوان الله عليهم- والضحاك وابن جبير ومعظم المفسرين قالوا: إنه ابنه (البحر المحيط).

وأرى أنه لا داعي لمثل هذا النقاش. ما دام القرآن يسميه ابنًا لنوح، وما دام ناداه هو نفسه بقوله ﴿يَا بُنَيَّ﴾، ثم ليست هناك آية أخرى تخالف كونه ابنًا، فلا بد أن يكون منه من القرابة بحيث يطلق عليه اسم الابن.

لقد اعترض المستشرقون على ما ذكره القرآن عن ابن نوح وقالوا بأن بيان القرآن مخالف لما ورد في التوراة! (تفسير ويري)

وإنه لمما يبعث على العجب والحيرة أن يعترض هؤلاء على القرآن الكريم بناءً على ما ورد في التوراة بالرغم مما هي عليه من النقائص والعيوب!

قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

سآوي: أوَى مترلَه وإلى مترله: نزل به ليلاً أو نهارًا (الأقرب)

يعصمني: عصَم يعصم عصمًا الشيءَ: مَنَعه. عصم الله فلانًا من المكروه: حفظه ووقاه (الأقرب)

التفسير: يبدو من هذه الآية أيضا أن نوحًا عليه السلام كان يقطن في منطقة محاطة بالجبال، ومن أجل ذلك يقول ابنه: سآوي إلى جبلٍ. فإن كلمة (جَبَلٍ) تدلُّ على وجود أكثر من جبل هناك. يبدو أن المنطقة كانت واديًا محاطًا بسلسلة من الجبال،

وإن ارتفاع المياه في مثل هذا المكان ارتفاعًا غير عادي ليس مما يخالف العقل والمنطق.

هذا ويتضح من الآية أن الأحمق لا ينفك مغمض العين عن الحقائق حتى إلى آخر لحظة، فكان ابنه يرى الطوفان قادمًا ومع ذلك لم يزل يشك في رسالة أبيه.

وقوله ﴿إلا مَن رَّحِمَ﴾ يعني أنه لا مُنقذ من الطوفان اليوم إلا الله، ولن ينجو منه إلا من تداركته رحمته تعالى.

وفي قوله تعالى ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ إشارة لطيفة بأنه ﷺ كان قد حفظ نوحًا من أن يتألم برؤية مشهد غرق ابنه، فجعل بينهما حجابًا من موج مرتفع حين غرَقِه.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

ابلَعي: بَلَعه يبلعه وابتلعه: أنزله من حلقومه إلى جوفه و لم يمضغه (الأقرب)

أَقلِعي: أقلع عن الأمر: كفّ (الأقرب).

غِيضَ: غاضَ الماء: نقص أو غار وذهب في الأرض. وغاضَ الماءَ: إذا نقصَهُ (الأقرب).

استوت: استوى على ظهر دابته: استقرّ (الأقرب).

بُعدًا: بعُد يبعدُ بُعدًا: ضدُّ قَرُبَ؛ مات (الأقرب).

التفسير: ما أشد الأنبياء توقيرًا وتعظيمًا لله ﷻ . لقد ارتكب نوح عليه السلام خطأً اجتهاديا في فهم كلام الله تعالى حيث ظنّ أن كل فرد من أهله سوف يظفر بالنجاة، ولكن حينما أوشك ابنه على الغرق تضرّع نوح إلى ربه بأسلوب غاية في اللطف والشفافية قائلاً: "إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي".. أي أنني أتوسل إليك أن تُنجيه وفق ما وعدتني به. ولكن لما كانت الظروف الظاهرة تقضي بعدم نجاته قال ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾.. أي لو غرق فلن يقدح ذلك في وعدك، بل سيبقى وعدك حقًا كما هو ويكون قرارك صائبًا في كل حال.

والواقع أنه لا يتحلى بهذا الأدب الجم والإيمان القوي خصوصًا في أوقات الصدمات الرهيبة إلا عباد الله المقربون من الطراز الأول.

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٧﴾

التفسير: ما أبلَغَهُ من كلام حيث ذُكرت الحقيقة في كلمات موجزة للغاية. يقول عزّ من قائل: إننا لم نقصد بكلمة ﴿أَهْلِكَ﴾ كلَّ من في بيتك، وإنما قصدنا المؤمنين فقط، لأن أهلك الحقيقيين مَن هم على صلةٍ بالله ﷻ .

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ يمكن تفسيره بطريقين؛ الأول: أن يكون ضمير الغائب في (إنه) راجعًا إلى دعاءٍ قام به نوح، والمعنى: أن دعاءك هذا يا نوح ليس عملاً صالحًا إذ ليس في محله، لأن الصالح من الأعمال ما يكون ملائمًا للموقف. لقد سبق أن أعلنّا قضاءنا، فلا جدوى من هذا الدعاء وقد حان العذاب.

والثاني: أن يكون الضمير عائدًا على ابنه، وتكون كلمة (عملٌ) بمعنى عامل، أو

يكون هناك محذوف والتقدير: إنه ذو عمل غير صالح، والمعنى: أن ابنك ليس من أهلك لأنه لم يزل يعمل عملاً غير صالح أي كان يرتكب أعمالاً غير صالحة منافية للتقوى.

وكلا التقديرين جائز وفق القواعد العربية، لأن المصدر يقع أحيانًا بمعنى الفاعل للمبالغة، كقول الشاعر عن ناقته:

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ، حتى إذا ادَّكَرَتْ فإنَّما هِيَ إقْبالٌ وإدْبارُ (لسان العرب)

أي عندما تذكر فصيلَها فإنها لا تبرح مقبلة ومدبرة دون انقطاع.

ويعني قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ..أنت حامل أمانة كلام الله تعالى، فعليك أن تكون أكثر حذرًا في المستقبل وتتدبر في كل جانب محتمل من كلامه. وكأن ما حصل في النبأ من إجمال وغموض كان بهدف أن يجعله الله عبرةً لنوح في المستقبل، حيث قال له: عليك أن تتلقن درسًا مما حصل منك من خطأ اجتهادي في فهم الوحي، وتتذكر دائمًا أن الأنباء السماوية تحتمل أكثر من مدلول، ولا يُفهم تأويلها الحقيقي إلا عند تحققها.

وأما قوله تعالى ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فيمكن تفسيره بمفهومين:

الأول: أن لا تطلب من الله تعالى ما ليس لك علم بمآله وعاقبته.

إن هذا الأمر من الأهمية والخطورة بمكان إذ إن الجهل به يؤدي إلى أضرار كثيرة بالناس. إن الإنسان ليس بعالم الغيب، فلا يستطيع أن يدرك ما إذا كان ما يطلبه من الله هو خيرٌ له أم شر، مبارك أم غير مبارك، لذلك يجب على من يدعو الله دعاءً أن يأخذ هذا الأمر في اعتباره دومًا عند الدعاء، فيبتهل إلى ربه أن يمنحه الشيء ما دام خيرًا له، وإلا فليصرفه عنه.

ولقد عمل النبي ﷺ بهذه الحكمة دائمًا، كما حثّ أصحابه على ذلك، فقد كان يأمرهم أنه إذا همّ أحدهم بأمر فليقلْ: "اللهم إن كنتَ تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقْدِرْه لي، ويسِّرْه لي، ثم بارِكْ لي فيه. وإن كنت تعلم

أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرِفْه عني واصرفني عنه، واقدِرْ لي الخيرَ حيث كان، ثم أَرْضِني به" (البخاري، التهجد).

ما أكمَلَه وأشمله من دعاء! فإنه يوضح تمامًا أن ما يحسبه الإنسان خيرًا قد لا يكون خيرًا بالضرورة، بل لعلّه يكون شرًّا في علم الله الذي عنده الغيب. فينبغي أن لا يسأل الإنسان ربه قائلاً: أعطِني كذا وجُدْ عليّ بذاك، وإنما عليه أن يتوسل إليه أن يعطيه الشيء إذا كان خيرًا له عاقبةً ومآلاً، وإلا فليصرفه عنه. نعم، إذا كان الإنسان يعلم علم اليقين أن الشيء الذي يطلبه هو خيرٌ له دونما شك فيمكن أن يسأل الله إياه صراحة. فمثلاً لا ضير أن يسأل ربّه أن يهب له رضوانه ولقاءه، ويؤتيه حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة، لأنها كلها خيرٌ وبركة. ولكن يجب أخذ الحيطة والحذر دائمًا فيما لا يعلم الإنسان بمآله ونتائجه.

وكان دعاء نوح عليه السلام -وإن تمّ تلميحًا وإشارةً- بأن يركب ابنه السفينة معه أيضًا من الأمور التي لا يعرف عقباها، بل كان أغلب الظن أنه لو نجا معهم لأساء إلى الدين لِمَا تعوّد عليه من المعاصي، وتسبَّبَ في ضعفه بدلاً من إعلاء كلمته، ولذلك كان هلاكه هو القرار الصائب الملائم.

والثاني: إذا اعتبرنا كلمة ﴿فَلا تَسْأَلْنِ﴾ بمعناها العادي أي السؤال لا بمعنى الدعاء فالمراد من الآية: ينبغي للمرء أن لا يسأل إلا عن أمور يزيده الجواب عنها علمًا ومعرفةً، ويكون إدراك حقيقتها في مقدرته. أما دقائق الحكم ولطائف الأمور التي عليها مدار النواميس الطبيعية، والتي لا تنحصر في حادث أو حادثين وإنما تتعلق بملايين الأحداث التي وقعت بعضها قبل ملايين السنين أو سيقع بعضها في المستقبل.. فالسؤال عن مثل هذه الأمور ليس إلا عبثًا ولغوًا، لأن إدراكها بشكل كامل ليس بوسع العقل البشري، إذ لم يؤتَ القدرة على استيعابها. فقوله تعالى ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني إذًا: لا تسألْ عن أمور لا طاقة لك بإدراكها، أو التي جُعلت خارج نطاق علمك. وليس المراد أن لا تسأل عما لا تعلمه، ذلك أن الإنسان إنما

يسأل عن الشيء ما دام يجهله، وأما ما يعلمه فلا حاجة له بالسؤال عنه. وأيّ شك في أنه لا يليق بالمرء أن يسأل عن أمور هي أسمى من أن يدركها عقله، أو هي مما لا ينبغي أن تنكشف له تفاصيلها.

ويبدو من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أن أعمال الابن كانت خافية على أبيه، فنهاه الله عن السؤال كيلا يُهتك سترُ ابنه ويُفتضح أمره، لأن الجواب عليه كان يتطلب الكشف عن عيوبه ومعاصيه كشفًا تفصيليًا، فأوجز الجواب قائلاً ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

فما أروَعَه مشهدًا لكون الله ستارًا وذا مغفرة واسعة، حيث يقضي ﷻ بغرقه من جهة، ومن جهة أخرى يستر عيوبه ومساوئه. فقوله ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني في هذا السياق بأنه يجب على الإنسان أن يدرك مثل هذه الأمور بعقله الموهوب ويكف نفسه عن السؤال عنها. وأيُّ شك في أن السؤال يسبب المشاكل في بعض المواقف، فيجب على المرء عندئذ أن يتصرف بحكمة مستخدمًا عقله بدلاً من السؤال.

أما قول نوح ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ فينشأ عنه سؤال وهو أنه لم يرد في الآية أي وعد من الله تعالى بإنقاذ ابنه، بل كل ما ذُكر فيها هو أن الله أمره بأن يأخذ معه في السفينة أناسًا معينين، فإذا كان أحد قد عصى الله تعالى ولم يركب فيها وغرق فهذا ذنبه هو، وليس بأن الله قد أخلف وعده، فكيف يذكّر نوح إذَنْ ربَّه بوعده قائلاً ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾؟

الجواب: لقد كان هناك وعد إلهي حتمًا، ولكن جاء بصيغة أمرٍ، وما أكثرَ ما يكون الوعد يحمل طابع الأمر. ذلك أن أَمْرَ الله له بأن يأخذ في السفينة أناسًا معيّنين كان يتضمن دون شك وعدًا منه بإنقاذهم من الطوفان.

والدليل الآخر على كونه وعدًا الاستثناءُ المذكور في قوله ﴿إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ حيث لم يكشف عليه بأسماء هؤلاء الذين قضى بهلاكهم من أهله. فلو كان

هذا أمرًا دون وعدٍ لصرّح بأسمائهم أو أعمالهم حتى لا يأخذهم في السفينة، ولكن هذا لم يحصل، ومن أجل ذلك تحيّر نوح عندما رفض ابنه أن يركب مع أنه من أهله. ولكن الله لم يرد أن يخبر نوحًا بأسماء هؤلاء الذين استثناهم من النجاة.

والدليل الثالث على وجود الوعد هنا أنه تعالى لم يقل لنوح عند سؤاله: متى وعدتُك بنجاة أهلك، وإنما قلت لك فقط: خُذ فيها أهلك والمؤمنين، فإذا كان أحد لم يركب معك فهذا ذنبه هو، وهو المسئول عن عاقبته. بل الله تعالى يسلّم ويقرّ بوعده لنوح بنجاة أهله الحقيقيين المؤمنين قائلاً: نعم، ولكن هذا الرجل الذي تتوسّل من أجله ليس من أهلك.

لقد رأيت لزامًا عليّ أن أوضّح هذا الأمر بالتفصيل لأن بعض الجهال ينكرون إمكانية وقوع النبي في خطأ اجتهادي في فهم أنباء الله تعالى، وعندما تُعرض عليهم مثل هذه الآيات التي تنقض دعواهم يقولون: ليس فيها أي وعد، وإنما تذكر أمرًا من عند الله تعالى. ولكني قد أثبتُّ الآن أن الله كان قد قطع فيها وعدًا لنوح بنجاة أهله، ولكنه لم يدرك المراد الحقيقي من الوعد، فوقع في خطأٍ اجتهادي، ولكن الله تعالى كشف عليه الحقيقة في موعدها.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٨﴾

التفسير: ما أرفَعَ مكانةَ الأنبياء في طاعة الله ﷻ، فما أن سمع نوح عليه السلام قول الله تعالى حتى قام واعترف بخطئه ورجع عن موقفه، وليس هذا فحسب، بل تضرع إليه تعالى قائلا: يا رب سأسعى جاهدًا أن لا أعود لمثله أبدًا، ولكني لا أقدر على فعل

شيء بدون معونتك، فأَعِنّي على أن لا أقع في مثل هذا أبدًا.

ما أشدَّ أولئك المتصوفين الكاذبين جهلاً وغباءً، الذين يطلقون دعاويَ فخمة خطيرة، رغم حرمانهم من أية درجة روحانية عالية، ولا يتأسون بهذه الأسوة الحسنة للأنبياء عليهم السلام.

كما أن هذه الآية تكشف لنا حقيقة استغفار الأنبياء ونوعية الأخطاء التي تصدر عنهم. فقد ذكرت الآية استغفار نوح عليه السلام، ولكنه لم يكن عن معصيةٍ أو مخالفة منه لحكمٍ من أحكام الشرع، وإنما كان استغفاره بسبب خطأ اجتهادي وقع فيه من جراء الضعف البشري، كما توضح الآيات السالفة. فتبين أن استغفار الأنبياء لا يعني أنهم بالفعل ارتكبوا معصية لربهم، وإنما المراد منه أن يحميهم الله من عواقب تقصيراتهم الناتجة عن ضعفهم البشري.

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيم ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

بركات : جمعُ بركة وهي: النماءُ؛ الزيادةُ؛ السعادةُ. بَرَكَ الشيء بالمكان: ثَبَتَ. بارك الله فيك: طَهَّرَك. بارَكَه: رضي عنه.واللهم بارِكْ على الأنبياء وآلِهم: أي أَدِمْ لهم ما أعطيتهم من التشريف والكرامة (الأقرب) .

التفسير: تعارض هذه الآية نظرية التوراة بأن الناس اليوم هم أولاد لنوح من ذريته التي بقيت بعد الطوفان، فإنه تعالى يؤكد هنا أنه ليس نوح وحده الذي انتشرت ذراريه في الدنيا، بل لقد قطع الله تعالى وعودًا لأتباعه بالبركة والنماء، وأن أولادهم أيضًا قد انتشروا في الدنيا إلى جانب أمم أخرى غير أمة نوح عليه السلام.

ما أقوى هذا البيان دليلاً على فضل القران الكريم على التوراة. إن كل كِتابيّ مثقّف يوقن اليوم في قلبه أن سكان الأرض ليسوا من أولاد نوح وحده، وهكذا تراه يؤكد موقف القران ويرفض موقف التوراة التي تقول بأنه لم ينج من الطوفان إلا نوح وأولاده وأن ذراريهم هم الذين عمروا الأرض فيما بعد (التكوين:٨). إذ تصنِّف التوراة سكان المعمورة كلهم ثلاثة أصناف تُنسب إلى ثلاثة من أبناء نوح: سام وحام ويافث (التكوين:٧). بينما يعارض القرآن الكريم هذه الفكرة الخاطئة معلنًا أنه ليست ذرية نوح وحده التي عمّرت الكرة الأرضية، بل كان لأتباعه أيضًا أولاد، إلى جانب الشعوب الأخرى من المناطق التي لم تتعرض للطوفان.

وقوله تعالى ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ قد يعني الأمم الأخرى التي لم تتعرض للطوفان – كما أسلفتُ– بل مدّ الله لهم وأمهلهم ثم أهلكهم فيما بعد. كما يمكن أن يُقصد به ذراري نوح وأتباعه، والمراد أن طائفة كبيرة من أولاد هؤلاء الناجين المباركين سوف تؤول إلى الفساد بعد فترة من الزمن فيمسهم منا العذاب الأليم.

تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

التفسير: تبيِّن هذه الآية بكل وضوح أن القرآن لا يسرد أحداث الأولين كحكايات وأساطير، بل إنها أنباء الغيب.. أي أنها أحداث سوف تقع أمثالها في المستقبل. وكأن الله تعالى يقول: إنها يا محمد، أخبار عماّ وقع لِنوح دون شك، ولكننا نقصد من ذكرها أن نخبرك أنك ستواجه أحداثًا مماثلة. ولذلك خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بمعنى أنّه كما دمَّرنا قوم نوح إلا من آمن به منهم كذلك سوف نهلك جزءًا من قومك، وسوف نُخرج من نسلك ونسل المؤمنين بك

أمة جديدة سوف ترفع لواء الصدق والتقوى في كل زمن عاليًا خفّاقًا.

ويعجبُ المرء كيف يزعم البعض – رغم هذه الآيات الصريحة – أن القرآن لا يقصد بسرد هذه الأحداث إلا ذكر أساطير الأولين فقط؟! الحق أنه لا يذكر أيّ حادث من الماضي إلا لينبئ بأن المسلمين أيضًا سوف يواجهون مثله. وهذا ما حدث بالفعل. فما من حادثٍ من التاريخ القديم سرده القرآن الكريم إلا وقد وقع مثله مع الرّسول ﷺ وأتباعه، أو سيقع بأمته في المستقبل.

هناك اختلاف كبير لدى المسلمين والمسيحيين واليهود حول طوفان نوح، وبما أنه لم يكن بوسعي ذكره بالتفصيل تحت آية معينة لذلك أذكر هنا بحثي ورأيي حوله مع آراء الآخرين.

تقول التوراة بأن والد نوح اسمه " لامك " الذي كان في الجيل التاسع من نسل آدم عليه السلام. ولما كان نوح ابن خمس مائة سنة وُلد له سام وحام ويافث (التكوين ٥،٦). عندما رأى الله فساد أهل الأرض قرّر تدميرهم. وكان نوح رجلاً بارًا فاختاره اللّه وأمره أن يصنع سفينةً، وأن يأخذ فيها أهله وأولاده عند الطوفان، وأن يأخذ معه كذلك من كل البهائم الطاهرة سبعةً سبعةً، ذكرًا وأنثى، وأما التي ليست بحلال فيأخذ منها اثنين ذكرًا وأُنثى (التكوين٦).

وعندما جاء الطوفان أهلَكَ كل ذي حياة على الأرض، إلا نوحًا ومن معه في الفلك من إنسان وحيوان، فعمّروا الأرض من جديد. واستوت السفينة بعد الطوفان على جبال أرَراط (التكوين:٧ و٨). فنـــزل هو وأولاده ليعيشوا على اليابسة مرةً أخرى، وعملوا في الزراعة. فغرس كرمًا، وشرب من خـــمره، فسكر وتعرّى، فأبصره ابنه حام الذي أخبر أخويه سامًا ويافث بذلك. فأتى الأخيران إليه مشيًا إلى الوراء وسَتَرَا عورته، فلما أفاق دعا على ابنه حام قائلا: ملعونٌ كِنعانُ أولادُ حام الذين سيعمرون أرضًا باسم كنعان، وليكونوا عبيدًا لذرية سام ويافث (التكوين ٩).

كما يتبين من التوراة أن أبناءه استوطنوا بعد الطوفان منطقة هي أرض العراق

حاليًا، إذ ورد فيها أن حفيد حام صار حاكمًا على بابل وما جاوَرَها (التكوين ١٠).

وهناك اختلاف بسيط بين بيان التوراة وبين ما ورد في روايات يهودية أخرى، ولكن لا حاجة بنا للخوض في تفاصيلها، إلا أنه لا بأس من الإشارة إلى أن أحد كتب الروايات اليهودية المعروف باسم "مدراش أغاده" يذكر أن نوحًا سُمي بهذا الاسم لاختراعه المحراث (الموسوعة اليهودية ، كلمة Noah) بينما تذكر التوراة أن أباه هو الذي سمّاه بهذا الاسم .

وقد حاولوا التوفيق بين البيانين في كتاب "سُفره يا شير" بقولهم: إن أباه سمّاه "مناحيم" ومعناه المعزّي، وقد أُطلق عليه "نوح" بعد الطوفان (الموسوعة اليهودية).

وقد اختلفوا أي اليهودُ أيضًا في كون نوح صالحًا أم لا؟ فقال بعضهم هو بار تقي، ويرى الآخرون أنه صالح إلى حدٍ ما، بينما اعتبره البعض شريرًا، وأنه قد نجا من الطوفان بسبب الصالحين الذين كان من المقدر أن يخرجوا من صلبه.

وورد في التلمود – وهو مجموعة روايات يهودية – أنه كان نبيًا شارعًا، وأنه بدأ في تدوين شريعته بعد حادث الطوفان بثمانية وعشرين عامًا* وكانت شريعته تحتوي على شيء من المسائل الطبيعية والأحكام المماثلة لما ورد في شرع موسى عليه السلام، وأن الملك رافائيل هو الذي علّمه الطب وشيئًا من خواص الأعشاب، ونُقل كتابه إلى لغات أخرى، ومنه أخذ الهنود واليونان علم الطب. (الموسوعة اليهودية).

وبالمناسبة فقد فات علماء اليهود هنا أنه لم يبق في الدنيا بعد الطوفان إلا أولاد نوح فقط – كما يزعمون – إذ كان جميع سكانها من أولاد نوح، فما كانوا إذَنْ بحاجة إلى أية ترجمة لشرعه إذ كانوا يفهمون لغة جدهم نوح!

ومما يثير العجب وجودُ حكايات مشابهة لطوفان نوح في تراث السكان القدامى

* هكذا ورد في التفسير الكبير، ولكن الذي ورد في الموسوعة اليهودية يقول بأنه بدأ بتدوينها في اليوبيل الثامن والعشرين أي في العام الخامس والسبعين بعد الطوفان. (الناشر)

في كل قارة تقريبًا (الموسوعة التوراتيّة). حيث تحكي الروايات القديمة في اليونان عن شخص كنوح وعن طوفان كطوفانه، مما يعني أن أوروبا أيضًا كانت على علم بحادث تاريخي من هذا القبيل. كما أن السكان القدامى من أمريكا الشمالية يحكون قصصًا مشابهه لحادث نوح. بل هناك تشابه كبير في الأسماء والأمور الأخرى في روايات مختلفة من قارات مختلفة. فمثلاً تذكر الروايات القديمة البابلية اسم بطل الطوفان هو (هسيس إندرا) "أي العاقل"، وأنه كان العاشر بين الملوك. وهذا مشابه لما ورد في التوراة بأن نوحًا كان من الجيل العاشر بعد آدم عليه السلام (التكوين:٥). بينما تذكر القصص من أمريكا الشمالية أن اسم البطل هو (كنيان)، ومعناه العاقل أيضًا.

ثم هناك روايات متشابهة لدى القدماء من إيران ومصر والهند تتحدث كلها عن طوفان عظيم في القديم، وأن القلة فقط نجوا منه في سفينة عبد صالح. حيث تذكر الروايات الهندية والبابلية أن عبدًا صالحًا تلقّى من اللّه خبر الطوفان قبل حدوثه. تقول الروايات البابلية أنه تلقى هذا الإنذار في المنام، بينما تقول الهندية منها إن الآلهة حذّرته من وقوعه (الموسوعة اليهودية Deluge). وتذكر الروايات البابلية أن اسم الجبل الذي استوت عليه السفينة هو جبل أرمينيا. وقد قال المفسرون المسلمون بأن الجودي المذكور في القرآن هو جبل أرمينيا (الكشاف وابن كثير). وهنا نجد توافقًا بين الرواية البابلية وبين القرآن. وبما أن بابل كانت موطنًا لأولاد نوح – كما تشهد التوراة – فلا بد من ترجيح الرواية البابلية على غيرها، خصوصًا وأننا لا نرى أي مكسب يمكن أن يجنيه البابليون من ذكر حادث نوح، وذلك على عكس التوراة التي قد حاول مؤلفوها جاهدين أن يعطوا للعالم انطباعًا وكأن تاريخ الدنيا كله منحصر فيما تذكر التوراة فقط.

أما التراث الهندي فنجد فيه ذكر بطل الطوفان في كتاب باسم (ست بت برهمن) حيث ورد فيها أن (مَنُو) هو أول إنسان، وكان ابنًا لإله الشمس (دِوَشوَات). كان يغتَسِل مرةً، فوقعت في يده سمكة. فتوسلت إليه قائلة: لو أطلقت سراحي فإنني سوف

أنجيك من طوفان عظيم قادم، ونصحته بصنع سفينة كبيرة. ولما جاء الطوفان أخذت السمكة السفينةَ إلى قمة جبل، حيث نزل (منو) عند هدوء الطوفان وقدّم قربانًا. فوهب الله له بنتًا، دون أن تكون لها أمٌ، ومنها تكاثر الناس دون أن يكون لها زوج. (الباب الثامن ص ١١٢-١١٣).

والرواية الثانية هي من كتاب (مها بهارتا) إذ جاء فيه أنه كان مع (منو) سبعة آخرون من أولي الألباب، وأن السمكة كانت في الواقع (برهما) أي الإله، وأنها علّمت (منو) كيف يخلق آلهةً أخرى وأناسًا. (ص ١٦٤-١٦٥)

ووردت الرواية الثالثة في كتاب باسم (شريمد بهاغوت بران)، وتذكر هذه الرواية أنهم اصطحبوا بعض الحيوانات في سفينتهم (باب ٢٤ ص ٨٦٠-٨٦٣).

فكل هذه الروايات ذات المصادر المختلفة متفقة في معظم الأمور حتى وإن هناك تشابهًا كبيرًا بين الأسماء الواردة فيها. فاسم البطل في الروايات الهندية هو (منو)، وفي التوراة (نوح)، وفي التلمود (مناحيم)، وكلها أسماء متشابهة جدًا. مع العلم أن (مناحيم) أصله (مناح)، لأنهم في العبرية يضيفون (يم) للتعظيم والاحترام. كذلك هناك تشابه في معاني الأسماء الواردة في الروايات البابلية والأمريكية، كما أشرنا إليه قبل قليل. كما أن سائر الروايات متفقة على وجود سفينة واحدة ونجاة بضعة أشخاص فقط. وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل دلالةً قطعية على حدوث كارثة عظيمة كان لها تأثير عالمي، ومن أجل ذلك شهدت عليه الشعوب من كل العالم وسجلته تواريخها.

وحيث إنه من المستحيل حدوث طوفان عالمي يغطي كل الكرة الأرضية فلذا يرى العلمانيون في العصر الحديث أن القصة لا تعدو أن تكون حكاية تمثيلية فقط، حيث قالوا بأن كل ما في الأمر أن بعض الأقدمين كانوا قد تحدثوا عن دوران الأجرام الفلكية بهذا الأسلوب التمثيلي، فانخدع الناس بهذا التمثيل، وحوّلوه إلى أسطورة (الموسوعة التوراتية، DELUGE).

ولكن هناك سؤالاً له ثِقله وأهميته: كيف يمكن أن يكتسب هذا التمثيل-كما يسمّونه- كل هذه الأهمية والشعبية، وأن يترك هذا التأثير العميق في قلوب سكان المعمورة، ولماذا حفظه الناس من كل أنحاء العالم بهذا الشكل دون غيره من القصص والأساطير؟

ثم إنّ هناك سؤالاً آخر يطرح نفسه: إذا كانت قصة نوح قصةً أسطورية فلا شك أنه لم ينسجها إلا أهل منطقة واحدة من العالم، فكيف نالت هذا الانتشار العالمي منذ القدم حتى سُجّلت في تواريخ الديانات كلها. مَنْ مِن العقلاء يسلّم بأنه يمكن لقصة منسوجة من خيال أهل بلد واحد، في زمن موغل في القدم، حيث كانت الاتصالات بين الشعوب محدودة للغاية.. أن تنال هذا الانتشار الواسع في مناطق نائية وبلغات مختلفة، وأن تكتسب لدى أهلها أهمية متساوية بحيث تصبح جزءًا من تاريخ الديانات كلها!

والحق أنه – نظرًا لما حازت هذه القصة من انتشار عالمي وتعظيم خطير بشكل متواتر متوالٍ على مر العصور – لا يسع المرء إلا أن يعترف بصحتها، وبأنها كانت ذات طابع عالمي وذات وقع غير عادي. وبعد التوصل إلى هذه النتيجة يسهل على المرء أن يدرك أن بيان القرآن عن الحادث يتفق مع هذه النتيجة في كل جزئياتها، كما لا يتعارض مع النواميس الطبيعية، إذ كل ما يقوله القرآن الكريم هو إن طوفانًا عظيمًا حدث في منطقة من العالم في قديم الزمان وأباد أهلها جميعًا؛ وأن الله تعالى تفضَّلَ على بطل الطوفان ببركات خاصة؛ وكتب لنسله غلبةً غير عادية بسبب صلاحه وتقواه؛ وأنه كانت هناك عندئذ أممٌ أخرى في العالم ولكنّ عذاب الطوفان لم يشملهم؛ وإنما لاقى هؤلاء مصيرهم في موعد كتبه الله عليهم؛ وأن الطوفان كان شديدًا وعارمًا لدرجة أن الناس لم يجدوا الملاذ إلا في السفن، إذ هطلت أمطار غزيرة من السماء، كما تفجرت العيون الأرضية بالمياه حتى ارتفعت من غزارتها إلى ذُرى الجبال.

وهذه أحداث واقعية لا مجال لأحد أن ينكرها. فإن القرآن الكريم والروايات

المختلفة من شتى البلدان متفقة على أنها كانت منطقة جبلية، بل ويخبرنا القرآن أنها كانت واديًا محاطًا بسلسة من الجبال. فمن الممكن تمامًا أن يكون مدخل الوادي ضيقًا لوجود جبال محاذية، وكما يحدث في معظم الوديان الجبلية فإن مدخله قد انسدّ بصخور أو قطع جليدية كبيرة انحدرت نتيجة زلزال عنيف، ومن ناحية أخرى تفجرت عيون الماء من تحت الأرض، فارتفع سطح المياه المتجمعة في الوادي حتى غطت قمم الجبال. وقد حدث حادث مماثل لذلك في جبال التبت سنة ١٩٢٨م عندما سقط نهر جليدي في أحد الوديان.

وبما أن الحادث قد وقع في مرحلة بدائية من الحضارة الإنسانية، وبما أن نوحًا عليه السلام كان أول إنسان في تلك المرحلة، إذ تصفه الأحاديث الشريفة بأنه كان أول الرسل (البخاري، الأنبياء).. وتؤكد التوراة أيضا ذلك.. فقد ثبت من كل هذا أن نوحًا كان مؤسس الحضارة الإنسانية. وإن الروايات الهندوسية أيضًا تصدق ذلك، لأنها تصف (منو) كأول إنسان، ولكنها تذكر أيضا نجاة سبعة آخرين معه من الطوفان. وإذا ما أخذنا هذين الأمرين بالاعتبار نصل إلى النتيجة بأن هذا الرسول كان أول إنسان في مرحلة الحياة الحضارية، وليس أول بَشر على الإطلاق.

وبعد اتفاق هذه البيانات الثلاثة الهامة من الأديان المختلفة في المناطق المتباينة فإنه لا يبقى هناك مجال للشك في أن نوحًا هو الذي أرسى أساس الحضارة والمَدنية. ذلك أنه عندما يحقق شعب من الشعوب ازدهارًا حضاريًا ومَدَنيًا فإنهم يتناسلون ويتكاثرون سريعًا، بينما تأخذ الشعوب المجاورة الخاضعة لهم في القلّة والانقراض بصورة تلقائية. وكلما استوطن شعب متحضّر أرض قومٍ أقلَّ منهم حضارةً أضعفوهم ومحوا آثارهم. فيبدو أن كل بلد انتشرت فيه ذريةُ نوحٍ وأتباعِه الذين كانوا بمثابة الحلقة الأولى في سلسلة الحضارة الإنسانية.. فإنهم قضوا على سكانه الأصليين نهائيًا، أو أضعفوهم إذ جعلوا هذه الأمم الضعيفة تنصهر فيهم، أو أنهم على الأقل كسروا شوكتهم، وهكذا استطاعوا أن ينشروا تقاليدهم وعاداتهم وأن يخلّدوا آثارهم في كل أنحاء العالم. هكذا

فإن قصة حادثة الطوفان التي كان لها وقع عميق في نفوس قوم نوح عليه السلام قد حققت بسبب استعمارهم الأرض انتشارًا عالميًا.

نعم، إنه ليس صحيحًا أن طوفان نوح قد شمل الدنيا كلها، كما أنه ليس صحيحًا أيضًا أن كل هذه القصص من البلدان المختلفة تشير إلى أكثر من طوفان، بل الحق أن الطوفان واحد، ولم يغطّ إلا منطقة واحدة من الأرض فقط. وبما أن نوحًا عليه السلام كان أولَ إنسان في مرحلة الحضارة الإنسانية الأولى وأن ذريته وذرية أتباعه قد انتشروا بعد الطوفان في بلدان شتى وتغلبوا على أهلها الأصليين بسبب تفوقهم الحضاري، لذا كانوا هم الخالدين الباقين، أو أن الأقوام المغلوبة اتبعت دينهم وتحضّرت بحضارتهم، وهكذا ذاعت قصة الطوفان في هذه البلدان أيضًا. وبعد مرور زمن طويل عندما لم يبقَ لهؤلاء المستوطنين الجدد من قوم نوح أيةُ علاقة بموطنهم الأصلي القديم، وصار الوطن الجديد هو وطنهم الحقيقي.. أدخلوا في حكاية الطوفان أسماء الأماكن والشخصيات المحلية المتعارف عليها في الوطن الجديد، وهكذا اكتسب الحادث الحقيقي الواحد للطوفان طابعَ أحداث عديدة.

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ ﴿٥١﴾

التفسير: يقول: إن الواقع يؤكد أنه لا إله إلا الله، وإن العقيدة الوثنية مجرد افتراء.. أي أنه ليس هناك أي برهان ولو ضعيف على صحة عقيدة الإشراك بالله تعالى، حتى يقال بأن المشركين قد أخطئوا الفهم، إنما الواقع أنهم يقلّدون آباءهم في عقائدهم تقليدًا أعمى.

يرى الباحثون الغربيون أنه لا أثر لوجود قوم باسم عاد أصلاً. ويقولون: إن ما عثرنا عليه من عبارات قديمة في الجزيرة العربية لا يشير إلى أي قوم قديم باسم عاد، بل كل ما نعرفه منها هو أن الشعب السومري هو أقدم الشعوب هناك، وكانوا أول الحاكمين للمنطقة. ثم تلاهم الشعب السامي الذين نبغ فيهم شخص يدعى حمورابي، وكان نبيًّا بُعث قبل الميلاد بألفي عام، وقبل موسى بست مائة عام، وكانت تعاليمه مشابهةً لما ورد في التوراة، حتى قال البعض منهم: إن تعاليم التوراة منقولة عن تعاليم حمورابي.

يجب أن يتوقف هنا أهل الكتاب ممن يرمون القرآن الكريم بتهمة سرقة التعاليم من صحف الأولين وقفةَ تأمل وتدبر!

ويرى الباحثون في الغرب أيضًا أن القرآن إنما ذكر قصة عادٍ بناءً على ما كان يتناقله العرب من قصص وأساطير لا أساس لها إذ لم يجد هؤلاء الباحثون الغربيون أية آثار لقوم باسم عاد.

ولكن هذا خطأ منهم، ذلك أن الأمم تُذكَر باسمين: باسمٍ شعبي واسمٍ قَبلي. فمثلاً "الآريون" اسم شعبي مشترك يطلق على الطوائف والقبائل الهندية التي منها قبيلة (غُبتا). فلو أنهم عثروا على آثار لقبيلة "غبتا" هذه، ثم قالوا بأننا لم نجد أي أثر للشعب الآري وإنما وجدنا آثار قوم آخرين فلا شك أن قولهم هذا يعتبر غباءً منهم. كذلك أرى أن (عاد) اسم شعبي أُطلق على عدة قبائل، وكل قبيلة منها كتبت اسمها على اللوحات والنقوش إبّان غلبتها وحكمها، ولكن كل واحدة منها كانت تنتمي لقوم عاد.

يخبرنا القرآن الكريم أن عادًا جاءوا قبل ثمود، وإننا وإن كنا لا نجد فيه أي اسم مشترك للأمم السابقة لثمود، إلا أننا نستطيع القول -قياسًا على ما أسلفتُ- بأن اسمها المشترك هو عاد. والتواريخ القديمة تذكر كلمة (عاد). فمثلاً ورد في التواريخ اليونانية القديمة اسم قبيلة عاد حيث تقول: كانت هناك قبل الميلاد قبيلة حاكمة على

اليمن اسمها Adramitai . (أرض القرآن جـــ ١ ص١٨٣).

و"عاد" هذه مذكورة في القرآن الكريم باسم "عاد إرم" حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر: ٧-٩). وحيث إن الجزء الأخير من الكلمة وهو (itai) تأتي في اليونانية للدلالة على كون الكلمة اسمًا، لذلك فالاسم الحقيقي لهذه القبيلة هو (Adram) التي أصلها (عاد إرم) كما جاء في القرآن الكريم.

ويرى بعض الكتّاب الأوروبيين أن المراد من الكلمة (Adramitai) منطقة حضرموت (العرب قبل الإسلام جـــ ١ ص٦٢).

ولكن هذا غير صحيح، لأن حضرموت اسم لمنطقة وليس لقبيلة، ولأن حضرموت مذكورة على حدة، وبصورة صريحة، في كل المصادر اليونانية واللاتينية، ولكنهم لم يطلقوا عليها في أي مكان اسم (Adramitai)، وإنما سمّوها (Adramotitai) باليونانية، و(Chatramotitai) باللاتينية. إذن فلا يصحّ أبدًا أن نأخذ (Adramitai) بمعنى حضرموت، ظنًا أن علماء التاريخ والجغرافية لم يطلقوا عليها اسمها الشهير القديم، وإنما اخترعوا لها اسمًا جديدًا في تلك المناسبة خاصةً!

وهناك دليل أكبر من ذلك على خطأ هذا الزعم، فإن نفس هذا المصدر الذي وردت فيه كلمة (Adramitai) قد ذَكَرَ تاريخ حضرموت ذكرًا منفصلاً، مما يعني أن مؤلفه أيضًا يرى أن الاسمين هما لمسمّيين مختلفين (العرب قبل الإسلام جـــ١ ص٦٢).

لقد ذكر القرآن الكريم تاريخ (عاد) كالآتي:

١. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر: ٧ - ٩). أي أننا نخص بالذكر هنا إرمَ من بين قبائل عاد الذين كانوا يبنون مباني فخمة شامخة، وكانوا من القوة والمنعة بحيث لم تؤتَ مثلَها بعدهم أيةُ قبيلةٍ عربية أخرى. والثابت تاريخيًا بما لا يدع مجالاً للشك بأنه

كانت لقوم عاد حكومة قوية استمرت حتى إلى ما قبل الميلاد بخمسة قرون. (أرض القرآن جـــ ١ ص١٢٥).

وقد برهن علماء الألسنة على وجود لغة باسم (الآرامية) التي كانت كلماتها مشابهة جدًا للغة العبرانية، وأنها كانت لغة شعب (إرم)، وكانت لهم حكومة عظيمة بعد حكم الساميين. لقد نشروا سلطانهم على العراق وفلسطين والشام والمنطقة الكلدانية، بل يرى بعضهم أن عادًا قد بسطوا سلطانهم على مناطق أبعد من ذلك أيضًا. (الموسوعة البريطانية، تحت Semetic Languages). فثبت من الآية المذكورة آنفا أن القرآن الكريم إنما يتحدث هنا عن قبيلة (إرم) من شعب عاد، وقد أسلفت أن الأثريين قد عثروا على قبيلة باسم (إرم).

٢. قال الله لهم ﴿وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف: ٧٠). وهذا يبين أن زمنهم كان ما بعد قوم نوح مباشرة. مما يدلّ على أن الشعوب السامية المذكورة في التاريخ، التي كانت حاكمة قبل (إرم)، أيضًا كانت جزءًا من عاد.

٣. قال الله لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٩).. أي أنكم تبنون في كل مكان عالٍ بنايات وتماثيل. وهذه علامة أخرى لقوم عاد، إذ كانوا متعودين على بناء العمارات التذكارية في الأماكن المرتفعة. وبالفعل فإنها لا تزال هناك في الجزيرة العربية بنايات فخمة منذ أزمنة سحيقة (أرض القرآن ج١ ص٩٣). بل لقد شاهدتُ بنفسي في اليمن أثناء سفري إلى أوروبا مع بعض رفاقي بعضًا من هذه المباني الشاهقة فوق تلال مرتفعة على بعد عدة أميال من عدن. وكانت بها بِرك وأحواض.

٤. وقال الله تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ (الأحقاف: ٢٦). يتبين من ذلك أن معظم تاريخ هذه الأمة قد طواهُ الدهر، إلا بعضًا من آثار المباني الفخمة.

٥. وقال الله تعالى مشيرًا إلى موقع وطنهم ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ (الأحقاف: ٢٢). والأحقاف هي تلال رملية طويلة (المفردات)، وتُطلق في مصطلح العرب على منطقتين ذواتي ماءٍ وخضرة مجاورتين للصحراء، وعند هبوب الرياح الرملية تتكون فيها تلال رملية. تقع إحداهما في جنوب شبه الجزيرة وتسمّى الأحقاف الجنوبية، وتبدأ من اليمن ما بين صنعاء وعدن، وتمتد إلى الشرق فالشمال. وثانيتهما الأحقاف الشمالية، وتبدأ من بُصرى وتمتد إلى الجنوب حتى برية العراق.

ومن المحتمل أن تكون المنطقة قبل العذاب خالية من التلال الرملية، ولكن رياح العذاب حملت من الصحراء الرمال التي غطت أهل المنطقة وتاريخها. ومن الممكن تمامًا أنه لو أُزيلت الرمال لظهرت من تحتها آثار تلقي على تاريخهم مزيدًا من الضوء.

٦. لقد أخبر الله تعالى عن هلاك عاد بقوله ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقّة: ٧ و٨). يتضح من ذلك أن ريحًا عاصفةً هبّت على عاد لثمانية أيام متتالية، فاختفت تحتها كبرياتُ مدنهم وانكسرت شوكتهم، وبدأ انحطاطهم. كما تعطي الآية انطباعًا بأن آثارهم لا تزال باقية محفوظة تحت غطاء الرمال، حيث قالت: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ كما تبين أن المنطقة سُمّيت بالأحقاف بعد تعرضها لهذا العذاب.

يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

فَطَر: فطَرَ الشيء يفطُرُ فَطرًا: شقَّه. فطَر العجينَ: اختَبَزَه من ساعته و لم يخمّره. فطرَ الأمرَ: اخترعَه وابتدعه وأنشَأه. وفطر الصائم فَطرًا فِطرًا وفُطورًا: أكل وشرب؛ وقيل ابتدأ الأكلَ (الأقرب).

التفسير: لقد عبّر هود عليه السلام في الجزء الأول من الآية عن غنى نفسه وبُعده عن اتّباع الشهوات، وأما في الجزء الآخر منها فقد أعرب عن تواضعه واحتياجه إلى فضل الله جلّ شأنه. وهذا هو المقام الذي يتبوأه أهل الله تعالى. فإنهم يستغنون عن الدنيا استغناء كاملاً، ومن ناحية أخرى يخرّون على عتبة الله متواضعين خاشعين بحيث لا أحد يبدو أكثر منهم فقرًا وضعفًا.

وبقوله ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أكّد على خالص توكّله على الله، فلم يكن في شك من أجره عند الله، بل كان على يقين بأنه تعالى سيجزيه على تضحيته أحسن جزاء.

كما توضح الآية أن سؤال الناس وطلب العون منهم يتنافى مع عزة النفس والمروءة دون ريب، ولكن التوسّل إلى الله عز وجل لا يقدح في عزة نفس المرء أبدًا، إذ إنه لا حرج من أن يمد المخلوق يد السؤال إلى خالقه. وقد أزال بذلك سوء فهم قد يتولد في قلب البعض إذ يظنون أن سؤال العبد ربّه أيضًا غير لائق.

وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

مدرارًا: اسم المبالغة من دَرَّ الشيءُ يدرّ درًّا ودرورًا: كثرُ. درّ العَرَق وكذا السماء بالمطر: سال. وسماء مِدرارٌ: تَدِرُّ بالمطر. وعين مِدرار: وتدرّ بالدمع. ودِيمة مدرار: غزيرة السيَلان. وفي القرآن: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، والسماء هي بمعنى المطر مجازًا (الأقرب).

التفسير: يبدو من الآية أن هؤلاء القوم كانوا يعيشون على الزراعة، وما كانت أراضيهم تُسقى بالقنوات أو الآبار وإنما بالمطر.

كما تنبه الآية على أن الأمة المنهارة إذا صدّقت نبيها فإنها لا تنهض نهوضًا روحانيًا فقط، بل إنها تحقق رقيًا ماديًا أيضًا وتنال حياة جديدة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾.

قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾

شرح الكلمات:

عن: حرف جرٍّ وله تسعة معانٍ، الرابع منها: التعليل، كقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لابيهِ إلا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ (الأقرب).

التفسير: الشرير يأخذ كلمة الخير أيضًا مأخذ الشرّ. فقد استنتجوا مما قدّم لهم هود من نصح وخير بأنه يريد الحكم عليهم، فردّوا عليه بقولهم: لا يمكن أبدًا أن نتخلى عن آلهتنا لما تقول وننقاد لأمرك.

ويتعجب المرء من تجاسرهم المشين هذا، فإنهم -رغم إتيانهم عملاً شنيعًا كالشرك

الذي لا يستند إلى دليل ولا برهان- يطالبون هودًا بأن يأتي بالبرهان على دعواه، مع أنهم كانوا هم أصحاب الدعوى وليس هو، لأن الشرك بالله هو الأمر الجديد الغريب وعليهم تقديم الدليل عليه. فجسارتهم محيِّرة فعلاً، حيث يقولون لمن يفنّد دعواهم بالدليل من قبل: لماذا لا تقدم لنا برهانًا على ما تقول، وكأنهم ملتزمون دائمًا بالبراهين ولا يقولون شيئًا ولا يقبلون أمرًا إلا بالدليل والبرهان!

وما أشدَّ إهانتَـهم واحتقارَهم لرسولهم إذ يقولون له ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾. إنها كلمة صغيرة، ولكنها مليئة جدًا بمرارة الازدراء والاستخفاف، حيث يقولون: من أنت وما قيمتك حتى نترك آلهتنا من أجلك؟

إِن نَّقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

اعتراكَ: اعتراه اعتراءً: غَشِيَه طالبًا معروفَه، واعترى فلانًا أمرٌ: أصابه (الأقرب).

التفسير: أي بما أنك لا تؤمن بآلهتنا فإنها قد انتقمت منك وأفسدت عقلك.

ولكن ما أروع ما يرد به هود عليه السلام عليهم إذ يقول: إذا كنتم تزعمون أن أحدًا من آلهتكم سخط عليّ لإساءتي إليهم وصبّ عليّ غضبه بإفساد عقلي، فها إني أقولها علنًا بأنني أعادي آلهتكم جميعًا، وأكرههم كراهة شديدةً، وأتبرأ منها تمامًا، فإن كانوا يملكون في الحقيقة شيئًا مما تعزونه إليهم من قدرات وصفات فلينتقموا مني وليفعلوا بي

ما يشاءون.

ويعني بقوله ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ...﴾ أنكم لم تنتفعوا مما قدّمت لكم من براهين عقلية، والآن أقدم لكم شهادة عملية من الله على صدقي، متضرعًا إليه ﷻ أن يُنزل الآن آياته التي تفصل بين الحق والباطل.

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

ناصيتها: الناصية: قُصاص الشَعر أي حيث تنتهي نبْتَــتُه من مقدمه أو مؤخره؛ وقيل: الناصية مقدمُ الرأس؛ وقالوا: الطرّة هي الناصية، والجمع ناصيات ونواصٍ. وأذل فلان ناصية فلانٍ: أي عزَّه وشرفه. نواصي الناس: أشرافهم والمتقدمون منهم، وهذا كما وُصفوا بالذوائب، يقال: فلان ذؤابةُ قومه وناصية عشيرته (الأقرب).

التفسير: كان من عادات العرب أن الملك إذا انتصر على العدو عُرض عليه الأسرى فكان يأخذهم من نواصيهم يهزها تعبيرًا عن غلبته عليهم. وكان من عاداتهم أيضًا أنهم إذا أرادوا العفو عن العدو جزّوا ناصيته وأطلقوا سراحه.

فالمراد من قوله تعالى ﴿ما مِن دَآبَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾: أولاً: أن كل واحد منكم خاضع لسلطان الله وغلبته، وثانيًا: أن الله تعالى قد جزّ ناصية كل واحد منكم وتركه حرًّا رحمةً بكم. وهكذا نبّه الناس أنهم خاضعون لقدرته وسلطانه دائمًا، وأنهم يعيشون بمحض رحمته وعفوه، وإلا ما كانوا يستحقون العيش بالنظر إلى أعمالهم.

وأشار بقوله ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ إلى أن سيدي هو سيدكم أيضًا، فكيف أخافكم ما

دمتم عبيدًا لسيدي، لأن من يتخذه السيد صديقًا له لا يستطيع عبيده أن يَضُرُّوه بشيء.

وبيّن بقوله ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أمرين؛ أولهما: أن من يسير على طريق سويّ هو الذي يصل إلى ربه، بينما يتخبط المشرك هنا وهناك، فَأَنَّى له الوصال بالله تعالى. وثانيهما: أنكم تريدون إبادتي، وذلك بدليل قوله تعالى ﴿ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾، ولكن ربي قادم لنجدتي على صراط مستقيم.. أي على أقرب طريق، حيث إن الطريق المستقيم يكون أقرب الطرق وأسرعها.

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

إنْ تولّوا: أصله: تتولوا. أي إن تعرضوا.

التفسير: يظن الجهال أنهم إذا رفضوا دعوة النبي ألحقوا به ضررًا، مع أن الواقع أن النبي رسول، والرسول لا يتضرر أبدًا، وإنما يتضرر المرسِل أو المرسَل إليه. وهذا ما يعلنه هود عليه السلام هنا بأنني لست إلا رسولاً، ولا خوف عليّ أبدًا، اللّهم إلا أن أقصّر في تأدية واجبي أي أداء الرسالة التي أحملها من الله تعالى لكم. فما دمت قد بلّغتكم رسالته فأنا في مأمن من أي ضرر. وأما الذي أرسلني بها إليكم فليس به أي حاجة إليكم حتى يتضرر بالرفض من جانبكم. إنما الرسالة لصالحكم أنتم، فإذا رفضتموها، فسوف تؤمن بها أمة أخرى لا محالة، وتنتفع بها وتحقق الازدهار والغلبة، ولن تضيع رسالة الله في أي حال، لأنه إذا أراد شيئًا نفّذه وحفظه. فما دام قد أراد الآن هذا

الأمر وأنزل تعاليمه بواسطتي فإنه سوف ينفّذها ويحفظها حتمًا.

كما أشار بقوله ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أنه لن يدع أعمالكم دون حساب ومؤاخذة، بل هي مسجلة محفوظة لديه، ولا جرم أنه سوف يحاسبكم عليها.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٩﴾

التفسير: إنه من سنة الله العامة أنه إذا أنزل وباءً أو أذىً عاديًّا عانى منه الجميع، سواء منهم الصالح أو الطالح دون أي تمييز، ولكنه تعالى عندما يبعث نبيًا فإنه يعامل الناس عندئذ وفق سنة خاصة. فحينما يترل الله جلّ شأنه أنواع العذاب إقامةً للحجة على المُسرفين، تثور رحمته بالمؤمنين بشكل غير عادي، فينجيهم من العذاب في معظم الأحيان نجاة كاملة أو جزئية، رغم عيشهم بين الكفار في بلد واحد. وإلى هذه السنة الخاصة أشار بقوله (رحمةً منا).. أي أننا أنجيناهم بفضل خاص وفق سنتنا الخاصة، لا بحسب سنتنا العامة.

وقوله تعالى ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني أنه كان عذابًا مؤلمًا شديدًا للغاية لا يستطيع أحد الفرار منه.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

جحدوا: جحد حقه وبحقه يجحد جحودًا: أنكره مع علمه به. جحده: كفر به وكذّبه (الأقرب).

جبّار: الجبار من صفات الله تعالى -أي الذي يجبر ويصلح- كلُّ عاتٍ متمرد (الأقرب).

عنيد: العنيد: المخالفُ للحق الذي يردّه وهو يعرفه، جمعه عُنُدٌ. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿تِلْكَ عَادٌ﴾ إشارة إلى خطورة شأنهم أي تلك هي أحوال عادٍ الأمةِ العظيمة القوية، ولكنهم استكبروا ومالوا إلى الشر وكفروا بالحق تعنتًا وعنادًا، ولم ينتصحوا لمن أتاهم برسالة خير وصلاح لهم، وإنما اتبعوا أصحاب النفوذ والمنعة من بينهم ممن كانوا يلجئون إلى الإكراه والعنف مثيرين الفتنة والفساد في البلاد مدّعين -مع ذلك- بأنهم حملة لواء الحرية في الرأي والعقيدة.

وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

بُعدًا: البعد ضدُّ القرب؛ اللعنُ (الأقرب).

التفسير: اللعنة إذا كانت من العباد فمعناها قول بعضهم لبعض: عليك اللعنة أي الهلاك، وإذا كانت من الله فتعني الإبعاد. فالمراد من قوله تعالى ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أنهم كانوا بعيدين عن الله وهم في الدنيا، وهكذا سيكونون يوم القيامة أيضًا إذ سيُحرمون من رؤية الله وقربه جلّ شأنه.

أما قوله تعالى ﴿أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ فهي كلمة حكمة رائعة للغاية. فإن (ألا) أداة تنبيه، و(الرب) معناه: الذي يخلق الشيء ولا يزال يطوّره ليأخذه إلى درجة الكمال، إذن فالمراد من الجملة: انظروا ما أقبَحَ ما فعلته عاد، حيث رفضوا قول من ربّاهم، مع أن الشريف يطيع من يُحسِن إليه. ولكن المؤسف أن هؤلاء القوم قد عَقُّوا مَن أخذهم إلى هذه الدرجة السامية، وهكذا فإنهم لم ينكروا الجميل فحسب بل ارتكبوا حماقة كبرى، لأن الذي كان قد رفعهم لقادرٌ تمامًا على أن يضعهم ويحطهم إلى أسفل السافلين. وهذا ما حدث بهم بالضبط، فهلكوا وبادوا عقابًا على معارضتهم لنبيهم هود عليه السلام.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

استعْمَرَ: استعمره في المكان: جعله يعمره. واستعمر الله عبادَه في الأرض: طلب منهم العمارَة فيها. (الأقرب).

التفسير: إن كلمة "صالح" العربية تدل دلالةً واضحةً على أن قومه ثمود كانوا أمة عربية. وبما أن القرآن يصرّح أن ثمود خلفوا عادًا إذ قال لهم: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ (الأعراف:٧٥) فثبت أن عادًا أيضًا كانت أمة عربية.

وقد يقول أحد هنا بأن كلمة "صالح" قد تكون معربة من لغة أخرى. ولكن هذا الزعم ليس بسليم، لأن كل ما ورد في القرآن من أسماء أجنبية قد ذكرها كما هي

دون تعريبها كموسى وهارون ويونس وزكريا وغيرها. فلا شك إذن في أن "صالح" كلمة عربية، وأن عادًا وثمود أيضا أمتان عربيتان. وبما أن عادًا سُمّوا خلفاء لقوم نوح (الأعراف: ٧٠). فثبت أن نوحًا -عليه السلام- أيضًا كان مبعوثًا في منطقة عربية، وكان من العرب. والتاريخ يؤكد أن مسكنه كان العراق، وأن العرب كانوا حاكمين على هذه المنطقة في القديم.

والذي أقصده من ذكر هذه الأمور بالتفصيل هو أن أدلّل على أن العربية كانت لغة الناس كافةً في البداية، لأنه إذا تأكّد لنا أن بداية النسل الإنساني كانت من شبه الجزيرة العربية فلا بد من الاعتراف أن العربية هي أم الألسنة. إن بحوث العلماء الغربيين أيضًا تؤكد أنه كانت في البداية لغة تسمى السامريّة ومنها اشتقت العربية، ثم بسبب التغييرات والتعديلات تشعبت منها لغات أخرى. كما أنهم يعترفون في بحوثهم بأن اللغة السامرية هذه كانت لغة أهل الجنوب من شبه الجزيرة (العرب قبل الإسلام ص٣٣). ولكن الواقع أن كل ما ينطق به أهل الجزيرة والعراق من لغات إن هي إلا فروع للعربية.

وقوله تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ...﴾ لا يعني أنه تعالى خلق قوم صالح من الأرض، لأن خلق الإنسان منها إنما كان فقط لدى خلق أول آدميّ، أما بعد ذلك فأصبح خلق الناس يتم عن طريق التناسل والتوالد. وإنما المراد من الآية أنكم كنتم أمة أرضية أي منحطة متردية وحقيرة في أعين الناس، فنهض بكم الله من الحضيض، وحقق لكم الغلبة والحكم على الآخرين، وفوّضَ إليكم مهمة نشر الأخلاق النبيلة والآداب الفاضلة. فيجب أن تسألوا الله الغفران على تقصيراتكم لدى أداء هذا الواجب، لأنه مسؤولية خطيرة عظيمة، فإذا فعلتم ذلك زادكم فضلاً ورحمةً.

وأشار بقوله ﴿ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ إلى كلمة حكمة عظيمة، وهي أن كل شيء راجع إلى أصله، وأن على الإنسان أن يتذكر دائمًا أنه ضعيف الخلق حقير الشأن أساسًا، وأن رقيه إنما يتوقف على فضل الله تعالى، فعليه أن يرجع إلى الله ويتوب دومًا، ليتزل

عليه فضله ورحمته مجددًا، أما إذا قطع صلته عن خالقه وربّه زَلّت قدمه بعد ثبوتها، وتردَّى إلى حالته البدائية من الضعف والهوان والحقارة.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.. لقد بيّن بكلمة ﴿قَرِيبٌ﴾ أنكم إذا رفضتم رسالته فإنه قادر على عقابكم فورًا، لأن جنوده قريبة سريعة لا تتأخر. ثم أردفه بقوله ﴿مُّجِيبٌ﴾ دفعًا لظن البعض بأنه تعالى وإن كان قريبًا إلا أنه قد لا يتدخل في شئون العباد، فقال: إنه لا ينسى عباده، بل إذا ما دعاه أحد لبَّى نداءه وجاء لنجدته فورًا.

قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

مُريب: أرابه يُريبه إرابةً: شكّكه وجعل فيه ريبةً. أرابه منه أمرٌ: أساء به الظن ولم يستيقن. أرابك فلان: بلغَك عنه شيء أو توهّمته. أراب زيدًا: أقلقه وأزعجه، قال المتنبي: ما أرابك من يُريب (الأقرب).

التفسير: يشكو قوم صالح منه قائلين: لقد كنّا نعقد عليك آمالاً جسامًا لما حباك الله به من فطنة وذكاء وقدرات وكفاءات. فكنا نتوقع أن تكون مصدر قوة ونفع لقومك، ولكنك بدأت تعمل على هلاكهم. ولم يدرك هؤلاء أن آمالهم في صالح كانت قد تحققت فعلاً، حيث أصبح مصدر خير وبركة لقومه، ولكن لم يتحقق ما كان مرجوًّا في أنفسهم هم حيث حُرموا من المساهمة في الحملة الإصلاحية التي بدأها صالح لخير قومه.

ما أضعَفَ هذا الكائنَ الذي يسمّى إنسانًا، يظلّ عائشًا على الأمل زمنًا طويلاً، وما أن يحين موعدُ تحقّق آماله التي ظلّ ينشدها سنين عديدة، بل لعل قومه من قبل قد

عاشوا عليها قرونًا طويلة، حتى يقوم فجأة معرضًا عنها منصرفًا عن هذا المَعين المتفجر حوله كي يرتوي منه قوم آخرون.

آه، ما أشبهَ الليلة بالبارحة! لقد كان المسلمون ينتظرون منذ قرون رجلاً موعودا لهم من السماء، فلما جاءهم بالحق أعرضوا عن ندائه و لم يغيِّروا ما بأنفسهم، بينما أخذت تؤمن به أقوام أخرى وتنتفع ببركاته.

وقولهم ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.. أي أتمنعنا من أن نعبد كما عبد آباؤنا. والمراد أننا كنا نتوقع منك أن ترفع اسم الآباء ولكنك بدأت تضع الفأس على جذورنا حيث تحارب عقائد الآباء وطرق عبادتهم.

القاعدة أن الإنسان إذا مرض أصبح فمه مريضًا أيضًا، فيجد الماء الزلال مرًّا. وهذا ما حدث بهم، فلما كانت قلوبهم فاسقة قالوا عن التعليم الذي أنزله الله لدفع الشكوك بأنه يملأ قلوبنا بأنواع الشكوك والشبهات.

إن قولهم لصالح بأنك كنت مَحطَّ آمالنا لم يكن عن إغراءٍ له أو أسفٍ عليه، بل هكذا جرت سنة الله مع أنبيائه عليهم السلام. فكل من بعثه الله تعالى نبيًا، يكون قد ترك وقعًا عظيمًا في قلوب القوم قبل دعواه بما أوتي من كفاءات بارزة وقدرات مميزة. وهذا أمر ضروري أيضًا، لأنه عند بداية دعواه لا يكون شيء من الأنباء والوعود قد تحقق له بعد، كما لا تكون تعاليمه وشرائعه قد نزلت بشكل كامل، فلا يكون في يده عندئذ من دليل على صدقه إلا حياته السابقة لدعواه. وهذا هو البرهان الوحيد الذي أقنع السيدة خديجة وأبا بكر وعليّا وزيدًا -رضي الله عنهم- بصدق النبي ﷺ، فإنهم لم يؤمنوا به برؤية معجزة أو آية أو تعليم مفصّل، وإنما صدّقوه بمجرد إعلانه عن دعواه، بناءً على ما رأوه من حياته الطاهرة. (السيرة النبوية لابن هشام).

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

ينصر: نصر فلانًا من عدوّه: نجّاه منه وخلّصه وأعانه وقوّاه عليه. (الأقرب).

تخسير: خسَّرَه: جعَله يخسر؛ نَسَبَه إلى الخسران؛ أضلّه؛ أهلكه (الأقرب).

التفسير: يقول صالح عليه السلام لقومه: تقولون لي بأن تعاليمك تثير في قلوبنا شتى الوساوس والشبهات، وأنك لو لم تدعُنا إليها لاخترناك سيّدًا علينا! فهلاّ أخبرتموني أنني لو كنت في الحقيقة من عند الله تعالى فماذا سأجني من زعامتكم بترك رسالته جل جلاله. أفلا تزيدني صداقتكم وبالاً وسيادتكم خسرانًا!

وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٥﴾

شرح الكلمات:

ذَرُوها: ذَرْه أي دَعْه، يقال: ذَرْه واحذَرْه (الأقرب).

التفسير: كانت ولا تزال ناقة صالح عليه السلام مرتعًا يجول فيه خيال الناس. وقد جمع حولها المفسرون من الأساطير والخرافات أصنافًا وألوانًا حتى قال بعضهم بأن الكفار عندما طالبوه بآية صدقه خلق على الفور ناقة من بطن الجبل، وكانت حاملاً، فولدت فور خروجها من الجبل (ابن كثير). لقد جمعوا في تفاسيرهم ما سمعوه من خرافات دون أن ينتبهوا إلى تأثيرها الخطير في قلوب السذّج من الناس.

الحقيقة أن القرآن الكريم لا يقول بخلق الناقة هكذا كمعجزة، بل يصرّح ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ مَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۞ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء:١٥٤-١٥٧). والمراد من قولهم ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من المخدوعين. والمراد من قوله ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أن لها الحق في ورود الماء في يومها المحدد، كما لكم الحق أن تستقوا في يومكم المحدد أيضًا.

تبيّن هذه الآيات أن الناقة لم تُخلق كمعجزة، وإنما هي حُرمتها التي جُعلت معجزةً، حيث أنذر صالح بالعذاب كلّ مَن يتعرض لها بالسوء. لو كان خلقها آيةً – كما يزعمون– لقال: لقد سبق أن خلقت الناقة من الجبل كمعجزةٍ استجابة لمطلبكم، ولكنه ينذر بالعذاب من يهدد حريتها في الشرب.

أما السؤال: كيف صارت الناقة آيةً، فالجواب الأول عليه هو ما كان يذكره أستاذي المعظم المولوي نور الدين ﷺ حيث قال: كان من عادة ملوك العرب وغيرهم أن يطلقوا بعض الماشية هكذا حرةً تأكل وترتع في حرث الناس حيث تشاء، وذلك كعلامة على قوتهم وسلطانهم، معلنين بين القوم أن من تعرض لها بسوء أهلكناه. ووفق هذه العادة الشائعة سرّح صالح عليه السلام ناقته بأمر من عند الله تعالى، جاعلاً حريتها علامةً على سلطته السماوية، معلنًا لهم أن لا يمسّوها بسوء، وإلا فسيكون هذا بمثابة خروجهم على حكومة السماء، وسوف يحل بهم العذاب.

ولو قال قائل: إنه لا يليق بنبي من أنبياء الله أن يفعل كما يفعل ملوك الدنيا الطغاة، فيطلق فحلاً يأكل في حرث القوم ويفسده، ثم يهدّد هو بالويل والدمار لمن يمنعه من فساد زرعه! فجوابه هو أنه لا شك في أن هذا لا يليق بالنبي، ولكن صالحًا لم يكن يقلّد هؤلاء الطغاة إذ لم يقل بأن ناقتي سوف ترعى في أي أرض وفي أي حرث، بل قال: ﴿فذَروها تأكلْ في أرض الله﴾.. أي سترعى في الأرض التي لا يملكها أحد، لأن ﴿أرض الله﴾ هي ما لا يكدح أحد في زراعتها، وإنما هي خالية من الزرع، تنبت

العشب والكلأ بما يترل عليها من ماء السماء.

أما أنا فأرى شخصيًا أن صالحًا عليه السلام قد أراد بقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ﴾ أن ذروني أتحرك عليها بحرية في أسفاري التبليغية ولا تمنعوني من أن أنتقل عليها من مكان إلى آخر لأداء واجباتي الدينية. ومثل هذا المجاز كثير في جميع اللغات حيث يراد بمنع المركب منعَ الراكب، لأنهم إذا أرادوا إيقاف راكب أوقفوا مطيته. فيبدو أن القوم كانوا يحولون دون رحلاته التبليغية ولا يدَعونه يتحرك بحرية هنا وهناك، فنهاهم الله عن ذلك قائلاً: دعوا ناقته تذهب به حيث يشاء لتبليغ رسالة ربه. ولكنهم قتلوا الناقة، أو بتعبير آخر، أخبروه عمليًا أنهم لن يسمحوا له بالتبليغ في بلدهم بهذه الحرية. فأخذهم العذاب الذي دمّرهم تدميرًا.

وقد يكون للآية مفهوم آخر، وهو أن صالحًا عليه السلام كان قد أدرك أن احتكاكه بالقوم يؤدّي إلى المزيد من الفتنة والفساد فأراد أن يتحاشى الاصطدام بهم. وبما أن العيون والمراعي هي ملتقى القوم عمومًا، امتنع -بأمر من الله- عن أخذ ماشيته إلى المراعي العامة، وصار يرعاها في أرض نائية لا يملكها أحد. كما توقف عن إيراد ناقته الماء في الموعد المعتاد عمومًا، بل اتخذ لذلك موعدًا آخر حيث لا يكون فيه الرعاة الآخرون. ثم أعلن للقوم: ها قد اتخذت أنا وأتباعي كل تدبير ممكن لتفادي الفتنة، متكبدين المشقة والعناء، إذ تركنا المواعيد والمراعي التي قد تؤدي إلى الاحتكاك والاصطدام بكم. فإذا أثرتُم الفتنة والفساد بعد ذلك فسيكون معناه أنكم لا تريدون أن نعيش ونحيا، وعندئذ سوف يحل بكم العذاب من عند الله تعالى.

وهذا المعنى يتأكد بالأحداث التاريخية أيضًا حيث تذكر التواريخ القديمة واديًا باسم "فج الناقة" (العرب قبل الإسلام ص٦٤). كما ورد هذا الاسم في كتاب الجغرافيا لبطليموس الذي كان قبل الميلاد بمائة وخمسين سنة. والمؤرخون اليونان القدامى يطلقون عليها (Badanata)، وهو تحريف لـ"فج الناقة" (أرض القرآن جـ١، ص١٩٦). إذن فوجود وادٍ قديم بهذا الاسم يعطي انطباعًا أن صالحًا عليه السلام

كان قد اتخذ لناقته مرعى منفصلاً بعيدًا عن قومه حتى لا تحتك ناقته بالمواشي الأخرى، ولا يشتبك راعيها بغيره من الرعاة، ولا تحصل فتنة ولا فساد، ولكن معارضيه لم يرضوا بذلك أيضًا، بل وصلوا هناك وقتلوها، فأخذهم العذاب لهتكهم حرمة قرار السماء.

ولا يعجبنّ أحدٌ ويقول: كيف يجوز إبادة أمة بأسرها على قتل ناقة واحدة؟! ذلك أن قتلهم الناقة كان بمثابة تمرّدهم على الله تعالى وأنهم لن يدَعوا رسوله صالحًا براحة في أي مكان، وسوف يمنعونه من تبليغ رسالات الله بالقضاء على كل وسيلة يتخذها للقيام بمهامه التبليغية. وهذا كان دليلاً على عدائهم وتمردهم الشديدين، ولا يمكن أن تنجو من العقاب أمة كانت قد أصبحت مجرمةً في حق الله تعالى بعد أن أنكرت رسالته.

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٧﴾

التفسير: لا شك أن العذاب في حد ذاته يسبب الخزي وأيَّ خزي، ولكنه تعالى قد بيّن بزيادة كلمة ﴿مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أن عذابهم كان يحتوي على عناصر الخزي والذل بشكل خاص.

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

الصيحة: العذابُ؛ الغارةُ إذا فوجئ الحيّ بها. (الأقرب).

جاثمين: جثمَ يجثمُ ويجثِمُ جُثومًا: تلبَّد بالأرض (الأقرب).

التفسير: لقد وصفَ عذابهم هنا بالصيحة، وفي سورة الأعراف سمّاه رجفةً أي زلزالاً، وفي سورة الشعراء أطلق عليه العذاب فقط، وقال في سورة النمل ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وجاء وصفه في سورة الذاريات صاعقة، أي البرق المدمر، وفي سورة الجاثية سُمّى عذابهم طاغيةً.. أي المتجاوز للحدود، وأما في سورة القمر فقال: الصيحة، وفي سورة الشمس قال: فدمدَمَ عليهم. ولأول نظرة نجد في هذه الأوصاف اختلافًا، ولكن الواقع ليس هكذا، لأن الصيحة والصاعقة والطاغية تعني العذاب أيضًا، فإذا كان القوم قد دُمّروا بالزلزال فكل هذه الأوصاف ملائمة وصحيحة تمامًا.

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

لم يغنوا: غَنِيَ يغنى فلان: عاش (الأقرب).

التفسير: لم يقل هنا مثلاً (ألا بُعدًا لثمود قوم صالح) كما قال في الآية (٦١): ﴿أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾. ولا يظنّنّ أحد أن تلك الزيادة في الآية ٦١ كانت بهدف القافية، لأن القافية كانت ستختل لذلك لم يقل هنا (قوم صالح). كلا، إن القرآن

الكريم لا يزيد الكلمات أو ينقصها من أجل السجع والقوافي، بل يرجع هذا الفرق بين الآيتين إلى حقيقة تاريخية. ذلك أن (عاد) اسم لأُمّتين: عاد الأولى وعاد الثانية. فلو اكتفى القرآن بقوله (﴿أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دون زيادة ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ لاشتبه ما يقصده القرآن هناك، ولم يدرك القارئ هل يقصد عادًا الأولى أم الثانية أم الاثنتين. فبزيادة كلمة ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ وضّح أنه يقصد عادًا الأولى فقط. أما ثمود فهو اسم يطلق على أمة واحدة هي قوم صالح، فما كان هناك احتمال لاشتباه المراد، فلم يقل بعده (قوم صالح).

لقد ورد ذكر ثمود في التواريخ اليونانية أيضًا التي تحدد زمنهم قريبًا من زمن المسيح عليه السلام، وقالت بأن موطنهم هو الحِجر، وأطلقت عليهم اسم: (Thamdeni) (Supplement Ti the Oxford English Dictionaray, A Thamudic)

وذكرتْ عن مقربة من الحِجر موضعًا باسم "فجّ الناقة". لقد كتب ذلك المؤرخ اليوناني الشهير بطليموس الذي كان قبل الميلاد ب١٤٠ سنة (العرب قبل الإسلام – ص٦٤).

وقال أبو إسماعيل صاحب "فتوح الشام": "إن ثمود ملئوا الأرض بين بُصْرى وعدن، فلعلها كانت في طريق هجرتها نحو الشمال" (العرب قبل الإسلام ص٦٥). أي أن هذا الحادث وقع عندما اضطروا للهجرة من اليمن وقت اشتداد شوكة القبيلتين –حمير وسبأ– فيها.كانت ثمود حاكمة على المنطقة الواقعة في جنوب الأحقاف، وعندما طردتهم حمير وسبأ هاجروا إلى الحجاز فتهامةَ فالحِجر.

ولكن صاحب "تمدن العرب" يعلّق على ذلك قائلاً: "ولا يخرج الحكم في ذلك من التخمين" (العرب قبل الإسلام، ص٦٥).

الواقع أن العرب يرون أن (ثمود) أيضا كانوا فرعًا من (عاد)، قاطنين مثلهم في اليمن، وعندما استتب حكم الحميريين في اليمن طردوهم إلى ناحية الحجاز. ولكن لا يقوم عليه أي دليل إلى الآن، إذ لم يعثروا بعد على أي آثار لهؤلاء في جنوب الجزيرة.

وكانت الحِجر تسمّى في القديم "مدائن صالح"، ويتبين من آثارها القديمة أنها كانت خضعت لحكم النبطيين -ويسمَّون أنباطًا أيضًا- قبل الميلاد. وكان وطنهم الأصلي "البتراء" التي تسمّى (Petra) باليونانية. فقد عثروا هناك على كثير من الكتابات النبطية. ولكنهم -إلى جانبها- قد اكتشفوا كتابات باللغة اليمنية أيضًا ويسميها جماعة من المستشرقين "ثمودية" أي كتابات تنتمي إلى قوم ثمود. وهذا الاكتشاف يؤيد موقف الجغرافيين العرب الذين قالوا إن وطن ثمود كان في جنوب الجزيرة وأنهم هاجروا منها إلى الحِجر في الشمال، وإلا كيف تشابهت لغتهم باللغة اليمنية.

والحِجر -التي يبدو أنها كانت عاصمة ثمود- تقع ما بين المدينة المنورة وتبوك. ويسمّى وادي الحِجر هذا واديَ القرى. لقد كانوا ذوي قوةٍ ومنعةٍ كما يصفهم القرآن بقوله ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (الفجر: ١٠). ويذكر القرآن الكريم أن زمنهم كان بعد قوم عاد مباشرة حيث قال ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ (الأعراف: ٧٥). وكذلك قال -حكايةً عن رجل مؤمن من قوم فرعون رفَعَ صوت الحق في البلاط الملكي محذرًا قومَه ومؤيدًا موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ (غافر: ٣١ - ٣٢). يتبين من ذلك أن ثمود كانوا أسبق زمنًا من زمن موسى لأنه يقدّم هلاكهم دليلاً على صدق موسى.

وهناك استدلال آخر يؤكد أن هؤلاء كانوا قد هلكوا وبادوا قبل موسى أيضًا بكثير. فإنهم في أواخر زمنهم كانوا حاكمين على ما بين شمال الجزيرة وجنوب فلسطين، ومن ناحية أخرى يخبرنا القرآن أنه في زمن موسى كانت هذه المنطقة خاضعة لقوم مدين. وبنو مدين هؤلاء كانوا من نسل مِديان بن إبراهيم عليه السلام من زوجته الثالثة "قتورة". وكانوا يعيشون في هذه المنطقة عندما أخرج يوسف عليه السلام من البئر وأُخذ إلى مصر (التكوين: ٢٥). فتبين من ذلك أن ثمود ما كانوا حاكمين على تلك المنطقة في زمن موسى، بل كانوا قد هلكوا حتى قبل إبراهيم أو كانت شوكتهم

قد انكسرت تمامًا، وإلا لم يستطع بنو مديان انتزاع حكم المنطقة من أيديهم.

ولا أقصد بهذا الاستدلال بيان حقيقة تاريخية فحسب، بل أقصد أيضًا الردّ على ما يطعن به المؤرخون المسيحيون في القرآن الكريم بأنه لا يراعي الترتيب الواقعي لدى سرد أحداث الماضي. (الأبطال وعبادتهم ص٨٧). الحق أن القرآن الكريم في كل مكان قد قدّم ذكر هود على ذكر صالح ثم ذكر إبراهيم فموسى عليهم السلام، مما يعني أنه قد سرد حتى الأحداث التي اندثرت آثارها سردًا صحيحًا وبترتيب صائب محكم للغاية.

ونظرًا إلى ما سبق ذكره من أدلة وآثار، نستطيع القول على وجه التخمين بأن الزمن الحقيقي لانحطاط ثمود هو نحو ٣٦٠٠ سنة من اليوم.

لقد قال البعض بأن ثمود هم عاد الثانية، ولكن غيرهم لا يتفق مع هذا الرأي، بل يرون أن ثمود جاءوا ما بعد هلاك عاد.

وكأن عادًا الأولى كانوا قد هلكوا في زمن هود عليه السلام، وجاء بعدهم عاد الثانية، وأما (ثمود) فإما أنه اسم آخر لعاد الثانية أو هم أمة أخرى خرجت من نسل مَن بقي منهم بعد العذاب.

وقد ذكر الشيخ محمد سليمان الندوي في كتابه "أرض القرآن": "لقد عثر بعض المسلمين في زمن معاوية رضي الله عنه على إحدى الكتابات الأثرية الثمودية – مع العلم أن الأثريين الغربيين لا يثقون بهذه الرواية – ولكن لم يُعرف مصيرها بعد ذلك (أرض القرآن ص١٢٤ و١٨٣). وقد عثر عليها الآن مرة أخرى المستشرق الإنجليزي (Wellested) في سنة ١٨٣٤. ونُشرت ترجمتها في مجلة (Asiatic Society Journal)، ونقلها عنها المستشرق الإنجليزي (Forester) في كتابه. واللغة الأصلية لهذا الأثر حِمْيَرِية. وهي في الواقع لهجة عربية لأهل جنوب الجزيرة العربية، ولكن المستشرقين سمّوها الحميرية. لقد عثروا عليها في مكان باسم "حصن غراب" قرب عدن. وإليكم تعريب ما جاء فيها:

"لقد عشنا طويلاً في هذا القصر في مأمن من البؤس والشقاء. كانت الأنهار تمد قنواتنا بالمياه، وكانت أمواج البحر الهائج تصطدم في غضب بجدران الحصن، وكانت مياه الينابيع تنساب بخرير عذب بين النخيل التي يغرسها البستانيون في أراضٍ صالحة خصبة في وادينا.كنا نزرع الأرز، ونصيد البقر الوحشي والأرانب الفتية. وكنا نداعب السمك حتى يخرج من الماء. كنا نمشي متبخترين وعلينا الحُلل السندسية الخضراء المزركشة الزاهية الألوان. وكان يحكمنا ملوك ذوو أفكار نزيهة طيبة، وكانوا يعاقبون الأشرار وفق شريعة هود. كنا ندوّن القرارات والأحكام الصائبة في كتاب. وكنا نؤمن بالمعجزات وبيوم القيامة وبسرّ "نث نون". هجم علينا اللصوص وخاصمونا فأسرجنا الجياد، وتصدى لهم فتياننا الأشراف برماح صلبة حداد. كان البواسل الأبيّون من رجالنا ونسائنا يقاتلون على متون خيل طويلة الأعناق كماتيّ الألوان، فلم تزل سيوفنا تُثْخنُ في العدو الجراحَ وتقطعهم إربًا، إلى أن قمنا بغارة على قلب الأعداء، فهزمناهم وكسرنا شوكتهم، وكانوا من أسوأ الخلق".

يتضح من هذه العبارة الأثرية أن القوم كانوا ذوي حضارة وثقافة حيث كانوا يقومون بتدوين القرارات القانونية الهامة، لتكون مرجعًا لرجال القضاء، وهذا كما يفعل الإنجليز اليوم حيث ينشرون في دوريات خاصة التقارير عن أهم قرارات المحاكم.

إننا لا نستطيع الجزم ما إذا كانت هذه الأمة المذكورة في الأثر قد مضت قبل صالح عليه السلام أم بعده، إذ من الممكن أن يكون قد بقي جزء من قوم هود في جنوب الجزيرة و لم يهاجروا مع الباقين. إلا أنه من المؤكد أنهم كانوا من قوم ثمود وقد بُعث صالح إليهم أو إلى إخوانهم الذين هاجروا إلى الشمال.

ويتضح من قوله تعالى ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ (الأعراف: ٧٥) أن ثمود كانوا حاكمين على مناطق الجبال والسهول معًا. كما أن قوله تعالى ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (الشعراء: ١٤٨-١٤٩) يشير إلى أن أرضهم كانت ذات عيون وبساتين وزروع ونخيل من نوع جيد.

وهكذا فإن هذا الأثر يصدّق ويوثّق كل كلمة وردت في القرآن الكريم وصفًا لهؤلاء القوم.

يبدو أنه بعد صالح عليه السلام بقليل دبّ الفساد في قومه "ثمود" وأخذوا بالانحطاط، إذ إننا لا نجد بعد زمنه لبضعة قرون أي أثر ولا ذكر لهم بين الأمم الغالبة. لقد ذُكرت ثمود بعد ذلك في نُصب تذكاري للملك الآشوري سرجون أو شرغون أقامه تذكارًا لانتصاره على العرب، وكان زمن ملكه ما بين ٧٢٢ إلى ٧٠٥ قبل الميلاد.

وقد ذكر هذه الأمةَ المؤرخون اليونانيون أيضًا وهم: ديدورس (٨٠ قبل الميلاد)، وبليني (٧٩ قبل الميلاد)، وبطليموس (١٤٠ قبل الميلاد). وعندما هاجم الملك الرومي "جستين" العربَ كان بين جنوده ثلاث مائة جندي من أمة ثمود. أما عند ظهور الإسلام فإن كل أثر لهذه الأمة كان قد انمحى واندثر. (أرض القرآن، ص١٩٨)

وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

ما لَبثَ: يقال: ما لبث أن فعل كذا: ما أبطأ في فعله أو ما تأخر عنه (الأقرب).

عِجل: العِجل: ولدُ البقرة، وقيل: أول سنة (أي ما كانت سنه دون عام) (الأقرب).

حنيذ: الحنيذ: المشويُّ. وفسّره أبو زيد بالنضيج؛ وآخرُ بالذي يقطر ماؤه بعد الشَيِّ (أي الشواء). ونقل الأزهري عن الفرّاء: الحنيذ ما حفرتَ له في الأرض ثم غممته، وهو من فعل أهل البادية، إلى أن قال: والشواء والمحنوذ الذي قد ألقيتَ فوقه

الحجارة المرضوضة بالنار حتى ينشوي الشواء شديدًا فيتهرّى تحتها (الأقرب).

التفسير: لقد ذكرتُ من قبل أن هذه السورة تتحدث عن إبراهيم حديثًا ضمنيًا كمدخل في الموضوع الأساسي وهو الحديث عن لوط عليهما السلام، الذي دُمّر قومه بالعذاب، لأن موضوع السورة يدور حول ذكر الأمم التي تعرضت للعذاب. وذُكر إبراهيم قبل لوط لأن الأخير كان من المؤمنين به، ونبيًا تابعًا له، مثلما كان إسماعيل وإسحاق نبيَّين تابعين له أيضًا، أو كما كان هارون لموسى، ولكنهم لم يكونوا أنبياء أُمَّتِيّين، لأن النبوة كانت توهب عندئذ مباشرة، لا بفضل إتباع أحد للنبي المتبوع، أما النبوة الأُمّيّة فلا توجد إلا في أمة المصطفى ﷺ حيث يكون النبي التابع له نبيًا من ناحية وأُمّتيًّا من ناحية أخرى.

وباختصار كان لوط نبيًا تابعًا لإبراهيم عليهما السلام، مؤمنًا به قبل تشرفه بالنبوة، وهاجر معه إلى الشام، ولذلك قرّر الله أن يُخبر إبراهيم أولاً بهلاك قوم لوط. لذلك نجد القرآن هنا يقدّم على ذكر لوط ذكرَ النبأ الذي تلقاه إبراهيم عن هلاك قوم لوط.

ولكن لاحظوا رحمة الله الواسعة بإبراهيم، فحيث إن النبأ المؤلم لم يكن يمتُّ إليه بصلة مباشرة، وإنما فقط لكونه نبيًا متبوعًا من قِبل لوط، لذلك خفّف الله عن إبراهيم وطأة خبر هلاك الأشرار مبشِّرًا إياه بخروج جيل صالح من نسله.

مَن هم هؤلاء الرسل الذين أخبروا إبراهيم بهلاك قوم لوط عليهما السلام؟ يرى بعض المفسرين أنهم أناس، بينما هم ملائكة عند الآخرين (ابن كثير، وبيان القرآن). وأرى أنهم بشرٌ سُمّوا ملائكة لصلاحهم، كما وُصف يوسف عليه السلام ملكًا في القرآن ﴿إِنْ هَذَا إلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣٢).

وهناك آية تعارض كونهم ملائكةً وهي قوله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٦). تخبرنا الآية بأمرين؛ الأول: أن الملائكة يأتون كرسل إلى الصلحاء لا إلى الأشرار. إذن فالآية

تعارض الزعم أنهم ملائكة تمثّلوا في صور إنسانية لأهل القرية الأشرار عندما ذهبوا إلى لوط.

والثاني: أن الإنسان الصالح أيضًا يسمّى مَلَكًا، لأن الآية استخدمت كلمة الملائكة بمعنى الناس، إذ لو كان أهل الأرض ملائكة حقيقيين لما كان هناك حاجة لبعث الرسول إليهم، لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ولو قيل: لماذا لم يزفّ الله البشرى لإبراهيم مباشرةً دون واسطة هؤلاء الرسل؟ فالجواب أنه قد جرت سُنّة الله فيما يتعلّق بالأنباء "أن المرء يَرى ويُرى له" (ابن ماجه، تعبير الرؤيا).. بمعنى أنه تعالى يخبر المؤمن بمشيئته بطريق مباشر وأيضًا بواسطة الآخرين. وبما أن هؤلاء الرسل كانوا متجهين إلى لوط بهدف خاص، وكان عليهم أن يمروا على إبراهيم أيضًا ليخبروه بالعذاب، فلذا زفّ الله بواسطتهم البشرى لإبراهيم حتى تخفّ صدمته بخبر العذاب.

أما الهدف الخاص الذي من أجله أُرسل هؤلاء إلى لوط بنبأ هلاك قومه، فلا نجد إليه أية إشارة يقينية في كلام الله تعالى، إلا أنني أرى لذلك سببًا، وهو أن إبراهيم ولوطًا عليهما السلام كانا غريبين في المنطقة، إذ كانا قد هاجرا إليها من بلاد أخرى، فمن الممكن تمامًا أن يكون الله تعالى قد أوحى إلى بعض صلحاء تلك البلاد يخبرهم بهلاك القوم، لكي يأخذوا لوطًا إلى مكان محفوظ قبل حلول العذاب.

ولو قيل: هل هناك نظير لمثل هذا الموقف حيث لا يُخبَر النبيُّ بهلاك قومه إلا بواسطة الآخرين، ويفاجئ العذاب القوم دون أن يؤتوا فرصة للتوبة؟ فالجواب: لا. إن هذا لم يحدث قط، ولم يحدث لقوم لوط أيضًا. لأنني لا أقصد من قولي هذا أنه تعالى أخبره بهلاك القوم بواسطة هؤلاء الرسل فقط، وإنما أقصد أنه أخبره عن طريقهم باقتراب موعد العذاب فقط. كان لوط قد تلقى من الله تعالى نبأ هلاك القوم من قبل وكان قد أنذرهم منه، وذلك بدليل قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ

كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (ق:١٣-١٥). وهذا يؤكد أن هذه الأمم قد تلقّت الوعيد من رُسلها كذلك تلقى إخوان لوط الإنذار بالعذاب منه. وأما هؤلاء الرسل فأخبر الله لوطًا عن طريقهم بموعد اقتراب العذاب، وذلك تخفيفًا عنه ولكي يصطحبوه إلى مكان محفوظ من العذاب.

ومما يدلّ أيضًا على أنهم كانوا قد أُنذروا من قبل هذا قولُ الرسل للوط: ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (الحجر: ٦٤).. أي جئناك لنخبرك بموعد العذاب الذي كنت تُنذرهم به بينما هم كانوا يمارون.

أما قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾ فهناك محذوف قبل (سلاما) والتقدير: نسلّم عليك سلامًا. وأما قول إبراهيم لهم: ﴿سَلامٌ﴾ فهو إما مبتدأ خبره محذوف أي: سلام عليكم، أو هو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: جوابي سلام.

ما أروع ما حرص عليه إبراهيم من آداب التحية والسلام مما يعلّمنا القرآن بقوله ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (النساء: ٨٧).. فالرسل دعوا له بقولهم ﴿سَلامًا﴾، وهي جملة فعلية كما شرحت آنفًا، فيرد عليهم إبراهيم بأفضل مما دعوا له حيث قال ﴿سَلامٌ﴾، وهي جملة اسمية، والجملة الاسمية أقوى وأشد معنىً وتأكيدًا من الجملة الفعلية لأنها تدل على الدوام والاستمرار.

كما تتضمن الآية درسًا آخر في موضوع الضيافة. فما أن وصل الضيوف بيت إبراهيم حتى قام لتوِّه فذبح عجلاً وقدمه إليهم شواءً طيبًا، دون أن يسألهم ما إذا كانوا قد تناولوا الطعام، أو ما إذا سيأكلون الآن أم بعد قليل؟.

إن الضيافة من الآداب الإسلامية الأساسية، ولكن الواقع المؤسف هو أن المسلمين أخذوا يتهاونون فيها بتأثير الأمم الأخرى، مع أن سنة النبي ﷺ في هذا الصدد لا تزال أسوة حسنة لنا. لقد كان المصطفى ﷺ متحليًا بجميع الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة بشكل عام، ولكن إكرام الضيف كان من صفاته البارزة بحيث لمسته زوجه الأولى السيدة خديجة رضي الله عنها بوجه خاص. فعندما نزل عليه الوحي أول مرة

ورجع إلى البيت فَزِعًا، وعبّر لزوجه عن قلقه مما حدث، طَمأَنته بقولها: "كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتَصِلُ الرَحِمَ، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق." (البخاري، بدء الوحي).

لقد رمى بعض الجهال إبراهيم عليه السلام بالإسراف والتبذير لكونه ذَبَحَ عجلاً كاملاً ليقري ثلاثة أشخاص فقط! ولكن الحق أن هذا ليس من الإسراف في شيء، لأنه كان يعيش في البادية حيث لم يكن هناك أي جزّار أو محلٌّ للحاجيات اليومية كي يشتري منه ما يلزم ليعدّ لهم طعامًا مناسبًا. لقد كان بنفسه يعيش على تربية الماشية، فما كان بوسعه -إن أراد إكرام ضيوفه- إلا أن يذبح ما يتيسر له من شاة أو عجل ويجهزه ويقريهم به.

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧١﴾

شرح الكلمات:

نَكِرَهم: نَكِرَ الأمرَ ينكَر نَكْرًا ونُكرًا ونكورًا ونكيرًا: جَهله. نكر الرجلَ: لم يعرفه. (الأقرب)

أوجَسَ: الرجلُ إيجاسًا: أَحَسَّ وأضمَرَ (الأقرب)

خيفةً: خاف يخاف خوفًا وخيفةً: فزع. الخيفة: الفزعُ؛ الحذرُ؛ ضدُّ الأمن (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لا يعني أن إبراهيم عليه السلام أُصيب بالذعر والهلع منهم، بل المراد أنه قلق في نفسه أن يكون قد قصّر في إكرام ضيوفه مما كرّه

إليهم أكل طعامه. ولكنه لم يُبدِ قلقه لهم بلسانه، إذ ليس من اللباقة أن يقول أحد لضيفه: هل قصّرت في ضيافتك، لأن هذا قول محرج.

قوله تعالى ﴿نَكِرَهُمْ﴾ يعني أن إبراهيم ظنهم من المسافرين العاديين، ولكنه عندما وجدهم لا يأكلون أدرك على الفور أن وراءهم هدفًا لم ينتبه إليه، لأنهم لو كانوا مسافرين عاديين لقبلوا ضيافته، فإن المسافر في مثل هذه البرية لا يستطيع العيش بدون الاستجابة لمثل هذه الدعوة.

ولكن هؤلاء أيضا لاحظوا قلق إبراهيم وحيرته من أمارات وجهه، فهدءوا من روعه قائلين: لا تقلق، فإننا لم نترك الطعام لتقصير منك في ضيافتنا، وإنما جئناك حاملين خبر العذاب لقوم لوط لذلك لا نرى من اللائق أن نأكل بهذه المناسبة.

وهذه الآية أيضا تؤكد أنهم ما كانوا ملائكة، بل بشرًا، وإلا لما قدّموا هذا العذر، بل قالوا: نحن ملائكة ولا نأكل.

وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

ضحكت: ضحِك يضحك ضَحكا وضِحكا وضَحِكًا: ضدُّ بكى. وضحك الرجل ضَحَكًا: عَجِبَ أو فَزِعَ. (الأقرب) وَضحِكَ: فزِع، وبه فَسّر الفرّاء الآية. (تاج العروس). ويُستعمل الضحك في السرور المجرد نحو: (مُسفِرة ضاحكة)، واستُعمل للتعجب المجرد تارة (المفردات).

التفسير: كانت زوجة إبراهيم تسمع الحوار الجاري بين إبراهيم وضيوفه، فلما

سمعت خبر العذاب لقوم لوط فزعت وتألّمت لهلاكهم. ففرح الله تعالى بفعلها هذا، وبشّرها بحفيد اسمه يعقوب من ابنها إسحاق الذي سبق أن تلّقت نبأ ولادته قبل قليل بواسطة الضيوف. لقد أشفقتْ على خلق الله جل شأنه، فبشّرها الله بذرية سوف ترتقي في سلم الخيرات والبركات.

ما أوسعَ رحمة الله تعالى، حيث إن الإنسان إذا أبدى عطفًا صادقًا على خلقه، ولو كانوا ممن يتعرضون للعذاب، فإنه تعالى يقدر عمله هذا وينظر إليه بحب وإعجاب.

كما أن الآية تحل مسألة هامة أخرى. يقول المسلمون إن إسماعيل هو الذبيح أي الابن الذي أراد إبراهيم ذبحه، ويرى النصارى أنه إسحاق عليهم السلام (التكوين ٢٢)، ويمكن أن ندحض زعمهم هذا بالشواهد التاريخية، إلا أن هناك من المسلمين من يوافقون المسيحيين في الرأي خطأً (انظر تفسير الرازي، سورة الصافّات)، ولكن الواقع أن هذه الآية وحدها تكفي لإصلاح خطئهم، لأنها صريحة في أن الله تعالى كان قد أخبر إبراهيم حتى قبل ولادة ابنه إسحاق أنه سوف يُرزَق أولادًا ويكون يعقوب من بينهم من المقربين إلى الله تعالى. فكيف يُعقل أن يأمر الله إبراهيم بذبح ابنه، الذي سبق أن أُنبئ عنه أنه سيكبر ويعيش طويلاً حتى ينجب ابنًا بارًّا مقربًا لدى الله؟ ثم كيف يُعقل أن يكون إبراهيم أيضًا قد نسي كل هذه البشارات والوعود الإلهية ويستعد لذبحه؟ فإذا كان يرى أن رؤيا الذبح تتعلق بإسحاق فلِمَ لم يتوسل إلى ربه قائلا: يا رب، لقد سبق أن بشّرتني في ابني هذا أنه سيعيش طويلاً حتى يُرزق ابنًا مقربًا لديك، فكيف تأمرني الآن بذبحه؟ فما هو المراد الحقيقي من أمرك هذا يا إلهي؟!

فالآية تؤكد بكل وضوح أن إسماعيل هو الابن الذبيح، فلا داعي لنا لاعتبار إسحاق ذبيحًا، متأثرين مما ورد في كتب اليهود المحرفة وكأن ما جاء فيها هو الصحيح.

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٣﴾

شرح الكلمات:

يا ويلتى: ويلتى أصلُها: ويليّ. والويلة: الفضيحة؛ البلية. (الأقرب)

عجوز: العجوز: المرأة المسنة لعجزها عن أكثر الأمور وهو وصفٌ خاص بها (الأقرب)

بعلي: البعل: ربُّ الشيء، يقولون: مَن بعلُ هذه الناقة؟ أي: ربُّها. الزوجُ والمرأة بعلٌ وبعلةٌ (الأقرب)

التفسير: ليس المراد من الآية أن زوجة إبراهيم تعجبت من الخبر تكذيبًا له. كلا، إذ لا يُتوقع حتى من امرأة مؤمنة عادية أن تتعجب من شيء باعتباره مستحيلاً على القدرة الإلهية، فكيف يُتوقع من زوجة نبي أن تُنكر قدرة الله تعالى، رغم رؤية آيات الله الكثيرة من قبل. الواقع أنها تعجبت إكبارًا لنعمة الله عليها، لا إنكارًا لقدرته ﷻ. وقد ذُكر مثل هذا العجب من إبراهيم أيضا في موضع آخر من القرآن الكريم، ولكنه بنفسه فسَّر عجَبه مبينًا بأنني أتعجب إكبارًا للنعمة الإلهية لا إنكارًا لها أو قنوطًا منها حيث قال للرسل المبشرين له بالابن: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّآلُّونَ﴾ (الحجر: ٥٥-٥٧).

قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ

إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٤﴾

التفسير: الشيعة لا يعتبرون زوجات النبي ﷺ من أهل بيته (تفسير القمي، الأحزاب، قوله تعالى: ليُذهب عنكم الرجسَ أهلَ البيت).

ولكن القرآن الكريم قد أطلق هنا "أَهْلَ الْبَيْتِ" على زوجة إبراهيم وحدها، التي لم تكن قد وَلَدت بعد أي ولد. فالحق أن القرآن الكريم كلما استخدم هذه الكلمة قصد بها الزوجة أيضا.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

الروع: الفزع، راعَ: فزِعَ (الأقرب)

التفسير: لم يكن خوف إبراهيم عليه السلام على نفسه، وإنما على قوم لوط عليه السلام، ومثل هذا الخوف لا يقدح في شأن النبي، بل هو دليل على عظيم تقواه وسموّ أخلاقه. فأول ما سمع إبراهيم نبأ هلاك القوم أصابه الفزع وتحير في أمره، ولكنه لما تلقى البشارة من الله بأنه سوف يعوّضه بأمة أفضل من الأشرار الهالكين خفّ همه وهدأ باله برؤية هذه المحبة الإلهية، فتشجع وبدأ يتوسل إليه ﷻ مسترحمًا لقوم لوط.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٦﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

أوّاه: الأوّاه: الكثير التأوُّه إشفاقًا. (الأقرب)

منيب: أناب إليه: رجع إليه مرة بعد مرة. (الأقرب)

التفسير: ما أكثَرَ ما كان إبراهيم حظوةً لدى الله، فإنه تعالى لم يقل له: اسكتْ فإنني لن أسمع لدعائك، بل قال له في لطف: دعك يا إبراهيم من هذا السؤال، فقد حان الآن ميعاد ربِّك وقد جف القلم، ولا رادَّ لقضاء الله.

وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٨﴾

شرح الكلمات:

سِيءَ: ساءَه: فَعلَ به ما يكرهه، أو أحزنه (الأقرب) وسِيءَ: فُعل به المكروه.

ضاق بهم ذَرْعًا: ضاقَ به ذَرْعًا: ضعُفت طاقته و لم يجد من المكروه فيه مَخلصًا. وأصل الذَرْع بسط اليد، فكأنك تريد: مددتُ يدي إليه فلم تَنَله. وأراد بالذراع في قوله: (ولكن كان أرحَبَهم ذراعا) النَفَسَ. (الأقرب)

يوم عصيب: شديد الحر، أو شديد (الأقرب).

التفسير: أي أن الرسل عندما وصلوا إلى لوط عليه السلام عانى منهم المشقة، و لم يجد من

إصرارهم مَخْلصًا، أو تضايق من معاملتهم حيث لم يفلح فيما أراد منهم.

يقول بعض المفسرين بأن الرسل لما نزلوا ضيوفًا على لوط حاول التخلص منهم، ولكنهم تطفلوا عليه بإلحاح شديد فتضايق من ذلك (ابن كثير)، ولكن هذا الزعم باطل تماما. وأرى أن ما تذكره التوراة في هذا الصدد هو الصحيح (الخروج ١٩)، وإليه تشير الآية. الواقع أن الرسل حينما وصلوا إلى قرية لوط دعاهم إلى بيته، ولكنهم لم يقبلوا دعوته، كيلا يشقوا عليه ويسببوا له الحرج. ولكنه ألحّ عليهم فأصروا على الإنكار، فاستاء من ذلك وتضايق، وهذا ما يذكره الله هنا، ليكشف لنا ما كان يتحلى به نبيه من خُلُق إكرام الضيف، وليس في ذلك-كما ظن البعض- أدنى إشارة إلى بخله وسوء خلقه.

وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

يُهرَعون: أُهرِعَ الرجل (مجهولا): أُرعِدَ من غضب أو ضعف أو خوف أو برد؛ أُعجِلَ على الإسراع، فهو مُهرَع. وفي اللسان: الهَرَع والهراع والإهراع: شدة السَوْق. وقال أبو عبيد: أُهرع الرجلُ: إذا أتاك وهو يرعد من البرد. أقبَلَ الشيخ يُهرَع أي أقبلَ يُسرع مضطربًا (الأقرب)

التفسير: يبدو من الآية أن لوطا عليه السلام خاف على الرسل أن يتعرض لهم قومه بمكروه، لأنهم كانوا أشرارا بالعموم. ولا نعني بالشرّ هنا شرًّا جنسيًا كما زعم بعض

المفسرين، إذ قالوا بأن الرسل كانوا ملائكة تمثّلوا للقوم على صور فتيانٍ مُرْدٍ ذوي جمال وبهاء، وعندما رآهم قوم لوط أعربوا عن سرورهم وجاءوا مسرعين لفعل الفاحشة بهم (البحر المحيط وابن كثير). لكن هذا الظن باطل كليةً، لأن الله تعالى قد وضح الأمر في موضع آخر من القرآن الكريم حيث يحكي قولهم للوط ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحِجر: ٧١).. أي ألم نمنعك من اصطحاب الأجانب إلى قريتنا. فلو كانوا فرحين بمقدمهم وهم يُضمرون الفاحشة بهم لكانوا قد ألحوا عليه بإحضار المسافرين إلى القرية بكثرة، ولكنهم على النقيض من ذلك يقولون له في غضب: ألم نمنعك من إحضار الغرباء.

ولو قيل: لقد ورد في مكان آخر من القرآن الكريم ﴿وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الحِجر: ٦٨).. أي جاءه قومه فرحين بقدوم الأجانب لأن الفرصة قد سنحت لفعل الفاحشة بهم، فالجواب: إنهم لم يفرحوا بنية الفاحشة بهؤلاء الضيوف، وإنما فرحوا لأنهم وجدوا في ذلك حجة يبررون بها معاقبة لوط، حيث قالوا: اليوم قد وقع هذا في قبضتنا وسوف نسوّي معه الحساب.

والواقع أنه في قديم الزمان كانت لكل مدينة أو لمجموعة من القرى حكومة مستقلة خاصة، ذات طابع جمهوري، فأحيانًا كان يحكمها ملك أو جماعة من علية القوم. وهكذا كان الحال بالنسبة لقريتي سدوم وعموراء اللتين بُعث إليهما لوط عليه السلام (التكوين: ١٤). وقد ورد في التلمود –وهو كتاب يضم الروايات التاريخية اليهودية– أن أهل القريتين كانوا يقطعون على الناس طرقهم وينهبون أموالهم (الموسوعة اليهودية، Sadom). والبديهي أن الأمة التي لا يأمن جيرانُها بوائقَها وإيذاءَها لا بد أن تعيش في خوف دائم من جانبهم.

وتذكر التوراة أنهم كانوا على حرب مع الجيران (التكوين: ١٤)، ومن أجل ذلك كانوا لا يسمحون للغرباء بدخول القرية، مخافة أن يفتحوا أبوابها بالليل، فيفاجئهم العدو وهم نائمون.

وكان لوط يُكرم الضيوف عملاً بسنة الأنبياء عليهم السلام، فكان يستضيف المسافرين في بيته خَشيةَ أن يسلبهم القوم إذا باتوا في الخارج. وكان قومه ينهونه عن ذلك كما يدل على ذلك قولهم له ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحِجر: ٧١). فعندما جاء بالرسل هذه المرة استشاطوا غضبًا لمخالفة أوامرهم، وفرحوا واستبشروا أنهم وجدوا فرصة لمعاقبته ولحلّ القضية نهائيًا. ولما كان لوط يعرف سوء معاملتهم للضيوف الأجانب خاف أن يسيئوا إليهم، فقال لقومه مهدّئًا ثورتهم: إن بناتي هؤلاء اللاّتي يَعِشْن بين ظهرانيكم هن أطهر شهادةً على براءة ساحتي.. أي لا تتعرضوا للضيوف لأنكم إذا طردتموهم هكذا مهانين فسوف تجلبون عليكم الفضيحة والعار أمام الآخرين. وأما خوفكم من أنني أتآمر عليكم مع الأعداء فلا داعي لذلك، لأن بناتي هؤلاء يشكِّلن ضمانًا يجب أن يُطمئنكم -مع العلم أنه كانت للوط بنتان متزوجتان بين القوم- إذ تستطيعون بكل سهولة أن تنتقموا مني بمعاقبتهما، دون أن تُفتضحوا أمام العالم.

وقد هرَأَ بعض المفسرين وقالوا بأن لوطًا عليه السلام كان قد قدّم للقوم بنتين له ليُشبعوا بهما رغبتهم الجنسية ولا يتعرضوا للضيوف (تفسير فتح البيان)، وقد كتبوا هذا متأثرين بما ورد في التوراة. ولكن هذا المعنى باطل تمامًا ولا يليق حتى بشخص رذيلٍ دَعْكَ أن يصدر عن نبي من أنبياء الله الكرام، وهم أكثر الناس غيرة وحمية. الواقع أنه لا يقترح مثل هذا الاقتراح حتى من يرتكبون الفواحش عمومًا. فلا ريب أن هؤلاء المفسرين قد وقعوا في الخطأ بسبب تأثرهم بالتوراة. لأن القرآن الكريم لا يقول أبدًا بأنه قدّم بناته لهم من أجل أن يفعلوا بهن الفاحشة، وإنما حاول بذلك تهدئة أهل قريته قائلا: ما دام عيالي وأولادي يعيشون بينكم وتحت حكمكم فكيف ساغ لكم أن تسيئوا بي الظن وتعتبروني عدوًا لكم يريد التآمر مع الأعداء. فافهموا قصدي واعملوا بنُصحي، فهذا خير لكم، ولا تفضحوا أنفسكم بإهانة الضيوف.

وقد قال بعض المفسرين إنه عرض على القوم بناته للزواج لا للفاحشة)فتح

البيان). ولكن هذا الرأي أيضا لا يبدو سليمًا لأن بناته كُنَّ متزوجات بين القوم من قبل بحسب بيان التوراة (التكوين: ١٩).

ولو سلّمنا جدلاً أنه كانت له بنات عذارى إلى جانب المتزوجات فلا تنحل المشكلة أيضا، إذ ليس من المعقول أن يأتيه أهل المدينة طامعين في ضيوفه الرجال للفاحشة، فيقول لهم لوط: حسنًا، فليتزوج بعضكم ببناتي هؤلاء!

ولما كان لوط عليه السلام شيخًا كبيرًا فقد يكون قوله هذا مجازًا، حيث اعتبر زوجات المعارضين كبناته فقال: إن بناتي هؤلاء -أي زوجاتكم- خير لكم وأطهر، فلماذا تعرضون عن الطريق السليم وتقعون في الفاحشة.

قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ

التفسير: عندما قال لهم لوط عليه السلام إن بناتي اللاتي هن تحتكم لضمانٌ كافٍ لبراءتي، فكأنما اعتبرهن رهائن عند القوم، ولكن كانت العادة الشائعة لدى هؤلاء الناس أنهم ما كانوا يرضون برهائن إناث بل بالرهائن الذكور من أولاد العدو، ولذلك ردوا عليه: لا نقبل الرهائن الإناث، وأنت تعلم جيدا أن قصدنا من ذلك أن تمتنع عن إحضار الضيوف الأجانب إلى القرية، فقولك، احتجزوا بناتي بينكم ولا تؤذوا ضيوفي قول مرفوض.

يقول بعض المفسرين بأن قولهم ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أيضا يشكل دليلاً على أن لوطًا عليه السلام عرض عليهم بناته للفاحشة أو الزواج.

ولكن الحقيقة أن هذه الآية تبطل زعمهم، إذ كيف يتوقع من قوم بلغوا هذا الحد

في ارتكاب الفاحشة أن يفرقوا بين ما يحق لهم وما لا يحق في الأمور الجنسية الشهوانية، فقولهم ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ إنما يشير إلى عادتهم من أخذ الرهائن الذكور، وليس إلى ما ذهب إليه هؤلاء المفسرون.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨١﴾ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

ركن: الركن: الجانبُ الأقوى من الشيء؛ الأمرُ العظيم؛ ما يقوّى به مِن ملكٍ وجندٍ وغيره؛ العزُّ والمنعة (الأقرب)

التفسير: ورد في الحديث الشريف: "عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد" (البخاري، الأنبياء). ويقصد لوط من قوله هذا: يا ليت كانت بي قوة حتى أمنعكم من ارتكاب المعاصي، ولكن ليس لي عليكم سلطان، اللهم إلا أن ألوذ بربي وأطلب منه أن يترل بكم العذاب، ولكني أؤجل هذا حتى يهتدي منكم من كان الهدى من نصيبه. غير أنّ القوم عندما لم يرضوا بالتماسه الحار المخلص دعا عليهم بإذن من الله تعالى، كما يصرّح بذلك الحديث المذكور آنفًا.

ولما علم الرسل أن لوطًا يريد أن يبتهل إلى الله لهلاك القوم كشفوا له غرض

قدومهم الذي كانوا يخفونه عنه، وأخبروه بأنهم قد أتوا من عند الله لنفس الغرض أي لنخبرك أن الله تعالى قد قضى بهلاك هؤلاء القوم، ولقد أُرسلنا لنخرجك وأهلك – عدا زوجتك– من بين القوم، قبل العذاب الذي سيحل بهم في الصباح ويهلكهم عن بكرة أبيهم.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٤﴾

شرح الكلمات:

سِجّيل: السجّيل: حجرٌ وطين مختلط. (المفردات). السجيل: حِجارة كالمدر (الأقرب).

منضود: نَضَد المتاعَ ينضِد نَضْدًا: جعل بعضه فوق بعض (الأقرب)

مُسوَّمة: المسومة: المرسَلة؛ المُعْلَمة (الأقرب)

التفسير: يبدو أن القوم أُهلكوا بزلزالٍ عنيفٍ مدمِّر، لأن الزلزال الشديد يؤدي إلى قلب سطح الأرض، وتطايُر الأحجار التي تتساقط على الأرض كالمطر.

والمراد من قوله ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي أنه تعالى كان قد قدّر منذ الأزل أن تتسبب هذه الأحجار في دمار هذا القوم.

واسم والد لوط هو حاران الذي كان أخًا لإبراهيم عليهما السلام، بحسب بيان التوراة. كان لوط قد هاجر مع إبراهيم إلى كنعان أي فلسطين من"أُور" الواقعة في

العراق، ثم انفصل عنه وأقام في قرية باسم سدوم (التكوين ١١ و ١٣).

وهناك عدة اختلافات بين القرآن الكريم والتوراة فيما يتعلق بقصة لوط، ففي حين تَصِمُه التوراة بعادة الشجار والحسد (التكوين ١٣)، يصفه القرآن الكريم بصفة الطيب والصلاح.

كما يبدو من التوراة أن الرسل الثلاثة تناولوا الطعام الذي قدّمه لهم إبراهيم عليه السلام (التكوين ١٨)، ولكن القرآن ينكر ذلك. والأعجب من ذلك أنها تقول بأن أحد هؤلاء الثلاثة هو الله والآخرين مَلَكان (التكوين ١٨)، ومن ناحية أخرى تزعم أنهم أكلوا الطعام. ونترك للقارئ أن يحكم بنفسه أيُّ المصدرين أقرب إلى الحق والصواب.

كما تقول التوراة بأن لوطا عرض على القوم بناته ليُشبعوا بهنّ رغبتهم الجنسية (التكوين ١٩)، بينما يُعلن القرآن الكريم أنه لَم يقدمهُنَّ إليهم لارتكاب الفاحشة وإنما كضمانٍ لبراءته من التآمر.

كما تقول التوراة بأن زوجته صارت عمودا من الملح عِقابا من الله تعالى (التكوين ١٩)، بينما لا يذكر القرآن الكريم من هذه القصة الخرافية شيئًا.

أرى أن هذه الأمثلة من الخرافات تكفي لإظهار فضل القرآن الكريم على التوراة.

وبيّن بقوله تعالى ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أن هذا البيان ليس مجرد قصة مسلِّية، بل فيه نبأٌ بأن هذا سيحدث أيضا مع محمد رسول الله ﷺ، حيث قدر الله تعالى أن يدمِّر بعضًا من معارضيه كما دمَّر قوم لوط عليه السلام.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٥﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلا تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

المكيال: ما يكال به (الأقرب). كانت الأشياء تُعرف مقاديرها في القديم بطريقين: بالإناء أي بالكيل أو بالثقل أي بالوزن. وكان الكيل عندئذ أكثر استخدامًا من الوزن. أما اليوم فالوزن هو الأكثر شيوعًا، وإن كانت السوائل يُعرف مقدارها بالكيل.

الميزان: آلة ذات كفتين يوزن بها الشيء ويعرف مقداره من الثقل. والميزان: المقدار. (الأقرب)

التفسير: قوله ﴿إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ يعني أراكم في ثراء ورخاء. والمراد أن الغش من الفقير أيضًا عمل مشين، ولكن غشّ الغني أكثر سوءًا وأشد قبحًا.

وقوله ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.. أحاط بالشيء يعني: أهلكه. لقد وصف (اليوم) بكونه محيطًا على سبيل المجاز للمبالغة كقولهم: نهاره صائم، والمراد أن عذاب ذلك اليوم سيكون مدمِّرًا للغاية.

وقد تعني كلمة (يَوْمٍ مُّحِيطٍ) أن ذلك اليوم لن ينقضي ما لم يستأصل شأفة القوم كلهم.

لقد بُعث شعيب عليه السلام إلى قوم مدْيَن. ومَدْين أو مِدْيان كان ابنًا لإبراهيم من زوجته قتورة، وقد ورد ذكره في التوراة (التكوين: ٢٥). مع العلم أن الأولاد كانوا يُدعَون في القديم باسم أبيهم، ولذلك سُميّ أولاده أيضا بمدين. أو ربما كانوا يسمَّون

في البداية (بنو مدين)، فاختُصر الاسم لكثرة الاستعمال. وكانت مدينتهم المركزية أيضا تسمى مدين. وربما كان اسمها في البداية ديار مدين، فصار مدين فقط بمرور الوقت.

أما عن موقع منطقة مدين فاعلم أن البحر الأحمر ينقسم في الشمال إلى فرعين، أحدهما يُتاخِم مصر، والثاني يتاخم شبه الجزيرة العربية، وهذا الأخير يسمى خليج العقبة. وكانت مدين تقع قريبًا من خليج العقبة على ستة أو سبعة أميال إلى جانب الجزيرة العربية. وبسبب قربها من الساحل قد اعتبرها بعض الجغرافيين القدامى مرفأً، بينما يرى الآخرون أنها لم تكن مرفأً بل كانت على بعد من الساحل. (دائرة المعارف الإسلامية باللغة الأردية، مدين شعيب).

كانت القوافل التجارية من العرب تمر بمدين في طريقها إلى مصر. ولا تزال هناك إلى اليوم قرى عديدة باسم مدين، ولكن مدين الأصلية قد اندرست ولا يوجد لها من آثار الآن. كان بنو مدين يسكنون في شمال الحجاز، وكانت هذه المدينة عاصمتهم.

لقد هاجَرَ موسى عليه السلام إلى مدين عندما فرّ هاربًا من الفرعونيين بعد حادثٍ قَتَلَ فيه أحدًا منهم (الخروج ٢). وعندما هاجَر ببني إسرائيل أقام قريبا مِن مدين (الخروج ١٨). وهذه إحدى المشابهات التي كانت بين موسى وبين نبينا محمد عليهما السلام، إذ أقام النبي ﷺ بعد الهجرة في المدينة، كما أقام موسى بعد الهجرة في مكان باسم مدين. مع العلم أن المدينة المنورة كانت تسمّى "يثرب" قبل الهجرة لتفشّي الأمراض والأوبئة فيها بكثرة، ولكن الله تعالى طهّرها من الأوبئة بعد هجرة النبي إليها، فسماها المدينة. وهكذا تمت هذه المشابهة الظاهرة بين النبيين الكريمين عليهما السلام.

يتبين من دراسة أحوال شعيب عليه السلام في القرآن الكريم ما يلي:

١. كان معظم معارضيه من سكان مدينته كما حدث مع النبي الكريم عليهما السلام، فقد ورد في القرآن الكريم ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِه لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الأعراف: ٨٩)

٢. كان قومه يقومون بالغش والخداع في المعاملات اليومية، إلى جانب أعمالهم الوثنية، ولأجل ذلك نصحهم خاصة ﴿وَلا تَنقُصُواْ الْمكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾.

٣. كانوا ينعمون بالثراء والرخاء ولذلك يقول لهم شعيب ﴿إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾.

٤. كانوا يقومون بقطع الطرق على الناس ولذلك نصحهم قائلا ﴿وَلا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ (الأعراف:٨٦) ﴿وَلا تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود: ٨٦). هذه الكلمات إما تدل على عادتهم قتلَ الناس وشن الغارات أو على كونهم صعاليك يقطعون الطرق. لقد كانوا يسكنون في منطقة كانت مفترق الطرق بين الشام ومصر وشبه الجزيرة. ويبدو أنهم كانوا ينهبون المسافرين المارين بأراضيهم.

ومما يؤكد ذلك أنه كانت لأهل مدين غابة واقعة قريبًا من مدينتهم، وكان يسكنها قوم باسم "ودان"، وودان هذا كان ابن أخ لمدين. وقد سمّى القرآن أهل هذه الغابة (أصحاب الأيكة)، وقد نصحهم شعيب أيضًا بنفس ما وُعظ به أصحاب مدين حيث جاء فيه ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۞ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۞ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء: ١٧٧ – ١٨٤).

والأيكة غابة بها أشجار السِدْر والاثْل، وهذه الأشجار تهيّئ كمينًا سهلاً لقطّاع الطرق، لأن فروعها كثيرة ومائلة إلى الأرض يختفي فيها الإنسان بسهولة. وفي موضع آخر قال القرآن الكريم في وصفهم ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۞ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (الحجر٧٩ و٨٠). والمراد من ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي أن قوم لوط وأصحاب الأيكة كانوا يقطنون منطقة يمر بها طريق عام.

يقول المفسرون بأن شعيبا كان قد بُعث في زمن موسى عليهما السلام، وهو الذي

زوَّج ابنته من موسى عندما جاءه هاربًا من الفرعونيين بعد حادث القتل (التفسير الحقاني). ولكن التوراة تقول بأن الذي أقام عنده موسى في مدين وتزوج من ابنته اسمُه حوباب أو يثرون (العدد ١٠ والخروج ٣). ولقد أيد صاحب "أرض القرآن" رأيَ المفسرين سائقًا الأدلة التالية على صحة موقفه:

أولا: يتضح من التوراة أن موسى عليه السلام لدى هجرته ببني إسرائيل من مظالم الفرعونيين أقام في مدين أولاً، ولكن نسوة المدينة حاولن سَلْبَ إيمانهم واستمالَتهم إلى الشرك حيث كنَّ يأخذنهم إلى معابدهن الوثنية، فقام موسى بشن غارة على أهل مدين وقتلهم بما فيهم النساء والأطفال.

ثانيا : سجّل القرآن الكريم قول شعيب لقومه ﴿بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو إشارة إلى نفس الغارة التي شنَّها موسى على أهل مدين، والتي انتصر فيها، فقسم جزءًا من أراضي القوم بين الإسرائيليين وترك جزءًا منها لأهل مدين. فقال شعيب عندئذ مهدِّئًا قومه: مضى ما مضى، وعليكم الآن أن ترضوا بالقضاء الذي أصدره موسى وأن تقنعوا بما بقي في أيديكم. وإن قوله ﴿وَلا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ أيضا إشارة إلى ما فعل بهم موسى حيث نصحهم أن يكتفوا بالبقية الباقية في أيديهم، ولا يحاربوا الإسرائيليين بعد الصلح. (أرض القرآن ج٥ ص٤٦٤).

إنني أتفق مع صاحب "أرض القرآن" فيما ذكره من معلومات عن أحوال مدين وموطنهم وأشيد بجهوده المشكورة، ولكني أختلف معه فيما يقول عن شخصية شعيب عليه السلام. وإليكم أدلتي:

١. صحيح أن القرآن يحكي قولهم لشعيب ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء﴾ بمعنى أن يَدَعهم لينفقوا أموالهم بحرية ويتصرفوا فيها كما يشاءون، ولكننا لا نجد في القرآن الكريم ولا في التوراة أي ذكر لحادث قتال كهذا بين أهل مدين والإسرائيليين حتى نطبق عليه هذه الآية.

٢. وقول شعيب لهم ﴿وَلا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ أيضا لا يعني ألا

يثيروا فتنة الحرب بعد عقد الصلح مع الإسرائيليين، إذ لم ينعقد أي صلح بين الأمتين بحسب بيان التوراة نفسها، بل إنها تقول إن الإسرائيليين استولوا على أملاك أهل مدين. إذًا فلا مناص من أن نأخذ كلمة "الإصلاح" هنا بمعناها العام أي الصلاح والتقوى وليس بمعنى الصلح بعد الحرب. والمراد من قوله هذا أن لا يدمّروا بأعمالهم الفاسدة ما نالوه من صلاح وتقوى نتيجةَ تربية الأنبياء المبعوثين إليهم من قبل.

٣. تذكر التوراة أن حوباب هذا هاجر بعد دمار مدين إلى موسى ووجد هناك أرضا صالحة للزراعة. ولا نجد له أي ذكر بعد ذلك (العدد ١٠). وهذا يتنافى مع العقل والمنطق تماما، إذ كيف يمكن لنبي أن يترك مهمته الأساسية ويعرض عن قومه مهاجرًا إلى منطقة أخرى، ليشتغل هناك بالأعمال الزراعية متناسيًا غاية بعثته.

٤. لا تذكر التوراة حوباب كنبي أبدا، مع أنه لو كان هو حمْوًا لموسى ونبيًا لَلَزِمَ أن تتحدث عن نبوته.

٥. لقد تحدث القرآن الكريم في عدة مواضع فيه عن شعيب النبي وعن هذا الشيخ الذي كان حموًا لموسى عليهما السلام، ولكنه لم يذكر في أي موضع -ولو بالإشارة والتلميح- أن الاثنين شخصية واحدة.كما لم يقل القرآن الكريم أن حمْوَ موسى كان نبيا.

٦. انه لمما يخالف العقل أن تُدَمَّر أمة نبي بيد نبي آخر وهما على قيد الحياة. الواقع أنه على افتراض أن حربًا نشبت بين الأمتين كان من اللازم أن ينضم شعيب والذين آمنوا معه إلى صفوف موسى عليهما السلام. ولكن التوراة أيضا خالية من أي ذكر كهذا، بل لا تذكر أي شخص آمن بحوباب، بل ورد فيها على النقيض أنه لم يكن معه إلا أولاده فقط (العدد ١٠). بينما يؤكد القرآن الكريم وجود جماعة من المؤمنين مع النبي شعيب عليه السلام (هود: ٩٣).

٧. ومما يشكل أسطع دليل وأعظم برهان على كون شعيب وحوباب شخصيتين

مختلفتين هو قولُ القرآن الكريم بعد الحديث عن هلاك قوم شعيب: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٠٤). فما دام القرآن الكريم صريحًا في أن موسى جاء بعد هلاك قوم شعيب فكيف يسوغ لنا الظن أن شعيبا وحوباب كانا شخصية واحدة، وأن قوم شعيب أُهلكوا على يد موسى وأصحابه.

٨. ولو اعتبرنا شعيبًا حمْوًا لموسى للزم علينا القول بأن الأول لم يُبعث في قومه رسولا إلا بعد هجرة موسى بالإسرائيليين إلى مدين، وأن مهمته انحصرت فقط في أن ينصح قومه بالتصالح مع المهاجرين. مع أننا نجد أن موسى وأصحابه واجهوا أثناء هجرتهم أممًا أخرى أقوى مثل العمالقة وغيرهم، ولكن الله لم يرسل إليهم أي رسول ينصحهم بالتصالح مع موسى وأصحابه!

٩. لقد سجّل القرآن الكريم في نفس هذه السورة قول شعيب لقومه ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (الآية: ٩٠)، مما يوضح أن شعيبًا جاء بعد لوط بزمن قريب. إذن فلا يصح القول بأنه بُعث في زمن موسى عليهما السلام.

١٠. لو كان شعيب حمْوًا لموسى فلماذا لم ينذر قومه بعذاب أنزله الله قبل قليل من الزمان على أعداء موسى الفرعونيين، خاصة وأنه كان يريد تأييد موسى وتعزيزه؟ فكيف يُعقل أن يتغافل شعيب عن ذكر ما فعل الله لأجل موسى ضد أعدائه في مصر؟.

وبالاختصار، فإني أرى أن المفسرين قد أخطأوا في زعمهم أن شعيبًا كان حمْوًا لموسى عليهما السلام. والحق أن حوباب الذي كان حمْوًا له شخص وأن شعيبا شخص آخر كلية، وأنه قد شَمَلَ الهلاكُ قوم شعيب قبل بعثة موسى، ولم يبقَ من ذراريهم عندئذ إلا قليل، بعد أن آلت قوتهم وشوكتهم إلى الأفول تمامًا.

وأما ما تذكره التوراة من أن حوباب وضع نظامًا لقوم موسى فيبدو أنه كان قد استقاه من تعاليم شعيب. ذلك أن أتباع كل نبي يحققون الرقي، ولا بد أن يكون

المؤمنون بشعيب قد ازدهروا، وبما أنهم كانوا قريبي العَهد من موسى، فمن الممكن تمامًا أن تكون آثار تعاليمهم وحضارتهم لا تزال باقية، فقام حوباب -الذي يبدو أنه من أمة شعيب- باقتباسها، واقترح بموجبها نظامًا لأمة موسى عليهما السلام.

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

بقية الله: البقية: اسمٌ لما بَقِيَ؛ مَثَلٌ في الجودة والفضل، يقال: فلانٌ بقية القوم أي من خيارهم، ويقال: في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا. وأولو بقيةٍ أي أولو الرأي والعقل (الأقرب)

التفسير: المراد من قوله ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أن ما تكسبونه بطرق مشروعة من عند الله تعالى هو خير لكم ويجب أن تروا فيه الكفاية. ويمكن أن يعني أيضا أنكم لو أحسنتم استخدام ما وهب لكم الله من قدرات وملكات لكان أدعى لرقيكم، من أن تلجئوا إلى أنواع الغش والخداع.

ووضّح بقوله ﴿وَمَا أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أن لا تظنوا أنكم سوف تنجون من العذاب بسببي. كلا، بل إذا لم تنتصحوا بنصحي فلا بد أن يحيطكم العذاب. وفي هذا إشارة إلى أن الناس - رغم عداوتهم الظاهرة لأنبيائهم - يكنّون لهم احترامًا بالغًا ويعتبرونهم مصدر خير وبركة لهم، لما رأوا منهم قبل دعواهم من سيرة طاهرة وأخلاق فاضلة.

قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٨﴾

شرح الكلمات:

الحليم: حَلُمَ: صَفَحَ وسَتَرَ. والحِلمُ: الأناةُ؛ العقلُ. (الأقرب)

الرشيد: ذو الرشد؛ الذي حَسُنَ رُشدُه فيما قدّر؛ والرشيد في صفات الله: الهادي إلى سواء الصراط. (الأقرب)

التفسير: أرى أن قولهم هذا أيضا استهزاء منهم وسخرية، والمراد: ليس لك علينا من فضل ولا فرق بيننا وبينك إلا الصلاة التي تضيع فيها وقتك، وأما الجد والكد في التجارة أو الزراعة وغيرهما فلا تعرف منها شيئا. فهل تريد منا أن نضيع ما حققناه من عز وشرف ببقائنا عاطلين مثلك؟

فقولهم ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ...﴾ تشنيعٌ منهم بشعيب بأنه قد أُصيب بالخبل والخرف من كثرة سجوده وصلاته، وصار يظنّ أن الصلاة هي كل شيء. ما له وعبادتنا وأموالنا. سنعبد ما نشاء، وننفق كما نشاء.

العجيب أن شعيبًا عليه السلام يعظهم أن لا يأكلوا أموال الآخرين بالباطل، ولكنهم يردون عليه بقولهم: ما لك وما نفعل، نحن أحرار في أن نتصرف في أموالنا كما يحلو لنا. وكأنهم لِما تأَصّل فيهم أكلُ أموال الآخرين كانوا قد فقدوا التمييز بين الحلال والحرام لدرجة أنهم لم يدركوا أنهم لا يأكلون أموالهم هم وإنما يمدون أيديهم إلى أموال الآخرين بالباطل.

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا

حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إلا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

أخالف: خالَفني إلى كذا: قَصَده وأنت مُوَلٍّ عنه. (الأقرب)

التفسير: هناك كلام محذوف، والمراد: ليست صلاتي التي تأمرني بهذا وإنما هو ربي الذي يأمرني به. فأخبروني يا قوم، لو كنت في الواقع أتلقى وحيًا من الله مقرونًا بأدلة على صدقه، ورزقًا حسنًا من فضله ورحمته، أفلا يحق لي إذًا أن أعظكم وأنهاكم عما أثبتُ بطلانه بأدلة دامغة؟

أما قولهم: لماذا تنهانا عن التصرف الحر في أموالنا فقد ردّ قائلا: انظروا إلى سلوكي وسيرتي أنا. ألا ترون أنني عامل بما أنصحكم به،؟ وما دام الأمر كذلك فلا شك أنني مخلص فيما أعظكم به. وإذا كنتم تظنون أنني أريد بذلك سلطة وحكمًا عليكم فهو أيضا ظن باطل، لأن الإنسان يمكن أن يُسدي النصح لأحد دون أن يكون سيدًا وحاكما عليه، وما دام هذا حقًا مشروعًا لي فسوف أستعمله ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. أما النتائج فليست بيدي، وإنما هي في يد الله تعالى، وما عليّ إلا البلاغ.

ما أروَعَه وما ألطَفَه من شرحٍ لمقام النبوة. فكل مأمور من عند الله تعالى بل كل مبلغ وداعية يواجه نفس المشاكل. في البداية يتبرّم الناس من نصحه ووعظه، إذ يعتبرون نصحه نوعًا من الجبر والإكراه. ثم يهدئون قليلاً ويتنازلون ويعتبرونه مساويًا لهم في الدرجة، ويأذنون له أن يقول ما عنده، دون أن يصدقوا قوله. ولكن النبي لا يبدي أي سخط عليهم لا في المرة الأولى ولا في المرة الثانية، وإنما يهتم بأداء واجب التبليغ في الحالتين على سواء، ولا ينظر إلا إلى الله غير مكترث بكل من سواه.

وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٩٠﴾

شرح الكلمات:

لا يجرمنّكم: جَرَمَ لأهله: كَسَبَ، ومنه في القرآن: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُواْ﴾، أي لا يكسبنّكم، وقيل أيضًا: لا يحملنّكم (الأقرب). وأصلُ الجرم: قطعُ الثمرة عن الشجر، واستُعير ذلك لكل اكتسابٍ مكروه، ومعنى جَرَمَ: كَسَبَ أو جنى (المفردات).

التفسير: يتضح من الآية أن شعيبًا بُعث بعد نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ولكن قبل موسى عليهم السلام، إذ لا نجد هنا أي ذكر لأمة موسى، مع أن موسى هاجَرَ مع قومه وأقام بعض الوقت في نفس هذه المنطقة التي كان يسكنها قوم شعيب.

وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩١﴾

شرح الكلمات:

ودود: الودود: الكثيرُ الحب، فعول بمعنى فاعل، يقال: هو ودود وهي ودود. الودود في الأسماء الحسنى معناه: المحب أو المحبوب من أوليائه، فيكون بمعنى مفعول (الأقرب).

التفسير: كان ولا يزال أعداء الإسلام يطعنون فيه بأنه قد فتح باب الإثم على مصراعيه بالسماح بالتوبة ظانين أن التوبة في الإسلام تعني ترديد الإنسان بضعَ كلمات باللسان فقط، وهذا يكفيه لغفران معاصيه (ستيارث بركاش ص ٦٦٩).

والحق أن الإسلام لا يعلّم ذلك أبدًا، وإنما التوبة في الإسلام شيء آخر تماما. لأنه يرى أن رجوع المرء عن المعصية إلى الحسنة ثم تقدّمه إلى درجات روحانية عليا لا يتأتى دفعةً واحدة، وإنما يتم على مراحل عديدة. فعلى المذنب -إذا أراد الرجوع إلى ربه- أن يبدأ أولا في محاسبة نفسه بمعنى أن يدرس أحوال نفسه ويتنبّه إلى ما فيه من عيوب وأخطاء، وهذا سيولد فيه الندامة. ثم يقوم بالاستعاذة أي يسعى لتدارك أخطائه مستعينا بالله تعالى. ثم تأتي مرحلة الاستغفار أي يدعو ربه أن يحفظه من تأثيرات وعواقب ما تقدم من ذنبه في الماضي. ثم تأتي مرحلة التوبة أي يبدأ في إنشاء علاقة حب مع الله تعالى بكل ما أُوتي من قوة وطاقة.

إذن فليست التوبة الإسلامية أبدًا ثرثرة باللسان وحده، وإنما هي مرحلة من مراحل عديدة لا بد للعبد من اجتيازها حتى يستطيع العودة من الحالة السيئة إلى الحالة الحسنة أو يتقدم من درجة روحانية متدنية إلى درجة أخرى أعلى منها. ولن يطعن في مثل هذه التوبة إلا الذي هو جاهل تمامًا بحالات النفس البشرية.

مع العلم أن ما ذكرناه هنا من مدارج روحانية كلها مذكورة في القرآن الكريم، بل فيه أكثر من ذلك، ولكنّا لم نفصلها بغية الاختصار.

قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٣﴾

شرح الكلمات:

رهط: الرهط: قوم الرجل وقبيلته؛ وعددٌ يُجمع من الثلاثة إلى العشرة وليس فيهم امرأة، ولا واحد من لفظه، وجمعه أرهُطَ وأرهاط. ومنه في القرآن: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تِسع أنفسٍ. (الأقرب)

عزيز: العزيز: الشريفُ؛ القويُ؛ القليلُ النادر لا يكاد يوجد؛ المكرّمُ، وجمعه: عِزاز وأعزّة وأعزاء. والعزيز أيضا من أسمائه تعالى، وهو المنيع الذي لا يُنال ولا يغالَب، ولا يُعجزه شيء، ولا مثلَ له. والعزيز المِلكُ لغلبته على أهل مملكته؛ والعزيز لقبُ مَن مَلَكَ مصر مع الإسكندرية (الأقرب).

ويتبين من القرآن الكريم أن العزيز، كانت تُطلق أيضًا على وزير المال في زمن الفراعنة.

ظِهريًّا: الظِهري: الذي تجعله وراء ظهرك وتنساه وتغفل عنه (الأقرب)

التفسير: انظروا إلى ما يكنه النبي من حمية وغيرة في سبيل الله تعالى. لو كان هناك أحد غير شعيب لسُرَّ بكلام هؤلاء ولقال في نفسه: ما أكثر ما في قبيلتي من القوة والمنعة حتى ليهابها القوم فلا يتعرضون لي بسوء، ولربما استغل ذلك وهدد المعارضين بقوله: تعالوا إلى ساحة النزال لتعرفوا ماذا سيصنع بكم قومي. ولكن شعيبًا عليه السلام لا يُبدي إلا أسفًا وسخطًا على قولهم هذا ويقول بكل حماسٍ وغيرة: هل عشيرتي أكبر وأعز عندكم من الله تعالى، فتهابونها ولا تخافون الله القهار. والعجيب أنكم لا تمسونني بالسوء خوفًا من قومي، بينما لا تردعكم خشية الله عن خداع الناس ونهب أموالهم بالباطل. إن شعيبًا عليه السلام لا يكترث حين يُعرب عن الحمية والغيرة في سبيل الله تعالى .. بأن عشيرته سوف يعتبرون قوله هذا إهانة لهم وقد يسخطون عليه ويتخلون عنه. كلا، بل تستولي عليه عندئذ فكرة واحدة هي النظر إلى عظمة الله والدفاع عن اسمه العلي الشأن عزّ وعلا.

وقد تعرض نبينا محمد ﷺ لعديدٍ من المواقف المماثلة لذلك، وعبّر فيها عن حبِّه وحميته لله تعالى، بما يليق بمقامه السامي. ومثال ذلك ما حدث في غزوة أُحد لما تشتَّتَ

الجيش المسلم و لم يبقَ حول النبي ﷺ إلا حفنة من أصحابه الفدائيين، وأُشيع بين القوم أن الرسول قد قُتل. فصاح أبو سفيان قائد جيش المشركين: أيها المسلمون قد قتلنا رسولكم، إلاّ أنّ الرسول ﷺ منع أصحابه من الردّ عليه لخطورة الموقف، حتى لا ينتهز العدو تشرّد المسلمين، فيحمل عليهم حملة أخرى. ثم صاح زعيم المشركين: أفي القوم أبو بكر؟ فكفّ النبي أصحابه عن الرد عليه. فقال: ها قد قتلناه أيضًا. ثم صاح: أفي القوم عمر؟ فلم يملك عمر نفسه لشدة الحماس والغيرة فردَّ عليه: نعم، يا عدو الله، إن عمر لموجود لضرب رأسك؛ ولكن النبي كفّه عن الكلام. فهتف أبو سفيان مرتجزًا: أُعْلُ هُبُل، أُعْلُ هُبُل.. أي العظمةُ لِهُبُل صَنمنا. فلم يملك النبي ﷺ نفسه وقال لأصحابه: لم لا تردون عليه الآن؟ قولوا: الله أعلى وأجلّ، الله أعلى وأجلّ (البخاري، الجهاد).

فانظروا كيف أنه ﷺ كان محاصرًا بين الأعداء، وكان أصحابه مشتّتين مشرّدين، ولكن غيرته الشديدة على اسم الله تثور لدى سماع هذه الكلمات التي تمسّ بعظمة الله ﷻ، فيبدي حميته وغيرته وعلى هذا النحو العجيب.

أما قوله ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيحذّر به شعيبٌ قومه بأنكم تثيرون غضب الله عليكم، عندما تعتبرون رهطي أعزّ من الله تعالى فأخاف أن يسحقكم بعذابه ويدمّر تجارتكم، ويضيع جهودكم ولا يُبقي في أيديكم شيئًا.

وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٤﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ

ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٥﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٦﴾

شرح الكلمات:

مكانة: المكانة: المنـــزلة؛ والمكان. (الأقرب)

رقيب: رقبَه وارتقبه: انتظره. والرقيب: الحافظُ؛ المنتظرُ؛ الحارسُ؛ ابنُ العم. والرقيب: من صفات الله تعالى. ورقيب الجيش: طليعتهم (الأقرب).

التفسير: أي اعملوا ما يحلو لكم، ولسوف أستمر في العمل بما يليق بمقامي ومنزلتي، وسوف تُبدي النتائج أيُّ الفريقين منا كان عاملاً برضا الله تعالى، وأيُّنا كان يأتي بما يتنافى مع مشيئته ﷻ.

إن أنبياء الله تعالى في كل زمان ما فتئوا يلتمسون من أقوامهم أن يفوِّضوا الأمر لله تعالى منتظرين حكمه، ولكن الناس دائمًا وأبدًا يأخذون الأمر بيدهم ولا ينتظرون حكم الله، فيعاقَبون.

والمراد من قوله ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي أنا الذي يجب أن يُصيبَه القلق لتأخر حكم الله فينا، وذلك لكوني أنا وأصحابي هدفًا لتعذيبكم واضطهادكم، ولكن الغريب أننا صابرون رغم العذاب، وأنتم على ظلمكم قد نفِد صبركم. أفلا ينبغي أن تصبروا معنا حتى يقضي الله بيننا وبينكم؟

وقوله تعالى ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.. اعلمْ أن موطن قوم شعيب كان منطقةً تكثر فيها الزلازل. فمن الممكن أن يكونوا قد أُهلكوا بعذاب الزلزال كما يدلّ على ذلك ظاهر الكلمات. أو قد تكون كلمتا (الصَّيْحَةُ وجَاثِمِينَ) مجازًا، والمراد أنه حل بهم عذابٌ قَصَم ظهورهم وكسر شوكتهم،

فأصبحوا في بلادهم أذلةً مهانين.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٨﴾

شرح الكلمات:

سلطن: السلطان: الحُجة، تقول: له سلطن مبين.. أي حجة (الأقرب).

التفسير: انسجامًا مع موضوع هذه السورة، لا يتناول القرآن الكريم هنا من أحوال موسى مع قوم فرعون إلا ما يحمل طابع العقاب فقط. فقد تحدث هنا فقط عن الفرعونيين الذين لم يؤمنوا به فهلكوا، دون أن يتطرق إلى ذكر بني إسرائيل الذين صدّقوه فورثوا نِعَم الله تعالى.

لقد سبق أن بينتُ أن فرعون ليس اسمًا لشخص معين وإنما هو لقب لملوك مصر أي لمن حكموا وادي النيل والإسكندرية قبل حكم الرومان هناك. أما بعد استيلاء الروم على الأراضي المصرية فلم يبقَ لهذا اللقب أثر، وإنما كان للملوك الرومان ألقاب رومانية خاصة.

كما لم يكن "فرعون" لقبًا لملوك أسرة واحدة، وإنما أطلق على ملوك من عدة أسر حكمتْ مصر حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف من السنين، وكان عدد ملوك هذه الأسر مختلفًا، فأحيانًا كان يظهر من أسرةٍ واحدةٍ عشرةٌ أو عشرون ملكًا.

وفرعون الذي اصطدم بموسى عليه السلام لم يكن من سكان مصر الأصليين، وإنما كان من أسرة أجنبية، ولذلك كان حذرًا متخوّفًا من الإسرائيليين خشية أن يتآمروا عليه مع أهل البلد الأصليين، أو يهبّوا لحربه. فقد ورد في التوراة: فقال لشعبه: "هو ذا بنو

إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلمَّ نَحتال لهم لئلا ينموا ويتكاثروا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويصعدون في الأرض"(الخروج ١)

وقوله "شعب أكثر وأعظم منّا" لا يعني أنهم أكثر عددًا من أهل البلد جميعًا، وإنما المراد أنهم أكثر من عائلة فرعون وذريتها.

ووُلد موسى عليه السلام في الأيام التي كان فرعون يضطهد بني إسرائيل. وهناك في التوراة أحوال أخرى لموسى منذ الولادة حتى الشباب وما بعده (سفر الخروج ٣ و ٤)، ولكن القرآن الكريم يختلف مع بيان التوراة في بعض الأمور ومنها:

أولاً: تقول التوراة بأن أم موسى لم تقذفه في مياه النيل، وإنما وضعته في سلّة وخبأتها بين نبات يُسمّى الحَلْفَاء على شاطئ النهر، فقد جاء فيها: "أخذت (أُمُّه) له سفطًا من البرديّ وطلَتْه بالحُمَر والزفت، ووضعت فيه الولد ووضعته بين الحَلْفَاء على حافة النهر" (الخروج ٢:٣).

ولكن القرآن الكريم يؤكد أن أمه وضعته في التابوت ووضعت التابوت في النهر حيث جاء فيه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ۝ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ (طه: ٣٩ و٤٠).

ثانيًا: ورد في التوراة أن موسى عليه السلام قتل المصريّ المتشاجر مع العبراني قتلاً عمدًا حيث قيل فيها: فرأى رجلاً مصريًا يضرب رجلاً عبرانيًا من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك، ورأى أن ليس أحد، فقتل المصريّ وطمَره في الرمل (الخروج ٢: ١١-١٢).

بينما يبرئ القرآن الكريم موسى عليه السلام من تهمة القتل المتعمد حيث قال: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ (القصص: ١٦). مما يبين أن موسى لكَمَ المصريَّ على سبيل التأنيب لا بنية القتل، ولكن المسكين مات بلكمة واحدة منه.

ثالثًا: وتذكر التوراة أن موسى رأى في اليوم التالي أيضًا عبرانيّين يختصمان، حيث جاء فيها: "ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان. فقال للمذنب:

لماذا تضرب صاحبك؟ فقال: مَن جعلك رئيسًا وقاضيًا علينا؟ أتفكّر أنت بقتلي كما قتلت المصريّ" (الخروج ٢: ١٣ و١٤).

ولكن القرآن الكريم يصرح أن الخصومة في اليوم التالي ما كانت بين عبرانيين وإنما بين عبراني ومصري، كما هو ظاهر من قوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۞ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (القصص: ١٩ و٢٠).

رابعًا: تقول التوراة إن موسى عليه السلام لما بلغ ماء مدين بعد فراره من فرعون بعد حادث القتل حدث به ما يلي: "وكان لكاهن مِديان سبع بنات، فأتين واستقين وملأن الأجرار يستقين غنمَ أبيهن. فأتى الرعاة وطردوهن. فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن" (الخروج ٢: ١٦-١٩).

بينما يصف القرآن الحادث كما يلي: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۞ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤ و٢٥).

ما أروعَ بيانَ القرآن وما أقربَه إلى الأخلاق الفاضلة الطاهرة، حيث يبين أن الفتاتين كانتا لا تقتربان من الماء حشمةً وحياءً.

وهناك نواحٍ أخرى للاختلاف بين ما ورد في التوراة والقرآن الكريم فيما يخص هذا الحادث، منها:

أ- تقول التوراة بأن سبع بنات للكاهن وردن الماء، بينما يقول القرآن إنهما اثنتان.

ب- تقول التوراة بأنهن كنّ قد ملأن الجِرار بالماء، وأن الرعاة منعوهن من الاستقاء. ولكن القرآن الكريم يبيّن أن الفتاتين لم تقتربا من الماء حشمةً وحياءً، بل ما

زالتا تذودان قطيعهما عن الماء.

ج- تزعم التوراة بأن موسى تصدى للرعاة المتخاصمين مع الفتيات، وأنجدهن وسقى لهن، بينما يعلن القرآن الكريم أنه سقى دون أن يحدث أيّ شجار بينه وبين الرعاة.

خامسًا: تصرّح التوراة بأن الله تعالى أمر موسى أن يرجع إلى مصر ويخرج بني إسرائيل من مصر دون أن يشعر فرعون بأنهم هاربون من ملكه، حيث جاء فيها: "تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له: الرب إله العبرانيين التقانا، فالآن نمضي سَفَرَ ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا" (الخروج ٣: ١٨). وكأن الله تعالى نفسه علَّم موسى الخداعَ والكذب! والعياذ بالله.

ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن الله تعالى أمره أن يذهب إلى فرعون ويقول له صراحةً ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ (طه: ٤٨).

سادسًا: قيل في التوراة بأن الله أمرَ موسى: "تطلبُ كلُّ امرأة جارتها ونزيلةَ بيتها أمتعة فضةٍ وأمتعة ذهبٍ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين" (الخروج ٣: ٢٢).

ولكن الله تعالى يصرّح في القرآن الكريم أن الله تعالى لم يأمرهم بسلب المصريين حليّهم، وإنما أخذوها بأنفسهم غدرًا وخيانةً حيث جاء في القرآن قولهم ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ (طه: ٨٨). وهذا يعني أنهم هم المسئولون عن هذه الخديعة و لم يأمرهم الله بها أبدًا.

سابعًا: لقد وصفت التوراة معجزة "اليد البيضاء" كما يلي: "فأدخل (موسى) يده في عُبّه (أي جيبه)، ثم أخرجها وإذا يده برصاءُ مثل الثلج (الخروج ٤: ٦) أي صارت يده بيضاء نتيجة البرص.

بينما يصرّح القرآن الكريم أنها صارت بيضاء نيّرة كآية ومعجزة، دون أن يكون بها أيُّ مرض حيث قال: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً

أُخْرَى﴾ (طه: ٢٣).

ثامنًا: تزعم التوراة أن هارون اعتُبر أخًا لموسى لكونه فردًا من اللاويين عشيرته، ولم يكن شقيقًا له حيث ورد فيها: "أليس هارون اللاويّ أخاك، أنا أعلم أنه هو يتكلم" (الخروج ٤: ١٤).

ولكن القرآن الكريم صريح في أن هارون كان شقيقًا لموسى عليهما السلام، حيث جاء فيه قول هارون لموسى:﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ (طه: ٩٥) والمراد من يَبْنَؤُمَّ.. يا ابنَ أُمّي.

تاسعًا: تعتبر التوراة هارون شريكًا مع بني إسرائيل في عبادة العجل، بل داعيًا إلى هذا العمل الوثني المنكر حيث تقول: "فضربَ الرب الشعبَ، لأنهم صنعوا العجل الذي صنعه هارون." (خروج ٣٢: ٣٥)

أما القرآن الكريم فيبرئ ساحة هارون من هذه المعصية براءةً كاملة معلنًا: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه: ٩١).

ولا أرى حاجة لأي تعليق من جانبنا على هذه الاختلافات بين التوراة وبيان القرآن الكريم. والحق أن الكُتّاب المسيحيين أنفسهم يعترفون بوجود التحريف والتلاعب بما ورد في التوراة. فقد قالوا في الموسوعة البريطانية أن جزءًا كبيرًا من التعاليم الحمورابية قد دُسّت إلى كتاب موسى في شكل ملخص. (الموسوعة البريطانية، كلمة موسى). كما أنهم خطَّئوا بيان التوراة أنه كان لهارون ضلعٌ في عبادة العجل، واستدلوا بذلك على أن عديدًا من الأمور قد أُضيفت إلى التوراة فيما بعد.

وباختصار، فإن العقل السليم والعلم الحديث كليهما متفقان على صحة بيان القرآن الذي نزل بعد موسى بألفي سنة، وعلى كون بيان التوراة مشكوكًا فيه، رغم ادعاء أهلها أنها كانت قد دُوّنت في زمن موسى عليه السلام.

أما التساؤل لماذا سُمّي موسى بهذا الاسم، فتقول التوراة بأن سببه أنه انتُشل من

الماء (خروج ٢:١٠). ولكن العجيب أنها –من جانب آخر– تُنكر إلقاء أمه له في مياه النيل. ولكن القرآن الكريم يعلن ويؤيد بكل صراحة إلقاءَها له في اليم.

أما كلمة "هارون" فليس لها أي معنى باللغة العبرية. ويرى الباحثون المعاصرون أن الكلمة جاءت من إحدى لغات شمال الجزيرة العربية (الموسوعة البريطانية، كلمة (Aaron). وهذا يعني أن العبرانيين في زمن موسى كانوا لا يزالون على صلةٍ بلغتهم الأصلية أي العربية التي اشتُقت منها العبرية.

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٩﴾

شرح الكلمات:

يقدم: قدَمَ القومُ يقدُمُ قدمًا وقدومًا: سبَقهم. قدَم فلانٌ على قرنه: شجع واجترأ عليه. قدُمَ على العيب يقدَم: رضيَ به. وقدُم من سفره: عاد. وقدم البلد: أتاه. (الأقرب)

أورَد: ورد البعيرُ وغيره الماءَ: بلغَه ودناه من غير دخول، وقد يحصل دخول فيه وقد لا يحصل. وورَدَ زيدٌ الماءَ: خلافُ صدر عنه. وأورده إيرادًا: أحضرَه المورِدَ، ثم استُعمل لمطلق الإحضار (الأقرب).

الوِرد: العطَش؛ القطيعُ من الطير؛ الإبلُ الواردة؛ الجيشُ؛ النصيبُ من الماء؛ الماءُ الذي يورَد؛ القومُ يرِدون الماءَ (الأقرب).

المورد: موضعُ الورود؛ الطريقُ إلى الماء (الأقرب).

التفسير: يعني أن العاقل إنما يتبع أوامر من يهديه إلى الصواب وينفعه، ولكن هؤلاء الأغبياء اتبعوا فرعون الذي كانت أوامره تؤدي بهم إلى الهلاك.

وأما قوله تعالى ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ فمعناه: ما هي الفائدة التي جَنَوْها من إتباع فرعون الذي ألقى بهم إلى النار، وبئست النار وردًا.

ولقد ذكرتُ في شرح الكلمات أن (أورد) تعني أصلا أحضرَ على المورد أي الماء، ولكن القرآن استخدمها بمعنى إحضارهم على النار. ذلك ليبيّن أنهم سوف يُعطَون النار التي تدمّر الحياة عِوضًا عن الماء الذي هو سبب الحياة المادية والروحانية على السواء، وفق قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣١). وهكذا بيَّن أن جهودهم التي بذلوها لتدمير حياتهم الروحانية بدلاً من إحرازها سوف تتمثل لهم بصورة النار المدمرة في يوم القيامة.

كما يمكن أن يكون المراد منه أنهم سوف يدخلون النار فعلاً، ولكن دخولهم فيها سوف يحقق لهم ما يحققه وارد الماء، بمعنى أن دخولهم النار سوف يشفي غليلهم الروحاني كما يشفي ورودُ الماء غليل العطشان، أي أن النار سوف تكون سببًا لتطهيرهم تطهيرًا باطنيًا.

كان الناس في القديم يقومون بكيّ الحيوانات على وجهها وأطرافها، ولقد كره النبي ﷺ هذه العادة كرهًا شديدًا (مسلم، السلام)، إلا أنه لما وجد أنهم يكووها أيضًا كعلاج لها من الأمراض، سمح لهم بهذا حين لا يكون منه بد قائلاً: "آخرُ الدواء الكيّ". وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم هنا بأن عطشهم سوف يعالج بالنار، وسيكون ذلك آخر علاج لتطهيرهم من أمراضهم.

وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

شرح الكلمات:

الرِفد: رفَدَه يرفد رفدًا: أعطاه؛ أعانه، (يقولون): هو نعم الرافد إذا حلّ به الوافد.

والرِفد: العطاءُ والصِلة. وأصل الرِفد ما يضاف إلى غيره ليعمده، وفي القرآن "بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ" أي العون المعان أو العطاء المعطى (الأقرب).

التفسير: أي.. أن الإنسان إذا اتبع الشرير جلب عليه خزي الدنيا والآخرة.

واعلم أن (لَعْنَةً) لم ترد هنا كسبٍّ وشتيمةٍ، وإنما جاءت بمعناها الحقيقي أي البُعد، والمراد أنهم ما داموا قد عاشوا في الدنيا بعيدين عن الله تعالى، فإنهم سوف يُحرَمون من قربه جلّ شأنه في الآخرة أيضًا.

وقد تشير كلمة (الرِّفْدُ) إلى شخص فرعون، والمراد أنهم بدلاً من أن يعودوا إلى الله مالوا إلى فرعون، واعتمدوا عليه، وما أسوأه من عمادٍ، إذ تَسبب في عذابهم، لأن عمادهم أي فرعون هَوَى بنفسه أيضًا في الجحيم التي دفعهم إليها.

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠١﴾

شرح الكلمات:

حصيد: حصَدَ يحصُدُ ويحصِد حَصدًا وحِصادًا: قطعه بالمنجل. حصَدَ القومَ بالسيف: قتلهم. حصد الرجل: مات (الأقرب).

التفسير: يمكن أن تفسَّر كلمة (الْقُرَى) بمفهومين: الأول: أهل القرى باعتبار كلمة (أهل) محذوفة ونظيره قول إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي اسألْ أهل القرية. فالمراد من قوله ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيد﴾ أن بعض أهل هذه القرى (أي الشعوب) لا تزال ذريتهم قائمة باقية، وبعضها قد انقرضت أو صارت شبه منقرضة.

والمفهوم الثاني: هو القرى نفسها، والمراد من قوله تعالى ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيد﴾ أن آثار بعض هذه المدن لا تزال باقية بينما لم يبقَ لبعضها الآخر أي أثر. وهكذا يلفت الله الأنظار إلى حقيقة تاريخية مهمة بأن بعض الشعوب التي مرَّ ذكرها آنفًا لا تزال

آثارها ومعالمها موجودة باقية، بينما اندرست آثار بعضها الآخر نهائيًا أو أصبحت في عالم المجهول. وإذا كان الأمر كذلك فلا يحق للمستشرقين أن يعترضوا على القرآن الكريم بحجة أنهم لم يعثروا على آثار بعض هذه الشعوب، لأنه بنفسه يعلن أنه لم يعد لبعضها آثار تعرف ولا معالم تُرى.

ولو أنهم يعثرون عليها في المستقبل فهذا أيضًا لا يقدح في القرآن العظيم لأنه يصفها بكلمة (حَصِيد)، والحصيد ما قُطع بالمنجل، والمعروف أن النبات المقطوع بالمنجل تبقى أصوله محفوظة باقية.

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

شرح الكلمات:

تتبيب: تَبَّبَه: أهلكه (الأقرب).

التفسير: يؤكد القرآن الكريم مرة بعد أخرى أننا لم نُعاقب أية أمة إلا بسبب أعمالها، وليس ظلمًا وإجحافًا منا. والسبب لهذا التأكيد المتكرر من القرآن الكريم هو أن الله تعالى يعلم منذ الأزل أنه سيأتي على الناس زمان يقوم فيه بعض المتكلّفين رياءً بالدفاع عن تلك الأمم البائدة مدعين بأن الله تعالى قد ظلمهم وأغلظ عليهم العقاب، مع أنهم لم يرتكبوا ما ارتكبوه من أخطاءٍ إلا نتيجة قضاء الله وقدره! ولذلك نجد الله تعالى لم يتحدث في القرآن عن عقاب قومٍ إلا ونفى الظلم عنه، وهكذا أنكر ورفض وجود أي قضاء وقدر له من هذا القبيل، بأن يرفع سبحانه قومًا دونما استحقاق ويضع آخرين دون أيّ علّةٍ أو سبب.

كما أن كلمات القرآن هذه تشير إلى أن عقاب كل أمة يكون ملائمًا لحالتهم

ونتيجةً منطقية لأعمالهم.

وأشار بقوله ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ إلى أن كل ما في الكون من ماءٍ أو هواءٍ أو نارٍ فإنه ينفعهم، ولكن آلهتهم لا تملك لهم أي نفع. فمثلاً أيُّ شك في أن سيوف الكفار قد نفعتهم في حربهم ضد المسلمين حيث تسببت في استشهاد بعض أصحاب النبي ﷺ، ولكن متى نفعتهم آلهتهم بصورة عملية كهذه؟ فما أشدّهم غباءً حيث يتخذون ما لا يجلب لهم أي نفعٍ إلهًا.

وقوله تعالى ﴿لَّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن زيف الآلهة الباطلة إنما ينكشف حينما يقضي الله بكشف بطلانها وبيان كونها مجرد أوهام لا تضر ولا تنفع، أما قبل ذلك فلا ينفكّ الناس يعزون إليها شتى المنافع والبركات، ولكن حين ينـــزل القضاء من الله تعالى فلا يملكون حيالَه شيئًا، ويظهر بطلان شركهم للعيان.

وهنا يطرح سؤال نفسه: ما بال القرآن الكريم يعلن من جهة أن الآلهة الباطلة لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ومن جهةٍ أخرى يقول عنها ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾.. أي أن هذه الآلهة الباطلة زادتهم خسرانًا وهلاكًا؟

هنا يجب أن نعلم أن الضرر نوعان: خياري واضطراري. ومثال الضرر الخياري أن يُلحق أحد بصاحبه ضررًا عن قصدٍ وإرادة، ومثال الضرر الاضطراري أن يسقط السقف مثلاً على أحد ويهلكه، فلا دخل لأي إرادة من جهة السقف في هلاكه، إنما كان هذا نتيجةً طبيعيةً لسقوطه عليه.

وبعد فهم هذين النوعين من الضرر لا ينبغي أن يصعب على المرء إدراك مراد القرآن الكريم في هاتين العبارتين. فعندما ينفي القرآن الكريم أي ضرر من قبل الآلهة يعني به الضرر الخياري الذي يكون ناتجًا عن إرادة تلك الآلهة، وحينما يتحدث عمّا تلحقهم آلهتهم من ضرر فيقصد به الضرر الاضطراري الذي لا دخل لهذه الآلهة فيه. وأي شك في أن الآلهة الباطلة هي السبب الأكبر في إلحاق الضرر الاضطراري بالناس، لأن الإشراك بالله هو أكبر من أية جريمة أخرى (سورة لقمان: ١٤).

عندما أمر النبي ﷺ عند فتح مكة بقتل بعضٍ من كبار المجرمين معلنًا أنه لا أمان لهم، أُهرع هؤلاء إلى الكعبة المشرفة وأمسكوا بأستارها لائذين بها، ظنًا منهم أن آلهتهم التي وضعوها فيها سوف تحميهم، ولكنهم قُتلوا مع ذلك. (السيرة الحلبية، فتح مكة). ولو أنهم لم يفكروا هذا التفكير الخاطئ لربما لاذوا بالفرار ونجوا من القتل. وهكذا فإن قوله تعالى ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ يعني أن فساد عقائد المشركين يؤدي إلى خلل وفساد في مكائدهم أيضًا.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٣﴾

التفسير: لقد ذكر هنا الغرضَ من سَرد أحوال الأمم السابقة، وبيّن أنه إذا نزل العذاب بساحة قوم محا كل أثر لهم. فليحذر الذين يناصبون محمدًا العداء، فلا يسلكوا طريقًا يؤدي بهم إلى العذاب!

وكلمة (ظَالِمَةٌ) جاءت هنا بمعنى مشركة. فقد استخدم القرآن الكريم الظلم بمعنى الشرك في مواضع عديدة منه، كما أن هذا المعنى ثابت في أحاديث الرسول ﷺ (البخاري، التفسير، الدخان)، والمراد من الآية أن العذاب الذي يترل على قوم عند زوال التوحيد الحقيقي من بينهم يكون عذابًا مدمّرًا للغاية، أما الهلاك الذي يترل بالأمم نتيجة العوامل الطبيعية فيحل بهم تدريجيًا ولا يكون شديدًا مثل الأول.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ

النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٤﴾

التفسير: يمكن أن يتساءل هنا أحد: ما الفائدة من العذاب ما دام لا يعتبر بآية العذاب إلا الذي يخشى الآخرة من قبل، وأما الذي لا يخافها من قبل فلا يستفيد منها.

الجواب: يجب أن نتذكر جيدًا أن كلمة (الآية) لا تعني هنا أن ذلك العذاب يكون دليلاً على عذاب الآخرة، وإنما جاءت (الآية) هنا بمعنى العبرة، وأيّ شك في أن العذاب الدنيوي إنما يكون عبرةً لمن يؤمن بوجود عذاب الآخرة. إذن فالآية تتحدث فقط عن المؤمنين بالآخرة وتقول: إن رؤية العذاب الدنيوي تذكّرهم بعذاب الآخرة، فيجدّون أكثر في السعي لكسب الدار الآخرة.

وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ يعني أن ذلك اليوم في حد ذاته ضروري لتكميل روحانية الإنسان، فليس هو وسيلة لهدف آخر وإنما هو بنفسه مقصد وغاية. وهكذا بيّن أن جمع الخلق كلهم في يوم معين ليس بدون غاية، ولن يكون حادثًا اعتباطيًا، بل سيتم بمشيئة إلهية ولهدف خاص هو كشف الحقائق كلها.

الحق أن القرآن الكريم يبيّن أن كل ما يصدر عن الإنسان من عمل فإنه لا يكون في الحقيقة عملاً خالصًا من لدنه وحده، بل تكون أعماله كلها متأثرة بعوامل كثيرة من قِبل الآباء والظروف السابقة لميلاده، أو مِن قِبل زملائه وأخلاقهم ومن قِبل الذين سيأتون بعده، ولا بد من النظر إلى هذه العوامل والتأثيرات كلها عند تقييم أي عمل من أعمال الإنسان.

فعلى سبيل المثال هناك شخص قد تعود على ارتكاب الجرائم، ولكن عادته هذه ناجمة عن خلل تكويني في مُخِّه وَرِثَــه عن أحد آبائه الأوائل الذي كان مجنونًا أو شبه مجنون. فلا نستطيع أن نقول بأنها جريمته فقط، بل لا بد أن نضع في الاعتبار الحالة العقلية لجدّه هذا، وإلا فسوف نكون مخطئين لا محالة في تقييم هذه الجريمة. وما دام

الأمر كذلك فلا بد من يوم يُجمَع فيه الناس كافةً مع أعمالهم لِيُنظر في الظروف التي ارتكبوها فيها، ذلك لكي يرى كل واحد منهم أعماله مع الأسباب والظروف التي تمّت فيها، فتنكشف له ولغيره حقيقة أعمالهم انكشافًا تامًا، فيدركون ويطمئنّون بأن التفاوت في جزاء الناس لا ظلم فيه ولا إجحاف، إنما هو عدل وقسط من الله تعالى الذي يردّ كل فعل يقترفه الإنسان إلى مسبباته الحقيقية والدوافع الإرادية وغير الإرادية التي تكمن وراءه.

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٥﴾

شرح الكلمات:

لأجلٍ: لِلّام الجارّةِ اثنان وعشرون معنىً، والثامن منها موافقة (إلى) (أي أنها تكون بمعنى إلى) نحوُ: له أي إليه (الأقرب).

التفسير: الأجل نوعان: أجلٌ يمكن نقله من مكانه، حيث له دائرة محددة يمكن أن يتقدم أو يتأخر فيها دون أن يتجاوزها، ومثاله عمر الإنسان، فيمكن أن يطول أو ينقص في دائرة معينة ولكن يستحيل أن يتعداها. وهناك أجلٌ آخر لا يحيد عن مكانه، وهو أجل خاص بعمر الكون، فهو معدود محدّد، فعندما يحين موعد فنائه لا يمكن أن يحيد عنه قيدَ أنملةٍ، فلا يتقدم أو يتأخر ولا للحظة واحدة.

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٦﴾

التفسير: أي أن ذلك الوقت هو وقت قيام الحساب الإلهي وصدور حكم الله

تعالى، فلن يتكلم عندئذ أحد إلا بإذن الله جلّ جلاله.

اِعلم أنه لا يُسمح للناس في المحاكم الدنيوية بالكلام إلا بأمر من الموظف المجاز وذلك منعًا للضجيج الناتج عن كلام الناس المتداخل، ولكن ليس هذا هو السبب في امتناع الناس عن الكلام يوم القيامة، بل إنهم لن يتكلموا إطلاقًا إلا مَن أذِنَ الله له، لأن كل نفس سوف تعرف أن لا جدوى من تقديم المعاذير أمام عالم الغيب. غير أن الله تعالى سوف يتولى بنفسه الدفاع عن عباده برحمته الكاملة ويسمح لهم بتقديم ما عندهم مما يمكن أن ينفعهم أو ينفع غيرهم في تخفيف جرائمهم أو تعظيم حسناتهم.

أما قوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فاعلم أن الشقي هو من ليس فيه ميل إلى الخير ولا يتأثر قلبه من دواعيه. والسعيد من يميل إلى الخير بطبعه دونما تكلف أو رياء. وفي ذلك اليوم سوف يُكرَم السعيد لصدق إيمانه وسوف يُخذل الشقيُّ ويُهان.

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٧﴾

شرح الكلمات:

زفير: زفَرَ يزفر زَفرًا وزفيرًا: أخرجَ نفَسَه بعد مدِّه إياه؛ وزفرت النار: سُمع صوت لتوقُّدها. والزفير: الداهيةُ؛ أولُ صوت الحمار (الأقرب).

شهيق: شهق الرجل يشهق شهيقًا: تردَّدَ البكاءُ في صدره. وشهيقُ الحمار: آخر صوته. (الأقرب).

التفسير: لقد شبّه القرآن هنا الكفار بالحمار. وقد ذكر أحدَ أسباب هذا التشبيه في موضعٍ آخر منه بأنه كما لا يمكن للحمار أن يصير عالمًا بحمل الكتب على ظهره، بل يبقى حمارًا كما هو، كذلك حال المعرضين عن الحق، فإنهم رغم علومهم الظاهرة، يبقون محرومين تمامًا من المعرفة والروحانية الحقيقيتين.

ثم إن الحمار مشهور بغبائه،كما أنه حيوان جبان وفق قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾(المدّثّر: ٥١-٥٢). وهذا هو حال الكفار أيضًا. والحق أننا لو أمعنّا النظر لأدركنا أن هذين الأمرين يمثّلان أكبر عائق في سبيل إيمان الناس. ذلك إما أنهم لا ينتفعون بما يقدّم إليهم من علوم ومعارف بسبب حمقهم وغبائهم أو أنهم لا يقبلون الحق وقد استيقنته أنفسهم خوفًا من الجبّارين من القوم. وفي كلتا الصورتين يؤكدون شبَهَهم بالحمار.

وقوله تعالى ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ يؤكد أن هذه الأصوات سوف تصدر عمن يدخلون في الجحيم. فاتضح من ذلك أن الآيات التي يبدو منها أن الجحيم هي التي سوف تُحدث هذه الأصوات إنما معناها الحقيقي أن هذه الأصوات سوف تصدر نتيجة بكاء أهل النار وعويلهم.

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٩﴾

شرح الكلمات:

سُعِدوا: سُعِدَ على المجهول وسعَد ويسعِد سعادةً: ضدُّ شَقِيَ، فهو مسعود على الأول، وسعيد على الثاني، واللفظُ يأتي مرةً بصيغة الفاعل ومرةً بلفظ المفعول والمعنى واحد، نحو عبد مكاتِب ومكاتَب، وبيتٌ عامرٌ ومعمور، ونظائره كثيرة. والسعد:

اليُمن وأسعدَ عليه: أعانه (الأقرب).

مجذوذ: جذَّ الشيءَ: كسرَه؛ قطعَه مستأصِلاً. وجذّ: أسرعَ. وجذَّ النخلَ: صرَمَه. عطاءٌ غير مجذوذ: أي غير مقطوع. (الأقرب)

التفسير: هذه الآية تلقي الضوء على قضية هامة يختلف فيها الإسلام مع الأديان الأخرى اختلافًا كبيرًا، ألا وهي قضية النجاة.

فالهندوس يرون أن الجنة والجحيم (أي الثواب والعقاب) كلتيهما محدودة الزمن. ينال الإنسان جزاء أعماله ثوابًا أو عقابًا في العالم الآخر، ثم يرجع إلى الدنيا مرة أخرى (ستيارث بركاش ص٥٦٩). وإنّ كل الفِرق الهندوسية -رغم اختلافها في الأمور الأخرى- متفقة على هذه العقيدة.

وبعد الشعب الآري الذي جاء منه الهندوس يُعتبر الشعب السامي من أكبر الشعوب القديمة، الذي ينتمي إليه اليهود نسلاً والنصارى دينًا. ويرى اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا إذ لا مكان فيها لغير اليهود، وأن الجحيم شبهُ محرمةٍ على اليهود، وإذا كان لا بد من دخول يهودي فيها فإنه لن يبقى فيها إلا لمدة أحد عشر شهرًا على الأكثر (ترجمة سيل للقرآن، ص١٠). أما غيرهم فكلهم في الجحيم التي لا نهاية لها، وسوف يبقون فيها للأبد.

وأما النصارى فيرون أن كلاً من الجنة والنار أبَديّة لا نهاية لها ولا انقطاع. غير أن هناك فِرقًا منهم تعتقد أن الجنة سوف تنتهي في آخر الأمر (رسالة بولس الثانية كورنثوس ٥، والمكاشفة ١٤: ٩-١١).

ولكن الإسلام يعارض هذه النظريات كلها معارضةً شديدةً. والنظرية الإسلامية في هذا الشأن كما ذكرها الأسلاف (تفسير الرازي)، وكما أكد عليها في هذا العصر سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام بأسلوب خاص هي أن الجنة أبدية ولزمن غير محدود، ولكن الجحيم ليست كذلك، بل إنها سوف تنتهي بعد مرور زمن (الخزائن الروحانية ج ٣، إزالة أوهام ص٢٨٠، وأيضًا الخزائن ج ٢٢ حقيقة الوحي

ص١٨٩).

وأما قوله تعالى عن الجحيم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فقد اختلف المفسرون فيه كثيرًا، فقال بعضهم: إن (مَا) جاءت بمعنى (مَن) التي هي لذوي العقول، والتقدير: إلا من شاء ربك، بمعنى أن الجحيم أبدية ولكن الله تعالى سوف يُخرج منها بعد فترة من يشاء من عباده الموحّدين. (القرطبي)

ولكن المفسرين الآخرين يردّون على ذلك قائلين: لا شك أن (مَا) تأتي أحيانًا بمعنى (مَن) شريطة أن يكون بعض غير ذوي العقول ضمن ذوي العقول هؤلاء، ولكن هذا الشرط غير متوفّر هنا، فلا يصح اعتبار (مَا) بمعنى (مَن). وهناك شروط أخرى لمثل هذا الاستخدام وهي أيضًا غير متوفرة في هذه العبارة.

ولقد ساق الفريق الأول من المفسرين شواهد أخرى من الآيات القرآنية على ورود (مَا) بمعنى (مَن)، ومنها قوله تعالى ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء﴾ (النساء: ٤)، ولكن الفريق الآخر يقول بأنها لم تُستخدم في هذه الآية ومثيلاتها بالمعنى الذي يريدونه. وأنا أيضًا متفق مع الذين لا يرون (مَا) بمعنى (مَن).

ثم يجب أن يتذكروا أن القرآن الكريم قد وصف عقاب العاصي الذي سيدخل النار –سواء كان مؤمنًا بالله موحدًا أو كافرًا به مشركًا– بكلمة واحدة، فبأيّ كلمة يفرّق أصحاب الرأي الأول بين عقوبة المؤمن الفاسق وعقوبة الكافر المشرك ممن يدخلون النار. يقول القرآن الكريم موجهًا الكلام إلى المسلمين الموحدين: ﴿وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء: ١٥)، ويقول لهم أيضًا ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٤).وقال في موضع آخر ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن: ٢٤) والخطاب قبل هذه الآية موجّه إلى الكفار ولا شك، ولكن القاعدة المذكورة هنا لا تخص الكفار وحدهم، بل هي عامة تشمل كل العصاة سواء من أهل الإيمان والتوحيد أو أهل الكفر والشرك.

إذن فلا يجوز تحديد عموم الآية بأي حال.

ويرى الآخرون أن (مَا) هنا ظرفية والمراد منها هو الفترة التي تكون قبل دخولهم النار في عالم البرزخ وغيره (الرازي)، ولكن هذا أيضًا غير صحيح، لأنه تعالى قال من قبل (خَالِدِينَ فِيهَا)، فالاستثناء جاء عن الخلود، ولا يتحقق هذا الاستثناء إلا بعد دخولهم في النار.

ثم إن الخلود يعني الزمن المُقبل لا الماضي كما يتضح هذا من قوله تعالى ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

وقد اختلفوا أيضًا في الاستثناء الوارد عن أهل الجنة في قوله تعالى ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاء رَبُّكَ﴾، فيرى البعض: أن هؤلاء الذين استثناهم هنا هم أصحاب الأعراف أو مَن يخرجهم الله من النار بعد فترة ويدخلهم الجنة.

الواقع أنهم وقعوا في هذه المشكلة واضطروا لهذه التأويلات لأنهم من جهة وجدوا الآية صريحة في إعلانها أن عذاب جهنم عذاب مؤقت وسينتهي بعد فترة، ولكنهم من ناحية أخرى كانوا يعتقدون خطأً أن الجحيم أبدية وعذابها غير منقطع مثل الجنة التي نعيمها أبديٌّ وغير محدود. مع أن الحق أنه ليس القرآن الكريم وحده الذي يعلن عن خراب جهنم بعد فترة من الزمن، بل إن الأحاديث الشريفة أيضًا تؤكد ذلك، فقد ورد في الحديث: "ليأتينّ على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها، ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابًا" (مسند أحمد). وكأن الخلود يعني هنا العيش فيها لقرونٍ.

لقد انتقد بعض المحدّثين هذه الرواية بقولهم بأن أحدًا من رواتها كذّاب، ولكن الحق أن لا قيمة لانتقادهم هذا، لأن الرواية تذكر نفس ما ذكره القرآن الكريم واصفًا أهل النار بقوله ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (النبأ: ٢٤).

وقد ذكر صاحب "فتح البيان" أن نفس هذا المعنى مروي أيضًا عن ابن مسعود وأبي هريرة. وقد نقل العلاّمة البغوي الرواية نفسها عن أبي هريرة، مما يؤكد صحتها

(فتح البيان).

والإمام ابن تيمية أيضًا قال بفناء جهنم وأخبر أن هذه هي عقيدة عمر وابن عباس وأنس وكثير من المفسرين. وأما الإمام الحافظ بن القيم وهو تلميذ لابن تيمية ومن كبار الصوفية فقد كتب بحثًا مستفيضًا عن فناء جهنم في كتابه "حادي الأرواح في بلاد الأفراح" (فتح البيان).

وقد فسّر البعض كلمة (خَالِدِينَ فِيهَا) بأنها تعني مكوثهم في النار دومًا، ولكنهم قالوا أيضا بأن الله تعالى حينما يقضي على جهنم بسبب رحمته الواسعة فلا تبقى هناك أي جهنم، وهكذا ينتهي أيضًا خلودهم فيها.

لقد نقل ابن جرير عن الشعبي "أن جهنم أسرع الدارَيْن عمرانًا وأسرعهما خرابًا" (تفسير ابن جرير، تحت الآية).

وقال ابن مسعود: "ليأتينّ عليها زمان تخفق بها أبوابها". ونفس القول مروي عن جابر وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم(فتح البيان).

ثم إن هناك رواية في البخاري ومسلم تؤكد فناء جهنم، خلاصتها: أن الله تعالى سوف يمنح للملائكة والنبيّين والمؤمنين حق الشفاعة، فيذهب المؤمنون ويشفعون لإخوانهم، ويُخرجون من النَار من يعرفونهم. فيعودون إلى الله "فيقول لهم: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينارٍ من خيرٍ فأَخرِجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نَذر فيها أحدًا ممن أمرتنا به. ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأَخرِجوه، فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خيرٍ فأخرِجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا. ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا.. فيقول الله تعالى: شفعت الملائكةُ وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضةً من النار، فيُخرج منها قومًا لم يعملوا الخير قط (مسلم كتاب الإيمان، والبخاري، الردّ على الجهمية).

يتضح من هذا أن الله تعالى سوف يُخرج من الجحيم حتى أولئك الذين لم يعملوا أية حسنة قط. وهذا يشكّل دليلاً على فناء جهنم، إذ لا يمكن أن يكون من أهلها أحدٌ أحطَّ درجة من هذا الصنف من الناس، فما دام هؤلاء أيضًا سيُخرجون منها فمعنى ذلك أنها ستفنى وستنتهي.

كما يجب أن نعلم أن "قبضة الله" لا تعني قبضة مادية، وإنما هي تعبير عن إحاطة الشيء إحاطةً كاملةً، وهذا أيضًا دليل أنه لن يُبقي في جهنم أحدًا إذ لا يمكن أن يبقى شيء خارجًا عن الإحاطة الإلهية. كما نستنتج من هذه الرواية أن من سيستحق عذاب النار سوف ينال نصيبه منها أولاً، ثم يُخرج منها لينال جزاءه على ما فَعَل من خيرٍ، لأنه تعالى يقول ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزال: ٨)، وهذا يؤكد أن النجاة هي نصيب الجميع في آخر المطاف، وأن الجحيم فانيةٌ في آخر الأمر.

وكل هذه الروايات توضح تمامًا أن معظم الصحابة وكبار التابعين يتمسكون بالرأي الذي نتمسك به نحن المسلمين الأحمديين في هذه المسألة، بل إن القرآن الكريم نفسه مؤيد لموقفنا كما يتبين من آياته التالية:

أولاً: نفس هاتين الآيتين اللتين نحن بصدد تفسيرهما: فمما لا شك فيه أن الله تعالى قد قال فيهما عن الفريقين ﴿إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، ولكنه فرّق بين وصفهما، إذ وصف الجنة بكونها ﴿عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير منقطع، بينما قال في وصف جهنم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وفيه تأكيد شديد على أمر ما، وليس هذا التأكيد إلا على إخراج أهل النار منها لا محالة. فالجملة مؤكدة أولاً بكونها جملة اسمية، ثم بحرف (إِنَّ) المؤكّدة، ثم باسمين للمبالغة (ربّ) و(فَعَّالٌ). فإذا كان الله تعالى لا يريد إخراجهم من النار أبدًا، فما الداعي لهذا التأكيد المتكرر يا تُرى؟!

ثم إذا كانت الجحيم غير منقطعة مثل الجنة فلماذا لم يقل في وصفها مثلاً: (عقابًا غير مجذوذ) كما قال عن الجنة ﴿عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.. أي أن أهل الجنة سيعيشون بحسب مشيئتنا ولا شك، ولكن مشيئتنا فيهم هي أن يخلدوا فيها دون أن تنقطع أو

تفنى.

وهذا الدليل من القوة والجلاء بحيث إن الإمام ابن حجر الذي كان معارضًا لرأي الإمام ابن تيمية القائل بفناء الجحيم.. اضطرّ للقول بأن الله تعالى قد صرّح بمشيئته عن أهل الجنة، ولكنه لزم الصمت عن أهل النار.

ولكن الواقع أن الله تعالى لم يسكت عن إظهار مشيئته فيما يتعلق بأهل النار، بل صرّح عنها هنا بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.. أي أنه ﷻ سوف يحقق فيهم لا محالة مشيئته المشار إليها في قوله ﴿إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ .

ثانيًا: قال الله تعالى ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: ١١٩- ١٢٠). والمراد من قوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أنه خلقهم لكي يرحمهم. وقد روى ابن كثير عن ابن عباس قوله: "للرحمة خلقهم و لم يخلقهم للعذاب" (ابن كثير).

وروى ابن وهب عن طاووس: "أن رجلين اختصما إليه فأكثرا". فقال طاووس: اختلفتما وأكثرتما. فقال أحد الرجلين: لذلك خُلقنا. فقال طاووس: كذبتَ. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾؟ قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. وكذا قال مجاهد والضحّاك وقتادة (ابن كثير).

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أن المراد من قوله تعالى ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هو: للرحمة خلقهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي للرحمة والعبادة (الدر المنثور).

والبديهي أنه لو بقي البعض في الجحيم إلى أبد الآباد فلن يُعتبر خلقهم للرحمة، بل يكون منافيًا لمدلول هذه الآية.

ثالثًا: قد ورد في القرآن في عدة أماكن وصف نعيم الجنة بأنه أبدي غير منقطع كقوله تعالى ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: ٧)، وقوله تعالى ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

(الانشقاق: ٢٦). ولكن لم يرد هذا الوصف عن النار مما يؤكد أن هناك فرقًا بين جزاء الجنة وعقاب الجحيم فيما يتعلق ببقائهما وانقطاعهما.

رابعًا: قال الله تعالى ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧). فهذه الآية تؤكد أن رحمة الله تسع كلَّ شيء، ولكن عذابه أمر عارض عابر، وأن من سيعاقَب بالعذاب سوف تسَعه أيضًا رحمة الله في آخر المطاف. فإنه قد جعل العذاب هنا لأفراد معينين، وجعل الرحمة شاملةً للناس كافة بل للأشياء جميعًا ليؤكد أن عذاب جهنم سوف ينتهي في يوم من الأيام حتمًا، وإلا لم تكن رحمته واسعة لكلّ شيء.

وهناك آية أخرى بهذا المعنى ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ (غافر: ٨). لقد ذكر هنا سعة علم الله ورحمته معًا. فالزعم بحرمان البعض من الرحمة الإلهية ببقائهم في العذاب دون نهاية يستلزم أن نعتقد أن هناك أشياء تخرج عن دائرة العلم الإلهي. وكما أن هذا الظن باطل بالبداهة، كذلك باطل حرمان البعض من الرحمة الإلهية ببقائهم في النار الأبدية.

وقد يقول هنا قائل: هذا المنطق يلزمنا أن نعتقد بأن البعض لن يعاقَبوا حتى عقابًا مؤقتًا، وإلا سنضطر للقول بأن البعض يخرجون من علم الله خروجًا مؤقتًا؟

والجواب أننا إذا سلّمنا بانتهاء العذاب في آخر الأمر فلا بد لنا من التسليم أيضًا بأن العقاب في الآخرة وسيلة للإصلاح في واقع الأمر، وإذا كان العقاب يهدف للإصلاح فلا شك في كونه مظهرًا من مظاهر الرحمة الإلهية، ومثاله مثال العقاب الذي يترله المعلم بتلميذه. وهكذا فإنه لا يخرج عبد من عباد الله من رحمته الواسعة ولو للحظة، بل يبقى دائمًا تحت ظلها. ولكن لن يكون الأمر كذلك إذا اعتبرنا العذاب أبديًا دون نهاية.

خامسًا: يقول الله تعالى ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٣٠-٣١)، أي الذي يصير عبدًا حقيقيًا لله تعالى يُدخله في الجنة. ويقول عزَّ مِنْ قائل في

موضع آخر ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧) أي أن كل إنسان سوف يصبح في آخر الأمر عبدًا حقيقيًا لله ﷻ، لأن هذه هي غاية خلقه التي لا يمكن أن يبقى محرومًا للأبد من إحرازها. وحيث إن الناس جميعًا سوف يصيرون عبادًا لله تعالى -عاجلاً أو آجلاً- فلا بد من أن يدخلوا جميعًا في الجنة أيضا في آخر الأمر.

سادسًا: يعلن ربنا جلّ شأنه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزال: ٨). ولكن تخفيف العذاب عنه لا يعني أنه رأى نتيجة الخير الذي فعله. لذلك من الضروري أن يعاقَب المرء على سوء أعماله لفترة، ثم ينتهي عقابه ليرى جزاء أعماله الحسنة.

سابعًا: يخبرنا الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (القارعة: ٩-١٠) أي الذي لا تكون أعماله ذات ثقل وقيمة فإن جهنم ستكون بمثابة أمٍ له. والظاهر أن الجنين لا يبقى في بطن أمه للأبد، بل يمكث فيه إلى حين اكتمال نموه واكتساب قوته. كذلك العُصاة إنما يمكثون في الهاوية أي الجحيم إلى أن تنمو وتنضج فيهم الملكات التي تمكّنهم من الرؤية الإلهية.

وباختصار، إن كل هذه الآيات تصرّح بأن جهنم ليست أبدية غير منقطعة، وأن الخلود لا يعني البقاء بدون نهاية، وإنما يعني فقط زمنًا طويلاً قد عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾.

وأما قول الله تعالى عن أهل الجنة والنار: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ فإنما المراد منه أنهم سيمكثون هناك إلى زمن بقاء سماء وأرض الجنة والجحيم. فما دامت الجحيم ستؤول إلى الفناء هكذا -مع العلم أنه ليست هناك أية آية في القرآن تنفي انتهاء الجحيم- فلا شكّ أن مكوث أهلها فيها أيضًا سيصل إلى النهاية. ولكن الجنة، كما بيّنتُ، عطاءٌ غير مجذوذ أي غير منقطع بخلاف الجحيم كما صرّح القرآن.

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إلا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١١٠﴾

التفسير: يمكن أن تُعتبر (ما) الواردة في قوله تعالى ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء﴾ موصولة أو مصدرية بمعنى: فلا تكُ في مريةٍ وشكٍ من الذين يعبدهم هؤلاء، أو من عبادتهم لهؤلاء. فالمراد من الجملة:

أولاً: لا تستغرب من أنه كيف يمكن أن يشرع أحد في عبادة شيء سوى الله تعالى. ذلك أن الإنسان الذي لا يفكر فيما يرثه عن الآباء من عقائد ونظريات، لا يُستبعد منه ارتكاب مثل هذه الحماقة. ونظرًا إلى هذا المعنى لا بد من التسليم أن الآية لا تخاطب من عاشوا زمنَ نزول القرآن الكريم، وإنما تخاطب أهل زمنٍ سوف يمّحي فيه الشرك عن أعين الناس وسوف يُكتب الانتشار والغلبة للتوحيد الخالص، حتى يستغرب المرء عندئذ متسائلاً: هل يمكن أن يعبد الإنسان شيئًا ما سوى الله تعالى. وهكذا تمثّل هذه الآية نبًا عن غلبة التوحيد. والذين كانوا يعيشون في مركز الإسلام في زمن غلبته قد رأوا بأم أعينهم تحقُّقَ هذا النبأ القرآني، بل إن أهل عصرنا أيضًا ليعجبون من العديد من عقائد الكفار المشركين التي تحدث عنها القرآن الكريم.

ثانيًا: وقد يكون المعنى: أيها المخاطب، لا تحسَبَنّ أن هؤلاء سوف ينجون من العذاب، فإنهم يقتدون بآثار الأولين، وما دام الأولون لم ينجوا من العذاب الذي استحقوه فكيف يمكن أن يكون هؤلاء في مأمن منه.

ثالثًا: وقد تعني الآية: أن لا تظنّ بأن شركاءهم الذين يعبدونهم هم الذين أمروهم بما أدّى بهم إلى الشرك. كلا، بل لم يأمرهم أحد بشيء من هذا القبيل، وإنما هي أفكار وأوهام ورثوها عن آبائهم الذين اختلقوها من عند أنفسهم.

وكلمة (غَيْرَ مَنقُوصٍ) حال مؤكّدة لقوله تعالى ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، لأن

التوفية نفسها تعني أداءً وافيًا كاملاً، فجاء قوله ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ تأكيدًا لنفس المعنى بأنه لا الأولون نجوا من العذاب كجزاء وفاقٍ على ما فعلوه، ولا هؤلاء سينجون منه.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١١﴾

التفسير: الآن عند نهاية السورة لفت الأنظار مرة أخرى إلى الموضوع الذي ذكره في مستهلها وقال: إن الوحي كان ولا يزال يترل من عند الله تعالى، ولكن الناس لا ينتفعون به. لقد أنزلنا على موسى كتابًا تضمن نبًا عن نزول كتاب سماوي آخر، ولكن الناس نسجوا حول هذا النبأ سياجًا من الشكوك والشبهات غير مكترثين بفداحة جريمتهم، والحق أنه لولا قرارٌ سبَقَ من جانبنا لدمّرناهم على جريمتهم النكراء هذه.

والقرار المشار إليه هو نفسُ ما ذكره في الآيتين التاليتين وما شابههما: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧) وقوله:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٧).. أي أن الله تعالى قد خلق العباد ليرتقي بهم ارتقاء روحانيًا، وقد قضى أن يعاملهم برفقٍ ورحمةٍ، ولذلك لا يتعجل عقابَهم على أخطائهم حتى لا يُحرَموا من الرقي الروحاني بل لينالوا الهدى.

وقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إشارة إلى أمرين، الأول: إن هذا الكتاب نزل لتطهير الناس من الشكوك والوساوس، ولكنهم عادوا وبدئوا يشكون فيه بسبب أمراضهم الباطنة. والثاني: أنهم بدلاً من أن ينتفعوا ممّا أنزلنا إليهم برحمتنا الواسعة ويكونوا عبادًا لنا شاكرين يقعون فريسةً لشتى أنواع الشبهات حول ما نزل إليهم، ظانين أنه لو كان هذا كتابًا صادقًا فلماذا لا يعذّبنا الله على رفضنا إياه؟

وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

التفسير: المفسرون لا يختلفون في بيان معنى هذه الآية، ولكن اللغويين منهم قد ذهبوا مذاهب شتّى فيما يتعلق ببيان تركيبها. ويرجع اختلافهم إلى كلمة (لَمّا)، لأنها قد استُخدمت هنا خلافَ الاستخدام الشائع. فهي تُستخدم عمومًا على ثلاثة أوجه: أولها أن تختص بالمضارع فتجزمه وتنفيه وتقلبه ماضيًا كقوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الجمعة: ٤).

وثانيها: أن تختص بالماضي فتقتضي جملتين وُجدَت ثانيتُهما عند وجود أولاهما نحوُ: لَمَّا جاءني أكرمته، وقال ابن جنّي: إنها تكون عندئذ ظرفًا بمعنى (حين)، وقال مالك: بمعنى (إذ).

وثالثها: أن تكون حرف استثناء، فتدخل على الجملة الاسمية نحو: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (سورة الطارق: ٥)، كما تدخل على الماضي لفظًا لا معنىً نحوُ: أُنشِدُك الله لَمَّا فعلتَ أي ما أسألك إلا فِعلَك. (مغني اللبيب).

ونظرًا لاستخدامها غير الشائع هذا وقع النحويون في المشاكل حتى قال المبرد: "إنها لحنٌ". وقال الكسائي: "ما أدري ما وجهُ هذه القراءة" (روح المعاني تحت الآية).

وقال ابن جنّي: (لَمَّا) زائدة، ولكنه لم يقدم على قوله دليلاً. بينما يرى الآخرون: "أنها مركبة من (لِمن مّا)، فأُبدلت النون ميمًا وأُدْغِمَتْ، فلمّا كثرتْ الميماتُ حُذفت الأولى. وهذا القول ضعيف، لأن حذف مثل هذه الميم استثقالاً لم يثبت".

"وأضعَفُ منه قول آخر: إن الأصل (لَمَّا) بمعنى جمعًا، من لَـــمَّ يلمّ بمعنى جمعَ، كقوله تعالى ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا﴾، ثم حُذف التنوين إجراءً للوصل مجرى الوقف، لأن استعمال (لَمَّا) في هذا المعنى بعيد، وحذف التنوين من المنصرف في الوصل أبعد". (مغني اللبيب).

وأرى أن أفضل الآراء ما يراه ابن الحاجب حيث يقول: "إنها (لَمَّا) الجازمة حُذف

فعلها، والتقدير: لَمَّا يُهمَلوا، أو لَمَّا يُتركوا". (مغني اللبيب).

مع العلم أن (لَمَّا) تفارق (لم) الجازمة للمضارع في خمسة أمور منها: أن مَنفيَّ (لم) لا يجوز حذفُه بينما يجوز حذفُ منفيّ (لَمَّا) كقول الشاعر:

فجئتُ قبورَهم بدءًا ولـــمّا ونـاديتُ القبورَ فلم يُجِبْنَهْ

أي زُرتُ قبور أسياد قومنا ولم أكن بعد بدًا (أي سيدًا)، ولكن القوم أخذوا يعتبرونني كبيرًا لهم.

وقد فضَّلَ ابن هشام رأي ابن الحاجب، إلا أنه يرى أن المحذوف هو (يهملوا أو يتركوا) والتقدير هو: (لَمَّا يوفَّوا أعمالهم) أي أنهم إلى الآن لم يوفَّوها وسيوفَّونها. ويتفق العلامة محمد ابن حيان الأندلسي أيضًا مع هذا الرأي، ولكنه يرى أن التقدير (وإنْ كلاً لَمَّا ينقصْ من جزاء عمله) (البحر المحيط).

والرأي عندي ما يراه ابن الحاجب فإنه ثابت من اللغة ومطابق للقواعد العربية، وأما الآراء الأخرى فإننا لا نخطئها تمامًا نظرًا لما يحتلّه أصحابها من مكانة علمية مرموقة، ولكنها بعيدة عن المألوف وبادية التكلّف.

أما مسألة المحذوف فهي مسألة هامشية وبسيطة، لأن القاعدة في مثل هذه الظروف أن يكون المحذوف ملائمًا للسياق. والمحذوفات الثلاثة التي بيَّنَها أئمة اللغة هؤلاء متقاربة المعنى في الحقيقة، ويمكن أن تختار أيًّا منها، وإن كنت أرى أن ما ذكره ابن هشام أحقُّ بالترجيح لمطابقته للكلمات القرآنية وتقديره: "وإنّ كلاً لَمَّا يوفَّوا أعمالهم ليوفّيَنَّهم ربك أعمالهم"، والمعنى هو يجب أن لا يغتر أحد بما نعطيهم من مهلةٍ فيظن أنهم سينجون من العقاب. كلا، فإن أعمالهم مسجلة لدينا، كما أن المهلة ليست إلا لمدة محدودة معينة، وسوف يأتي يومٌ تنتهي فيه المهلة فينالون فيه جزاءً وافيًا على ما ارتكبوه من السيئات.

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾

شرح الكلمات:

استقِمْ: استقام الأمر: اعتدل، ويقال: استقام له الأمر، وفي القرآن: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي في التوجه إليه دون الآلهة (الأقرب). واستقامة الإنسان: لزومُه المنهجَ المستقيم (المفردات).

لا تطغوا: طغى يطغى طغًى وطُغيانًا وطِغيانًا: جاوَزَ القَدْرَ والحدَّ. طغى فلان: أسرفَ في المعاصي والظلم (الأقرب).

التفسير: تعلن هذه الآية أن الرسول ﷺ ليس بمسئول عن نَفسه وحدها، بل من واجبه أيضًا العمل على إصلاح أتباعه. ونفس هذه المسئولية تقع على خلفائه والمؤمنين به. والحق أن الإنسان يصاب بالهول بالنظر إلى ضخامة هذه المسئولية كمًّا وكيفًا. فكمّيتها مذكورة في قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ و﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾. وأي شك في أن ثبات الإنسان على أوامر الله تعالى دون انقطاع مصطحبًا زملاءه وأصحابه ليس بأمر هيّن أبدًا. وأما كيفيتها ونوعيتها فمذكورة في قوله تعالى ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾. وهكذا تتعاظم هذه المسئولية لأنه تعالى يأمرنا أن تكون استقامتنا إلى المستوى الذي يريده. وما أشدَّ وما أصعب على الإنسان الضعيف أن يحقق هذا المستوى في العمل بأوامر رب السماوات والأرض.

كما يتضح من الآية أن الاستقامة وحدها لا تنفع الإنسان شيئًا، وإنما تنفعه الاستقامة التي تتفق مع المشيئة الإلهية اتفاقًا كاملاً. يظنّ بعض الناس جهلاً أنهم مواظبون على الصلاة والصوم فلا خوف عليهم. ولكن الواقع أن الصلاة أو الصوم في حد ذاته ليس شيئًا مطلوبا ولا غاية منشودة، وإنما الهدف الحقيقي أن يعيش الإنسان

مطيعًا لأوامر الله تعالى، ومنقادًا لمشيئته. بل الحق أن الصلاة أو الصوم نفسه يمكن أن يجعل الإنسان شيطانًا مريدًا إذا قام به خلافًا لحكم الله تعالى، فمثلاً قال النبي ﷺ "لا يتحرى أحدكم.. فيصلّي عند طلوع الشمس ولا عند غروبها" (مسلم، الصلاة). كما نهى عن صوم يومين يوم الفطر ويوم الأضحى وقال لا يصوم فيهما إلا الشيطان. فالحق والحق أقول: إنه لا يمكن للإنسان أن يرث أفضال الله تعالى ما لم يكن سلوكه تابعًا للمشيئة الإلهية تمامًا، وما لم يكن رضوانه ﷻ هو الحافز لكل عمل يصدر منه.

كما تبيّن الآية أنه لا مناص لمن كان يؤمن بالله ورسوله الكريم ﷺ من إتباع أسوته الحسنة، لأن الله تعالى يأمر هنا ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ . وهذا يعني أن المقياس الحقيقي لصحة أي عمل هو ما وضعه الله لرسوله وما بيّنه ﷺ بأسوته الحسنة، وإلا لم يوجّه الخطاب إلى الرسول والمؤمنين معًا في كلمة واحدة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، بل قال: أما من تاب معك فعليه كذا وكذا. وفي هذا تنبيه أن من واجب المؤمنين أن يتأسوا دائمًا بأسوة الرسول الكريم. والواقع أن تحقيق هذا الهدف صعب جدًا، وأنه مهما سعى المرء وكدح في سبيل ذلك فإنه لا يزال بحاجة إلى المزيد من الجهد، لأننا لا نستطيع أن نقول: سنسعى بحسب مستوانا ودرجتنا، والرسول يسعى وفق مقامه ومترلته، كلا، بل إنّ الله تعالى يأمر أن يحاول المؤمنون أيضًا الوصولَ ثم الثباتَ على نفس المقام الذي هو مأمور للثبات عليه.

ولكن المؤسف هو أن المسلمين قد أساءوا الفهم والعمل وانحطوا لدرجة أنهم لا يسعون بأنفسهم للوصول والثبات على هذا المقام، وإذا ما منَّ الله على عبد من عباد الله بهذا المقام الأسمى سمّوه كافرًا ودجّالاً. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وقوله تعالى ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ يوضّح أنه لا ينفع الإنسان من أعماله إلا ما كان ملائمًا للموقف. فمثلاً إذا بدأ أحد يرفع ذكر الله باللسان عاليًا في موعد الصلاة بدلاً من أدائها، أو قام بأعمال تحول دون الصوم في أيام الصيام، أو صام في وقت القتال وتخلف عن الجهاد، فلن تغنيه هذه الأعمال شيئًا. لذلك على الإنسان أن يفكر دائمًا

ويرى أي الأعمال أفضل في ذلك الوقت وفي ذلك الموقف، ويسعى للعمل بما يلائم المواقف، لأن العمل الذي يتفق مع مقتضى الحال هو الذي يُكسبه رضوان الله تعالى.

إنه لما يثير دهشتي أن أحدًا من المفسرين العصريين ذوي الفطنة الخامدة قد فسّر على ضوء هذه الآية قولَ الله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٧٠) حيث قال: كما أن الصحابة لا يمكن لأحد منهم أن يصبح "خاتم النبيين" عملاً بهذه الآية من سورة هود، كذلك لا يمكن لأحد من الأمة أن ينال درجة النبوة عملاً بهذه الآية من سورة النساء، كما تزعم الجماعة الإسلامية الأحمدية. (بيان القرآن، الآية).

ولكني أقول: إن "مع" هنا تعني المعيّة في عمل التوبة وليس في "ختم النبوة". فهل يوجد هناك مدّعٍ واحد يقول بأن الصحابة –رضوان الله عليهم أجمعين– ما كانوا تائبين، وإنما كان الرسول ﷺ هو التائب وحده. فإذا كان الرسول وأصحابه كلهم نالوا درجة التائبين، وإن كان بين توبته وتوبتهم بَون شاسع جدًا، فلماذا لا نقول عن آية سورة النساء بأن كِلا الفريقين سوف ينال النبوة وإن كان بين درجاتهما تفاوت كبير دون شك.

لقد تركتْ هذه الآية في قلب النبي ﷺ من الوقع والتأثير ما جعله يقول: "الهُود وأخواتها شيّبتني قبل الشيب" (الدر المنثور، سورة هود). ذلك أنه ﷺ فكّر أن هؤلاء التائبين معه ليسوا مشمولين فيمن هم في زمنه فحسب، بل سوف يكونون في أمته إلى يوم القيامة، فكيف يمكن أن يحمل المسئولية عن تربيتهم أيضًا. هذا هو التفكير الذي كان يَقُضُّ مضجعه فعجّل إليه الشيب. غير أن الله ﷻ قد فَرِح لقلقه وخشيته هذه بحيث كفل له المهمة ووعده بأنه تعالى لا يزال يبعث في هذه الأمة أناسًا يحظون بقربه لإتباعهم خطوات النبي المباركة ويقومون بإصلاح الأمة.

هذا، ويجب أن نفكّر الآن في أنفسنا لنرى ما الذي فعلناه لأداء هذه المسئولية

مقارنةً بما فعله الرسول الكريم ﷺ، لأن الله تعالى قد فرض علينا -كما فرض على رسوله- إصلاحَ أنفسنا، والاهتمام أيضًا بإصلاح المؤمنين الآخرين. ويستطيع كل إنسان أن يدرك بأدنى تدبر أن العمل بهذا الأمر الرباني لا يمكن أن يتم بدون نظام كامل، لأن المؤمن يستطيع أن ينصح إخوانه المؤمنين الذين حوله، ولكن يستحيل عليه تفقُّد حال المسلمين جميعًا وتوجيه النصح للمؤمنين القاطنين في مختلف أرجاء العالم، اللهم إلا أن يكون هناك نظام متكامل لهذه المهمة ويكون هذا المسئول جزءًا منه، وعندئذ سوف يتحقق له ذلك وهو جالس في بيته. وإنه يمكن أن يصبح جزءًا من هذا النظام إذا دعمه بماله أو وقته أو قلمه أو لسانه أو معرفته مساهمًا في كل خدمة تتم في إطار هذا النظام. وفي الوقت الحاضر إنما هي جماعتنا الإسلامية الأحمدية التي تمتاز بهذه الميزة، فهي الجماعة الوحيدة التي تقوم بواجب تبليغ الإسلام في شتى بلاد العالم تحت نظام قائم. وعندما يرسل فلاّح بسيط من أفرادها من قرية نائية في بنجاب أو رجل كادح يقطن جبال أفغانستان وهو يجهل جغرافيتها أقول إن مثل هؤلاء الناس البسطاء حين يرسلون شيئا من دَخلهم إلى صندوق الجماعة فإنهم لا يؤدون بذلك واجبهم الشخصي نحو التبليغ فيما حولهم فحسب، بل إنهم يشتركون أيضًا في الجهود التي تُبذَل لنشر الإسلام في جاوا وسومطرة وأوروبا وإفريقيا وغيرها من البلاد والقارات، وهكذا فإنهم يؤدون -ولو إلى حدٍّ ما- هذا الواجب الذي يفرضه الله عليهم في هذه الآية.

كما أن الآية توجه أنظارنا إلى أهمية توعية الأولاد، ولكن الأسف أن الناس لا يهتمون بهذا الأمر كما ينبغي.

رُوي عن أبي عليّ السرّي قوله: رأيت (أي في المنام) النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، رُوي أنك قلتَ: شيّبتْني هُود؟ قال: نعم. فقلت: ما الذي شيّبَك، قصَصُ الأنبياء وهلاكُ الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (سُنن البيهقي، شُعب الإيمان).

وقد روى الدارمي وأبو داود في مراسيلهما والبيهقي في شعب الإيمان: قال رسول الله ﷺ: "اقرءوا هودَ يوم الجمعة" (البيهقي، شعب الإيمان).

وهذا أيضًا يؤكد علاقة هذه الآية بالنظام والجماعة، لأن يوم الجمعة أيضا يوم اجتماع ونظام.

أفليس عجيبًا إذن أن لا تذوب قلوبنا من تأثير هذه السورة التي بلغ وقعها في قلب النبي –رغم صبره وجلَده– إلى حد أنها شيّبته قبل أوان المشيب، مع أننا أحق منه بخشية الله تعالى.. لكي يُعيننا على أداء هذا الواجب الثقيل الذي ألقاه على عواتقنا الضعيفة.

والواقع أن الإسلام لا يقيم للنجاح الفردي أي وزن ولا قيمة، ولذلك إذا لم ننهض بالقوم كلهم وفي جميع المجالات فلن نحقق في الحقيقة أي فلاح، وإلى ذلك يشير الله بقوله ﴿وَلا تَطْغَوْاْ﴾ أي أن عدم الاعتناء بباقي القوم ظلم وطغيان، لأن التهاون بهم سوف يتيح الفرصة للسيئة كي ترفع رأسها من جديد. إن إحراز الفرد الواحد رقيًا كبيرًا ومقامًا عاليًا لا يجدي العالم فتيلاً، لأن الظلمة ستُخيّم مرة أخرى فورَ وفاته. وإنما النجاح الحقيقي أن يسلك الجميع سبل الخير حتى يتم القضاء على الشر كليةً. ولكن الأسف أن المسلمين –رغم هذا التعليم القرآني الصريح– لم يتخلفوا اليوم في مجال العلوم الدينية فحسب، بل أيضًا في مضمار العلوم المادية والترقيات الدنيوية. فلا يساهمون في عملية النهوض بالإنسانية من الناحية المادية إلا قليلاً، بينما يسعى أبناء الأمم الأخرى بكل شجاعة وبسالة في إحراز قصب السبق في كل المجالات العلمية.

وأمّا قوله تعالى ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعني أنه ينظر إلى جهودكم الجماعية كما ينظر إلى جهودكم الفردية.

وَلا تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿١١٤﴾

شرح الكلمات:

لا تركنوا: ركنَ إليه يركن وركُن يركنُ ركونًا: مال إليه وسكن (الأقرب).

التفسير: لقد بيّن هنا مبدءًا هامًا ألا وهو أن مَن كان على صلة بالظالم يشمله أيضًا العقاب الذي يحل بالظالم.

وأما علاقة هذه الآية بالتي قبلها فهي أن هذه تنبه على ضرورة مراقبة المؤمنين الآخرين وتفقد حالاتهم لكي يبقوا ثابتين على الإيمان. ذلك أنكم إذا تهاونتم في أداء هذا الواجب تجاه إخوانكم فإنهم سوف ينحرفون عن جادة الاستقامة ويصبحون في عداد الظالمين ويستوجبون العقاب، وحيث إن الأشياء المتواصلة المترابطة يتأثر بعضها ببعض، فلا بد أن تسري إليكم عيوب إخوانكم الظالمين ما دمتم على صلة بهم، وهكذا يصبح فسادهم بمثابة فسادكم أنتم. وكأن الله تعالى يحذّرنا أن قطع الصلة عن الإخوان والأحباب موت، كما أن الإبقاء على الصلة مع الأقارب الظالمين أيضًا موت، والطريق السليم إنما هو الطريق الوسط: أن تهتموا دائمًا بمراقبتهم وإصلاحهم ولا تدَعوهم يفسدون، كيلا تضطروا لقطع الصلة بهم وكيلا تفسدوا أنتم باستمرار الصلة بهم.

كما أن للآية معنى آخر أيضًا وهو أنه قال من قبل ﴿لا تَطْغَوْاْ﴾ أي عليكم بالكف عن الظلم بأيديكم، والآن يقول: ليس هذا فقط هو المطلوب منكم بل يجب أن تدركوا أن صحبة الظالم ومساعدته بأي شكل من الأشكال أيضًا ظلم يستوجب العقاب. إن كثيرًا من الناس لا يظلمون بأيديهم، ولكنهم يرتكبون الظلم بإخفاء ما يرتكبه أصدقاؤهم من ظلم وعدوان، ويسعون لإنقاذهم من العقاب الذي استوجبوه على جرائمهم، فيجب أن يرتدعوا بهذا الإنذار الربّاني عمّا يفعلون.

وأشار بقوله ﴿وَلا تَرْكَنُواْ﴾ أنه إذا ذهب أحد إلى الظالم لسدّ حاجة أو تصريف

عمل مشروع فليس هذا مما يعاقَب عليه، وإنما يستوجب العقابَ إذا ارتاح وسكن إلى ما يرتكبه الظالم من أعمال عدوانية و لم يعرب عن كراهيته لها وبراءته منها.

وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٥﴾

شرح الكلمات:

طَرَفَيِ النهار: الطَرَف: حرفُ الشيء ونهايته؛ الناحيةُ؛ طائفةٌ من الشيء (الأقرب) والمراد من (طرفي النهار) هو الصبح والمساء.

زُلفًا: جمعُ زلفة، وهي: القُربة؛ المنـــزلةُ؛ الطائفةُ من أول الليل؛ وقيل: الساعاتُ التي يلتقي بهما الليل والنهار (الأقرب). وقيل لمنازل الليل زُلف. (المفردات)

التفسير: تعلّمنا هذه الآية طرقًا يتحقق بها صلاح القوم، وعلاقتها بما قبلها من الآيات هي أن الله تعالى قد ذكر من قبل المسؤوليات التي تقع على النبي وعلى أتباعه ﷺ، وبما أن القيام بتلك المسؤوليات الضخمة يفوق قدرة الإنسان فلذا علّمنا هنا طرقًا تسهل علينا إنجاز هذه المهمة الشاقة. وإليكم بيان هذه الطرق:

أولا: عليكم بالعبادة والابتهال إلى الله تعالى، لأن عونه وحده هو الذي سوف يساعدكم على أداء هذا الواجب العظيم تجاه الإصلاح القومي.

وثانيا: اغزوا قلوب القوم بالقدوة الحسنة، لأن الكلمات وحدها لا تستطيع قلع الشرور وقمع السيئات من المجتمع، وإنما هي الحسنات التي تقوم باستئصالها. فبقوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ يعلّمنا الطريق الذي نستدرّ به رحمة الله تعالى القادرة على تغيير القدر الإلهي لصالحنا، وبقوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

السَّيِّئَاتِ﴾ يَدُلّنا على التدابير التي يتم بها القضاء على المساوئ.

ومن هذه التدابير والوسائل:

١. يجب أن تكون أعمالكم حسنة، لأن الناس سوف يقتدون بأسوتكم الحسنة، وهكذا سوف تنمحي السيئات من بينكم تلقائيًا.

والحق أننا إذا أمعنا النظر أدركنا أن قليلا مَن هم الذين يُعملون الفكر والتدبر لاتخاذ مسلك معين في أمور الدين، اللهم إلا من كانوا في زمن بعثة الأنبياء وصاروا من أتباعهم، فهؤلاء يختارون سبيلهم بعد تفكير وروية. أما الناس في العصور الأخرى فإنهم يقلّدون الآخرين عمومًا في دينهم، وهكذا تلعب الأسوة الحسنة دورًا بارزًا في توطيد الخير بين المجتمع، لأن الذين حولك سوف يقلدون أسوتك الحسنة حتمًا، وبالتالي سوف ينجو قطاع كبير من القوم من المساوئ والشرور تلقائيًا.

٢. والوسيلة الثانية لاستئصال الشر هي أن تقوموا بوعظ القوم ونصحهم بالخير، وفي هذه الصورة تؤخذ كلمة (الحسنات) بمعنى النصائح الحسنة.

٣. والوسيلة الثالثة أن تعاشروا الناس بالحسنى، فهذا أيضا يساعد على قمع الشر، لأنكم إذا عاملتموهم بإحسان أحبوكم، وبالتالي قبلوا نصيحتكم.

كما أن الآية تعلّمنا اثنين من أسرار الرقي الفردي:

أولهما: أن الإنسان إذا تعوّد على الحسنات تخلّص من العادات السيئة تلقائيًا. فمن أراد إصلاح نفسه فليعمل من الحسنات ما يتعارض مع ما يوجد فيه من القبائح، وسيرى أنه سيتحرر دون صعوبة من تلك المساوئ.

وثانيهما: أنه من أراد تفادي عواقب الذنوب التي ارتكبها في الماضي فليفعل الخيرات أكثر فأكثر، فكلما ازداد خيرًا وصلاحًا حمى نفسه من عواقب ما تقدّم من ذنبه.

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾

التفسير: أي أن المثابرة على الخير شرط أساسي. فما دام الله يرتب النتائج على الأعمال السيئة فلماذا لا يأتي بنتائج الأعمال الحسنة. ولكن الشرط أن لا يُبدي الإنسان قلقًا ولا يترك السعي مللاً.

فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾

شرح الكلمات:

أولواْ بقية: البقية: مَثل في الجودة والفضل، يقال: فلان بقية القوم، أي من خيارهم. و "أولوا بقية" أي من الرأي والعقل، أو أولو فضل (الأقرب).

أُترِفوا: أَترَفَته النعمةُ: نعَّمته؛ أطغته وأبطرته (الأقرب)

التفسير: أي ما دام القانون الجاري منذ القِدم هو أن الفساد يتطرق إلى القوم إذا ما أُهملوا و لم يتفقّد أحد حالهم فمن واجب أصحاب العقل والرأي منهم أن لا يتغافلوا عن أداء واجبهم تجاه توعية الآخرين حتى يقضوا على الشر من بدايته، كيلا تنمو بذرته ولا تزدهر، فينجو القوم من الهلاك. ولكن الأسف أنهم لم ينتبهوا إلى واجبهم القومي، إلا قليلاً منهم، وبدلاً من أن يتدبروا في أسباب هلاك الأمم الغابرة ويُنقذوا شعوبهم منه، شرعوا في جمع ما خلفَته الشعوب الهالكة قبلهم من متع الدنيا، وهكذا أصبحوا هم أنفسهم ظالمين وحُرموا من قرب الله سبحانه وتعالى.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٨﴾

شرح الكلمات:

مصلحون: أصلَحَه: ضد أفسَدَه. أصلح الأمر بعد فساده: أقامه. أصلح بين القوم: وَفَّق. أصلح إليه: أحَسنَ إليه (الأقرب)

التفسير: تعلن الآية أن إنزال العذاب بقوم دونما جريمة منهم ظلم، وأن الله أسمى من أن يكون ظالما. ولكن الغريب أن مسلمي اليوم يتعرضون لعذاب تلو العذاب، ومع ذلك يزعمون أنهم بخير وسائرون على المنهج الصحيح! وكأنهم يعلنون أن الله – والعياذ به– ظالم إذ يعذبهم رغم كونهم صلحاء.. لا تصدر عنهم جريمة ولا يأتون السوء!

وفي الآية درسان لمن يريد أن يستفيد منهما؛ الأول: أن العذاب لا يترل بأحد دونما جريمة وفساد، فإذا رأيتم آثار العذاب فعليكم بأخذ الحيطة بمحاسبة أنفسكم.

والثاني: أن السبيل لدفع العذاب هو أن ينسى القوم ما يوجد بينهم من خلافات ويعقدوا صلحًا فيما بينهم، ويبدءوا في النصح بالخير.. أي أن يتحدوا ويسعوا لإزالة ما في مجتمعهم من عيوب. هذا هو العلاج الحقيقي الناجع؛ ذلك أنه لا يُحدث في أي قوم الانحطاط والتردي إلا سببان اثنان فقط: الأول: الفُرقة والتشتت. والثاني: تَسَرُّب العيوب والمساوئ إليهم. فإذا أزالوا من بينهم أسباب الانحطاط هذه نهضوا من جديد وازدهروا لا محالة.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٩﴾

إِلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لامْلأنَّ جَهَنَّمَ

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٠﴾

التفسير: يتضح بالتدبر في معنى هذه الآية والتي قبلها معًا أن الإنسان كلما تقدم في مجال الخير والصلاح ازداد صبرًا وثباتًا، وكلما ازداد صبرًا شملته الرحمة الإلهية أكثر فأكثر.

وأما قوله تعالى ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فيعني إنما خلقناهم ليصبحوا موردًا لرحمتنا، وليس المراد منه أنه خلقهم من أجل الاختلاف، لأنه تعالى قد صرّح في مكان آخر من القرآن الكريم ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧)، وأيضًا قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

والمراد من قوله تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أنني سأملؤها ممن يتبعون الشيطان، وليس أنني أملؤها من الناس عمومًا. ذلك أن الله تعالى قد ذكر هنا إتمام كلمةٍ له وهي وعد من لدنه تعالى، وهذا الوعد نجده مذكورًا في قوله تعالى للشيطان عندما سأل الله مُهلةً: ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٩).. أي لك أن تغوي الناس، ولكن تذكّر جيدًا أنني سوف أملأ جهنم منك وممن تبعك أجمعين. فلا شك أن هذه الآية إشارة إلى نفس هذا الوعد المذكور في سورة الأعراف، إذ لا نجد في القرآن أي أثر لأي وعد آخر كهذا. فالمراد أنه تعالى سوف يملأ جهنم ممن يتبعون الشيطان، لا أنه يلقي فيها المؤمنين أيضا دونما جرم أو ذنب.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا تحدث الله عن هذا الوعد هنا خاصة؟ والجواب:

أولاً: لقد أعلن من قبل أننا إنما خلقنا الناس لرحمتنا، ولكنه عندما تحدث عن العذاب نشأ سؤال طبيعي هو: ما دام قد خلقهم لرحمته فلماذا يعذبهم إذن؟ فقال دفعًا لهذا الإشكال: لا شك أننا خلقناهم لرحمتنا، ولكنا كنا أعلنّا أيضًا أن من يتبعون منهم الشيطان لن يتحقق لهم وعد الرحمة منا فورًا، بل سوف يُلقَون أولاً في النار التي تتلاءم

مع المزاج الناري للشيطان الذي اتبعوه، ليدركوا كيف أن الإنسان إذا أعرض عن الكائن النوراني -أي النبي- هوى إلى مكان سحيق.

وثانيًا: لقد أعلن الله بقوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أننا إنما خلقنا الناس لرحمتنا وسوف نشملهم بها، فنشأ عن ذلك الإعلان سؤال يقول: فأين إذن قولك ﴿لَأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، فرد عليه قائلا: لقد تم هذا الوعد بإبقائهم في جهنم كل هذه الفترة، فالآن نحقق لهم وعد الرحمة وندخلهم الجنة. وكأن هذا السؤال سينشأ عندما يُخرج الله أهل النار من الجحيم ويدخلهم الجنة.

وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

التفسير: يتضح من هذه الآية جليًا أن القرآن الكريم لم يهدف بسرد أخبار أنبياء الله السابقين إلى بيان التاريخ، وإنما نبّأ بها بأن النبي ﷺ أيضًا سوف يمر بأحوال مشابهة لها، وإلا كيف يكون سردها تثبيتًا لقلب النبي ومدعاةً لطمأنينته. لا شك أننا إذا اعتبرناها أنباءً عما سيحدث معه في المستقبل فإنها تصبح عندئذ مجلبةً للسكينة والطمأنينة له، لأنه عرف بها مسبقًا مكائدَ قومه التي سيلجئون إليها ضده، ومصيرَهم الذي سيئُولون إليه. بل الحق أنه كان لزامًا عليه ﷺ أن يمر بأحداث مماثلة لأحوال الأنبياء السابقين لكونه بروزًا لهم جميعًا.

وكلمة ﴿هذه﴾ في قوله تعالى ﴿وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ..﴾ إشارة إلى هذه السورة، والمراد أن ما ذكرناه فيها من أخبار فإنها ليست قصصًا من الماضي فحسب، بل إنها أنباء سوف تتحقق حتمًا، وموعظة للناس، وتذكير للمؤمنين بواجباتهم.

وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢٢﴾

التفسير: أي قُل: لا حاجة بنا لِلُّجوء إلى الشجار وبذر الفتنة والفساد، لأن أعمالنا مختلفة عن أعمالكم، ولأن كل واحد من الفريقين مسئول عن أعماله هو، وسوف تُظهر النتائج بنفسها أيُّ الفريقين كان على الحق.

وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٣﴾

التفسير: أي لماذا نفذ صبركم على تأخر النتائج، في حين كنا نحن أدعَى لأن نفقد الصبر لأننا عرضة لعدوانكم. ولكنا لا نزال متمسكين بأهداب الصبر وأنتم لا تصبرون!

وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾

التفسير: أي.. مما لا شك فيه أن تحقق الأنباء المذكورة يبدو اليوم أمرًا مستحيلاً في بادئ النظر، ولكن النتائج في يد الله ﷻ، فلا بد أن تتحقق أنباؤه ووعوده في مواعيدها وإن بدت اليوم مستحيلة الوقوع.

كما تنبه الآية المؤمنين أنه مما لا شك فيه أن الله تعالى هو الذي زفّ لكم هذه البشارات وقطع لكم هذه الوعود، ولكن يجب أن تتذكروا أنه غني عن العالمين، ويمكن أن يؤجل الوفاء بها لتقصير منكم، فعليكم أن تظلوا عاكفين على عبادته، متوكلين عليه، لكي تستدرّوا رحمته، فينفّذ قراره في موعده ولا يؤخره عليكم أبدًا.